المعتقدات الكنعانية

خزعل الماجدي

المعتقدات الكنعانية

تأليف
خزعل الماجدي

هنـــداوي

المعتقدات الكنعانية

خزعل الماجدي

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٤٩٢ ٢

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور خزعل الماجدي.

المحتويات

مقدمة المؤلِّف	٧
المقدمة	١٣
١- مقدمة تاريخية	١٧
٢- المثولوجيا الكنعانية	٥٩
٣- القصص والملاحم الكنعانية	١٨٥
٤- اللاهوت الكنعاني	٢٢١
٥- الطقوس الكنعانية	٢٣٩
٦- الشرائع والأخلاق	٢٥٩
فهرس المراجع	٢٦٣

مقدمة المؤلِّف

كانت الكتابة أعظمَ حدثٍ حصل في حياتي، فمعها انتبهتُ لقطار عمري وقد وُضِع على سكةِ قطارٍ طويلة شعرت أنها لن تنتهي إلا مع نهاية العمر؛ ربما لأني أدركتُ أن الكتابة هي مهنتي الوحيدة التي سأجيدها ... وربما لأنها تناغمت مع أعماقي ... وربما لأني كنت أشعر بغُربة عن العالَم الواقعي فجاءت الكتابة لتخلق لي عالمًا متخيَّلًا من الكلمات، أجده منسجمًا مع نفسي وأجد فيه ما عجزتُ عن العثور عليه في الواقع.

وربما هو الخوف ... من الآخَرين والمجتمع، فقد شعرتُ أن هناك مَن يريد انتزاعَ حريتي مني، وحرماني من الأمور التي أحبها؛ بل الخوف ما جعلني رقمًا من أرقامهم، وقلتُ فَلْأخترِع لي رقمًا صعبًا ومعادَلةً يصعب فكُّ رموزها، وكان لي هذا عن طريق الكتابة.

ورغم أني مررتُ بالكثير من المهن، فإنها كلَّها كانت غريبةً عني، لم أشعر بأنها تُلامِس روحي وعقلي يومًا، وهكذا قرَّرتُ أن أكون كاتبًا ولا أكون سِواه، فكان لهذا القرار أثرُه العظيم في حياتي؛ حيث اتَّضحَت، يومًا بعد آخَر، أهدافي التي خُلِقتُ من أجلها.

ومثل أي ولادةٍ مقلوبة بدأتُ كتابةَ مذكراتي منذ أن كنتُ صبيًّا صغيرًا، أروي فيها، بسذاجة، ما أمرُّ به من أحداثٍ بسيطة، وما أقرؤه من الكتب، وما أحبُّه من الأغاني والهِوايات المبكِّرة؛ هذه المذكِّرات لا تعدو أن تكون أكثرَ من يومياتِ صبيٍّ مراهِق ما زال في الرابعة عشرة من عمره. ومعروفٌ أن المذكرات هي أصعبُ فنون الكتابة، ولا تأتي إلا في نهاية العمر؛ حيث عُمق الخبرة وطولها، والكَمُّ الهائل من الأحداث التي يواجهها شخصٌ قَلِق ومختلف مِثلي. ولكني، مع ذلك، أشعر اليومَ بالغِبطة؛ لأني أحتفظ بكنوزِ براءةٍ وسَرديات عفوية لا نظيرَ لها تتمثَّل فيما يقرب من ستة دفاتر سميكة من مذكراتٍ دوَّنتُ فيها عمرًا كان يُمكِن أن يتبدَّد ولا يحتفظ إلا بأضغاثِ صورٍ وأحداثٍ مرت بسرعة.

وحين بدأت بكتابة الشعر، كنتُ ساذجَ البدايات أيضًا، ولم يتصلَّب عودي فيه إلا بعد زمن، كلما زاد اطِّلاعي على شعر الشعوب، في تاريخها الطويل، وكان ذلك يجري قبل أن أنشر شيئًا في هذا المضمار، ثم بدأت رحلتي الحقيقية مع الشعر حين اختلطتُ بالوسط الأدبي والشعري، في العراق والعالَم العربي، الذي كان مُستعِرًا بالجدل العميق والخلَّاق.

وتقدَّمَت خطواتي أكثر وبشكل أقوى حين نشرتُ مجاميعي الشعرية ابتداءً من ثمانينيات القرن الماضي، حينها تَولَّعتُ بالشعر أيما تولُّع، فسلبَ كلَّ كِياني وبدوتُ كما لو أني منذورٌ له، وأنه خَلاصي الوحيد.

وبعد عَقدٍ من النشر المتواصِل والخوض في غِماره، جاء المسرح ليصبح حقلًا موازيًا للشعر أدركتُ فيه أن ما لا يُمكِن التعبير عنه شعرًا يُمكِن للنصوص المسرحية أن تقوم به، ومرت السنوات وإذا بي في بيدرٍ وارفٍ من الأعمال المسرحية المكتوبة والمنفَّذة إخراجيًّا على خشبة المسرح من قِبَل مُخرِجين كِبار.

أكسَبَني ولَعي بالشعر والمسرح قوةً ومَرانةً هائلتَين، واستمر الحقلان مَلاذًا لي يَنسجان شخصيتي الأدبية ويرتقيان بي إلى مَدارِك لم أحلم بالوصول إليها.

وسواء، في الشعر أو المسرح، كانت الأساطير تشدُّني دونَ غيرها حتى قادني هذا إلى الاطِّلاع على طيفٍ واسعٍ من أساطير الشعوب ومَلاحمها، ومن وَفرة ما اطَّلعتُ عليه منها، قراءةً، كنتُ أقارن بينها وأدقِّق فيها، وأزيد تنويع مراجعها شرقًا وغربًا.

من هنا جاء الحقل الثالث في اهتماماتي، وهو الأساطير وعلم الأساطير (المِثولوجي)، الذي تَصاعَد بحثي فيه مع دراستي الأكاديمية للتاريخ القديم وتراثه.

ولأن الأساطير مكوِّنٌ واحد من مكوِّنات الدِّين الثمانية، وجدتُ نفسي في طريق البحث في الأديان وعلم الأديان، وظهَر لي مبكرًا مجموعةٌ كتبٍ منتظِمة في تاريخ الأديان.

وحين توسَّعَ بحثي في أديان الشعوب وسَّعتُ اهتمامي في حقل الحضارة والدراسات الحضارية لكل الشعوب، وأصبَح هذا المشروع واعدًا بأن يكوِّن موسوعةً كبرى في تاريخ الحضارات.

نشْرُ هذه الأعمال في كتبٍ إلكترونية خطوةٌ طَمُوحة بلا شك جاءت مُتوِّجةً لكل هذا الجهد الواسع في الكتابة.

ستشمل هذه المجموعةُ جميعَ الكتب الإبداعية والكتب الفكرية موضوعةً بطريقة متداخلة من التنوُّع والتشكيل؛ فالأعمالُ الشعرية شملَت المجموعات الشعرية التي صدرت

من عام ١٩٨٠م وحتى يومنا هذا، والأعمالُ المسرحية شملَت المسرحيات التي ظهرت منذ ١٩٩٠م وحتى يومنا هذا، ومن ضِمنها المسرحيات التي لم تُنفَّذ، إخراجيًّا، للمسرح بعدُ.

تناولَت الأعمالُ الفكرية تيارات الفِكر الأربعة الأساسية في العلوم والتاريخ: الحضارات، الأديان، الأساطير، الأدب.

ينتج عن المسار الطويل في تجرِبة الكتابة ما يُشبِه الحكمة التي يَشُوبها الحزن، فبقدر ما يزداد حجم الحكمة في تراث الإنسان، يزداد، في مقابله، حجمُ الحزن والألم الذي يضعنا في مفترقِ طرقٍ واسعة؛ لأن الإنسانَ لا تُسيِّره الحكمة، بل تُسيِّره الغرائزُ والحاجات السريعة، وكذلك العنف والغضب.

الحلمُ المثالي في الوصول إلى حياة غنيَّة بالحكمة يتحقق عن طريق تراكُمها بوصفها رصيدًا جماعيًّا وخبرةً فردية، ولعلَّ الكتابةَ والاطِّلاعَ يوفِّران هذا ويجعلان منه واقعًا قابلًا للتداوُل.

منذ زمن بعيدٍ أدركتُ أننا في بلادٍ تفتقر إلى الحرية ومن الصعب مُمارَستها؛ ولذلك وجدتُ أثناء إقامتي في تلك البلاد أن الحرية أمرٌ شخصي وداخلي ولم أذُق طعمَها الجماعي يومًا، وحتى حين عشتُ في الغرب، لم أتمتَّع بثمارها، بل ظلت شأنًا داخليًّا ينمو تحت شجرة الأمان والقانون فقط.

ساهَمَت الكتابة أيضًا في تعزيز حريتي الداخلية وجعلها نابضةً بالحياة والمحبة. وكانت سياحتي الطويلة في الحضارات قد أعطَتني أبلغَ الدروس عن الأشكال المتنوِّعة للحضارات وإمكانية تشكيلها وفقَ البيئة والمجتمع وسيكولوجيا الجماعة، وكلُّ هذه الحضارات طرقٌ في التكيُّف والعيش، وليس بالضرورة أن يكون كلُّ تاريخ الحضارات «متحضِّرًا»، أو أن يكون جوهرها تحضُّرًا كاملًا ونقيًّا؛ لأن هذا يخالف طبيعةَ الإنسان التي يَسكنها الشرُّ والدمار والكراهية مثلما تَسكنها نزعات الخير والمحبَّة، فالحضارات تصطرع مع نفسها، بين هذا وذاك، ونتيجةُ هذا الاصطراع هي التي تعطينا لونَ تلك الحضارة ونكهتَها، المختلفَين عن لون الحضارات الأخرى ونكهتها.

الكتابة عن الحضارات أمر مُبهِج جدًّا؛ لأنها تجمع أدقَّ التفاصيل وتُبوِّبها في حقولٍ ومفردات شِبه ثابتة، وبذلك يُمكِن أن نقارن بين الحضارات بيُسرٍ شديد.

الأديان، من ناحيتها، تقدِّم التطلُّع والدأب الروحي نحوَ الأعالي والمطلَق، وتترك نصوص الدِّين، بصفةٍ عامة، تشوُّقات الإنسان لهذا العالَم المحجوب عنَّا، ولا شك أن لتاريخ الروح الحصةَ الأكبر في تاريخ الأديان، ومن الأديان نعرف كيف تنشط روح الإنسان نحوَ

المجهول، ومنها نتعلَّم كيف يجري السطو على الهاجس الروحي وتحويله إلى هاجسٍ سياسيٍّ ومنفعي.

ظلَّ تاريخ الأديان يلازم شغفي المعرفي، بعدَ أن كانت الفلسفة سيدةَ ذلك الشغف، وكان يحرِّك بي طاقةً عجيبة تذكِّرني بطاقة الشعر، التي نَمَت معي مبكرًا، حتى تيقَّنت أن الكثيرَ من ثمار الروح والشعر والفنون تَساقَط في حقل الدِّين، ذلك الحقل المجاوِر لنا، الذي هو حقل الشعوب عبر تاريخها الطويل.

لكنَّ دراسة كلِّ دِين، على حِدَة، تستوجب منِّي معرفةً جيدة بعلم الأديان، وأن تلازُم علمِ الأديان وتاريخ الأديان أمرٌ لا بد منه؛ ولذا كان، من الطبيعي، أن أعمل على تقصِّي مكوِّنات هذا العلم ومناهجه وعلمائه، وكان لي ما أردت.

الأساطير هي الأخرى خزائنُ العلوم والفلسفات والمعتقَدات البدئية، هي بذرةُ كلِّ هذا، وهي الحوار السردي الطويل بين العالَم وحواس الإنسان، في نصوصٍ لا تَرقى إلى أن تكون فكرًا ناضجًا؛ ولذا فهي لغةٌ بريئة مشحونة بالطاقة المقدَّسة.

وكان لتاريخ الآداب والفنون والعلوم سِحره الخاص في وجداني ومؤلَّفاتي، فقد نهلتُ منه الكثيرَ وحاولتُ أن أجسِّد بعض محطاته.

يَتغذَّى عقل الإنسان ويستنشق كلَّ هذه الخُلاصات الجمالية والروحية والنفسية لكي يَغتني ويجعل العالَمَ حوله وفيه أفضل، وتأتي القراءة أولًا ثم الكتابة كأنفاقٍ جوَّانية لسَبْر كل هذه الأغوار وجعلها تنطق بالعجائب والنوادر.

أتمنى أن تقدِّم هذه الأعمال شيئًا للقارئ، وأن تصل بعضَ الخيوط التي أسَّست قصة الدأب والمواظَبة على حياكة ونسج مشروعٍ تجاوَز زمنُه أكثرَ من نصف قرن.

خزعل الماجدي
٢٠٢١/١٢/٧م

الإلهة الأم الكنعانية إشيرا Asherah (عشيرا) زوجة الإله الكنعاني الأب (إيل)، تسمى في الألواح الأوغاريتية أثيرات Athirat. وتسمى إيلات، إيلاث Elath (Elat) أي الإلهة، وتظهر في اللوحة وهي تُطعم عنزتين أكواز الذُّرة.
اللوحة من رأس شمرا (أوغاريت) في سوريا كجزءٍ من صندوق عاجي من المينا البيضاء يعود زمنها لحوالي ١٣٠٠ قبل الميلاد، موجودة الآن في متحف اللوفر، باريس.
رمز الكتاب: شجرة إشيرا المقدسة (السارية).

المقدمة

يمكننا أن نصف أديان وعقائد بلاد الشام القديمة بمنظومة مركبة من العقائد الأمورية والكنعانية والآرامية التي اختلطت أنسجتها وذابت في محيط واحد، سرعان ما أصبح حاضنًا لعقائد وافدة؛ كالفارسية، والإغريقية، والرومانية، ثم رحمًا لولادة عقائد جديدة موحِّدة، هي اليهودية والمسيحية.

هكذا يبدو لنا المشهد الثاني باذخًا مثيرًا، تحتدم فيه عقائد الشرق والغرب، وهكذا يتوهج نابضًا بالحيوية بعد أن خبت حوله العقائد القديمة وصبَّت فيه جذواتها.

وإذا كنا قد تناولنا العقائد الآرامية في كتاب مفصَّل، فإننا سنتناول العقائد الأمورية في كتاب قادم، وسنكرس كتابنا هذا للبحث في العقائد الكنعانية.

تكاد العقائد الكنعانية تشكل موقع القلب في العبادة الشامية القديمة؛ لخصوصيتها وسعة تراثها ودرجات تنوعها المدهشة في مختلف مدنها وفتراتها التأريخية؛ فهي تشمل التراث الروحي لمدن شرق المتوسط الساحلية، ومدن جنوب المتوسط الساحلية من خليج سِرْت حتى سواحل إسبانيا، مشتملة على جزر البحر المتوسط الأساسية. هذا التراث الذي يمتد منذ الألف الثالث قبل الميلاد وحتى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد.

في كتابنا هذا سنناقش الكثير من المسلمات الخاصة بالتأريخ والعقائد الكنعانية. وأعدنا ترتيب وتوصيف بعضها؛ بل وقلبنا بعض هذه المسلمات رأسًا على عقب، وأوجدنا لها تفسيرات ومخارجَ جديدة.

بحثنا في **الفصل الأول** تأريخ الأقوام الكنعانية الأولى، وحللنا، من منطلق جديد، نشأة هذه الأقوام وأصولها القديمة، كما سردنا المراحل التأريخية للكنعانيين، مرورًا بفينيقيا وانتهاءً بقرطاج. واتضحت بذلك تلك المساحة الواسعة التي شغلها الكنعانيون في الزمان والمكان؛ لنكوِّن أرضية تاريخية نبني عليها مسرى تطور واشتباك العقائد الروحية

الكنعانية. وكان أن حللنا مفصلًا في الفصل الثاني الركن الأول من هذه العبارة، وهو المثولوجيا الكنعانية التي تناولنا فيها أربعة مباحث: خصص **المبحث الأول** لتحليل هيكل الآلهة الكنعانية بمختلف مشاربها الأوغاريتية الفينيقية والبونية، ووضعنا شجرة أنساب شاملة للآلهة الكنعانية، كانت لنا عونًا كبيرًا في تقسيم منطقي للآلهة والأساطير، ومدخلًا صحيحًا لفهمها الدقيق، ووضعنا فرضية جديدة حول أصل الآلهة الكنعانية لم يسبقنا إليها أحد، فقد استنبطنا أسماء الجيل الأول والأقدم منها، ذلك الذي لم تذكره الآثار الدينية ومُسح عمدًا من النصوص، وساهمت الإضافات الهيلنستية والرومانية في تغييبه تمامًا. فقد توصلنا إلى معرفة الأسماء الكنعانية الدقيقة للآلهة الأم الأولى، وآلهة السماء والأرض، تلك الآلهة التي سبقت ظهور الإله الأكبر (إيل)، وقد فسَّر لنا هذا الكشف الكثير من الأمور الغامضة في الأساطير الكنعانية، ونأمل أن الآثار ستجود ذات يوم وتكشف لنا عن ما وضعناه هنا كفرضية؛ ولذلك فإننا نضع توصلاتنا هذه في ذمة التأريخ ريثما تؤكدها لنا حفريات الآثار في المستقبل. ثم تناولنا طبقات شجرة الأنساب هذه ووضعنا انحدارها وتسلسلها الدقيق من الآلهة القديمة إلى آلهة الكون إلى جيل إيل ومن معه، ثم جيل بَعْل، ثم أشكال وأبناء بعل (البعول)، ثم اندماج نهاية شجرة الآلهة الكنعانية بالآرامية وظهور الثالوث الكنعاني الآرامي المكون من «بعل حدد، وعرغاس، وسيميوس». أما في **المبحث الثاني** فقد التقطنا ما يقرب من ٤٠ رمزًا دينيًّا كنعانيًّا، وأعدنا تخطيطه وشرحه ودلالته، وخصوصًا رموز الآلهة التي نرى أنها تمثل أقصى التجريد الروحي والفني، وتعكس الطبقة العميقة للعقائد الروحية. وفي **المبحث الثالث** تناولنا «الأساطير الكنعانية» بالتفصيل؛ فقد عرضنا الخليقة الكنعانية من خلق الكون والعناصر الأربعة، وخلق أنصاف الآلهة، والتنين، ثم خلق الإنسان، وبعدها عرضنا لأساطير الإله إيل ودورته المثولوجية، وكذلك لبعلٍ ودورته المثولوجية، ثم كل ما يتعلق بأساطير الآلهة الكبار الآخرين؛ مثل: عناة، وأدونيس، وأشمون، وشدرافا ... إلخ، وفي **المبحث الرابع** تعرضنا للكائنات الأسطورية غير الإلهية؛ مثل: الشياطين، والكائنات الخرافية ... وغيرها. وبذلك نكون قد غطينا كل ما يتعلق بأساطير الآلهة ولوازمها. أما **الفصل الثالث** فكان مقتصرًا على القصص والملاحم الكنعانية، فقد درسنا الآباء والبشر المؤلهين والأبطال منذ بدء الخليقة قبل الطوفان وبعده، ثم في أوغاريت، ثم في فينيقيا، ثم في قرطاج، وهم أبطال ينحدرون، في الغالب، من نسل الآلهة؛ أمثال: كرت، ودانيال، وأمتهات، وقدموس، وأوروبا ... إلخ؛ لاشتراكهم مع الآلهة في القصص والخرافات. وقد وجدنا ضرورة تخصيص هذا الفصل لهم لتلافي الخطأ الدائم الذي يقع فيه الباحثون

عندما يخلطونهم مع الأساطير الكنعانية، وهم في حقيقة الأمر إما بشرٌ مؤلهون، أو مرايا بشرية لآلهة معروفة، أو ملوك ينحدرون من نسل الآلهة ... وهكذا. أما في **الفصل الرابع** فقد تناولنا دراسة اللاهوت الكنعاني بدءًا من المؤسسة الدينية التي تشمل الآلهة في السماء ومعابدها على الأرض وكُهانها وهم يَصِلون السماء بالأرض. ثم عرجنا على الشعب المختار لإيل والأضاحي، وعلاقة الإله بالإنسان والأصنام، وعقائد ما بعد الموت من عالم آخر رغم قلة المراجع التي تبحث في اللاهوت الكنعاني. وقد حاولنا أن نعطي فكرة موجزة عنه. وينطبق مثل هذا على الطقوس الكنعانية التي ناقشناها في **الفصل الرابع**؛ حيث حاولنا ترميم صورتها المبعثرة فصنفناها إلى طقوس يومية؛ كالاغتسال، والتطهر، والصلاة، والنذور، والقرابين ... وغيرها، ثم طقوس المناسبات؛ كالزواج، وبناء المعابد، والموت، الذي شغلت طقوسه الكنعانيين أينما كانوا، ثم الطقوس الدورية، وخصوصًا الأعياد الأدونيسية، وأعياد ملكارت ورشف وأشمون، والطقوس السبعية، التي كانت تقام كل سبع سنوات. وفي **الفصل الخامس** تلمسنا بعض أوجه الشرائع والأخلاق الكنعانية التي كانت تشكل المكونات الثانوية للعبادة الكنعانية. هذه هي الصورة التي قدمناها عن العقائد الكنعانية، والتي حاولنا لمَّ شتاتها المبعثر، وبإيجاز شديد، دونما خلط اعتباطي مع العقائد الأخرى، والذي اعتدنا مصادفته في المراجع التقليدية، آملين أن نتلافى ما فاتنا من حقائق جديدة ظهرت عن الحياة الروحية للكنعانيين. لا يفوتني هنا أن أتقدم بالشكر العميق لكل من قدم لي العون في مجال هذا البحث، ولكل المتاحف التي زودتني بصور الآثار اللازمة، والمراجع التي كانت عوننا الأكبر في إنجاز هذا الكتاب. ويطيب لي أن أخص بالشكر صديقي الفنان فاروق كاظم، الأستاذ في جامعة عمر المختار، كلية الآداب والعلوم في درنة، والذي قام برسم وتخطيط معظم صور ولوحات هذا الكتاب.

والله الموفق

د. خزعل الماجدي
مدرس التأريخ القديم وتأريخ الفن
في جامعة عمر المختار، كلية الآداب والعلوم في درنة
١١/٧/٢٠٠٠م

الفصل الأول

مقدمة تاريخية

دراسة في التاريخ الحضاري للكنعانيين

ما زال الغموض يحيط تاريخ الكنعانيين كلَّه: أصلهم، مكان هجرتهم الأول، طريق هجرتهم، مدنهم الأولى، لغتهم الأولى، انتشارهم، بواكير حضارتهم، نهاياتهم.

لعل من أهل أسباب هذا الغموض هو عدم العثور على آثارهم القديمة الأولى التي يمكن أن توضح هذه الأمور، واختلاط هذه الآثار — إن وجدت — مع أقوام قريبة منهم؛ كالأموريين، أو سكان المكان الذي هاجروا منه أو إليه. وهناك سبب آخر هو اختفاء أصول مسمياتهم التراثية الأولى فيما يخص المدن والآلهة والقبائل والملوك ... وغير ذلك؛ مما أدى إلى غياب الدقة في تحديد بداية هجراتهم وطريق هجرتهم وأماكن استيطانهم الأولى، وعلاقة هذه الأمور ببعضها.

ولا شك أن وجود أكثر من نظرية حول أصول الكنعانيين وعدم تقديم الأدلة الكافية عليها وعدم أرجحية أي منها على الأخرى يؤدي إلى ظهور الفوضى في هذه الأمور، كما أن أغلب الباحثين والمؤلفين لا يتوخَّون الحذر عندما يدرسون تاريخهم ويقعون — بقصد وبدون قصد — في خلط عجيب بين تاريخ وتراث الكنعانيين وتاريخ وتراث الأقوام المجاورين لهم، أو الذين أتوا بعدهم، خصوصًا الأموريين والآراميين. كل هذه العوامل زادت الغموض في تاريخ وتراث الكنعانيين، كما أن الاستسلام للمسلمات التي وضعت مبكرًا عن تاريخ الشرق الأدنى بعامة وتاريخ بلاد الشام بخاصة أوقف الاجتهاد والبحث في حلول جديدة للأسئلة المطروحة حولهم.

أمير أو كاهن كنعاني يؤدي طقسًا شعائريًّا (نقش في إناء فضي مموه بالذهب).
«إن يد الإله الملك ستقودكَ، وحب الأمير الإله يوقظكَ. تأنيبكَ يا إيل هو حكمة الحِكَم؛ بيد أنك وهبت الحياة إلى الشعب الأبدي.» (الكاهن إيلي ميلكو، ملحمة اللآلئ، القرن الرابع ق.م.)

وسنحاول في هذا الفصل استعراض بعض جوانب الغموض والخلط، ثم التقدم بنظرية جديدة حول أصل الكنعانيين، ومحاولة تقسيم التاريخ الكنعاني إلى مراحل متجانسة ومتواترة.

ورغم أننا لا ندَّعي صواب وجهتنا المطلق؛ لكننا حاولنا، في كتابنا السابق عن العقائد الآرامية وفي هذا الكتاب وكتابنا القادم عن العقائد الأمورية، أن نضع نظرية واحدة حول أصول هذه الأقوام الثلاثة، التي نرى أنها تحمل أصلًا واحدًا متجانسًا وتاريخًا مشتركًا.

وسنكمل نظرية الأصول هذه بمسرد زمني يوضح المراحل التاريخية للكنعانيين بطريقة تتفق مع إيقاع تاريخ المنطقة المشتبك بتاريخهم. ونود أن نؤكد هنا أننا لا ندعي الصواب المطلق لآرائنا؛ بل هي آراء تمثل قناعتنا واستنتاجاتنا في هذا المجال، كذلك انعكست هذه الآراء على الكثير من تفسيراتنا الجديدة لمظاهر العبادة والعقائد الكنعانية كما سنرى ذلك في الفصول القادمة.

(١) من هم الكنعانيون؟

سنبحث أولًا في أصل كلمة كنعان، التي نرى أنها كلمة طرأت على الكنعانيين ووسمتهم وتسمَّوا بها، ورغم أن هذه الكلمة ترجع إلى أصول قديمة أبعد من أن تكون توراتية أو عبرية، فإنها ليست الاسم الحقيقي لهؤلاء القوم.

سنستعرض هنا الأسماء المحتملة التي أطلقتها الأمم والأقوام عليهم وكانت أصل تسمية كنعان، وهي كما يلي:

(١) **الاسم الأكدي:** يرى بعض المؤرخين أنه ربما كان الاسم الأكدي «كناجي، أو كناخني Kinakhni» الذي أطلقه البابليون عليهم، والذي ظهر في رسائل تل العمارنة في مصر، هو أصل هذه التسمية والذي يعني «اللون الأحمر الأرجواني»، وقد ظهر هذا الاسم أيضًا بصيغة نوزي كناخني أيضًا (انظر: حتي، ١٩٥٨م، ٨٧).

(٢) **الاسم المصري:** ورد اسم «بي-كنعان Pekanan» عند المصريين للدلالة على المناطق الجنوبية والغربية من سوريا.

وكذلك استعمل المصريون منذ عصر الدولة القديمة كلمة «فنخو» للدلالة على شعب من شعوب الشام، ويرجع الأستاذ محمد أبو المحاسن عصفور بأن الإغريق استعملوا هذه اللفظة وحوروها إلى «فويفكس Phoivikes» للدلالة على فينيقيا و«فويفيكن Phoivikn» للدلالة على الفينيقيين (انظر: عصفور، ١٩٨١م، ١٣).

(٣) **الاسم الكنعاني:** استعمل الكنعانيون أنفسهم هذه الكلمة للدلالة عليهم في بعض الأحيان، يؤيد ذلك نص الملك أدريمي ملك ألالاخ، وهي المملكة الكنعانية-الأمورية التي ازدهرت خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد في الشمال الغربي من سوريا (قرب أنطاكية) (انظر: السواح، ١٩٩٥م، ١٩).

(٤) **الاسم العبري:** تعني كلمة كنعان باللغة العبرية، بلاد الأرجوان، ولكن كلمة «ك. ن. ع» تعني باللغة العبرية أيضًا: انخفض، أو منخفض. وهذا يعني أن اسم الكنعانيين كان يعني «سكان الأرض المنخفضة».

(٥) **الاسم العربي:** لا يختلف الاسم العربي الذي قد يكون أصل هذه الكلمة عن ما يعنيه الاسم العبري؛ فكلمة «خنع، قنع، كنع» تشير إلى الهبوط والانخفاض والتواضع.

(٦) **الاسم الحوري:** يرى بعض الباحثين أن أصل كلمة «كنعان» مشتق من كلمة حورية هي «كناجي Kanaggi» أي الصبغة الأرجوانية أو القِرمزية التي اشتهر الكنعانيون بصناعتها، ولا نعرف ما إذا كانت هذه التسمية هي أصل التسمية الأكدية أم العكس؟ (انظر: حتي، ١٩٥٨م، ٨٥.)

(٧) **الاسم الإغريقي:** ربما حوَّر الإغريق الكلمة المصرية «فنخو» التي تحولت إلى «فينيكس» للدلالة على «الفينيقيين»، وربما ترجموا كلمة كناجي الحورية أو الأكدية للدلالة على اللون الأحمر الأرجواني الذي كان لون الصبغة التي يصنعها الكنعانيون، وفي حالتي التحوير أو الترجمة نحصل على كلمة «فينيقيا» التي أصبحت تطلق على الكنعانيين عند الإغريق منذ حوالي بداية الألف الأول قبل الميلاد.

(٨) **الاسم الروماني:** استعمل الرومان كلمة «بوني Poeni» للدلالة على الفينيقيين الغربيين، أي القرطاجيين، وهذه الكلمة تعني باللغة الرومانية: اللون الأحمر الأرجواني أيضًا، وهو لفظ محرف لاتينيًّا من اللفظ اليوناني، ومع ذلك فقد فرقوا بينهم وبين الفينيقيين في الشرق حيث أطلقوا على هؤلاء اسم «فوينيقي Phenices» وإن كانوا يعترفون بانتمائهم إلى جنس واحد (انظر: عصفور، ١٩٨١م، ١٤)، وتبدو لنا كل هذه الأسماء لاحقة على الاسم المجهول القديم الذي كان الكنعانيون يتسمون به.

تظهر كلمة «فينيق» في المثولوجيا التاريخية للدلالة على مفيد كنعان وابن هيدرون، الذي هو ابن كنعان.

أما على المستوى اللغوي، فهناك من يرى أن اسم «فينيق» يعني: إما النخلة؛ حيث يعني اسمها «الرامي» بسبب طلعها، أو الطائر الذي كان ينبعث من رماده بعد أن يحترق، وربما يرجع أصله إلى الطائر المصري «بنو» الذي كان عبارة عن اللقلق الذي يرمز لإله الشمس (رع)، الذي يقف عليها من الصباح إلى المساء.

إن ما نود التأكيد عليه هنا هو أن اسم «كنعان» كان قديمًا، وكان يدل على شيئين هما: الشعب الذي سكن الأرض المنخفضة. أو الذي كان مرتبطًا باللون الأحمر الأرجواني،

إما من خلال لون بشرته الحمراء، أو من خلال صناعته لنوع من الصبغات الحمراء. ويتبع ذلك اسم «فينيق» الذي كان يشير أيضًا إلى اللون الأحمر، وكذلك إلى النخلة، أو اللقلق.

ونرى أن تسمية «كنعان» ثم «فينيق» للدلالة على الشعب الذي سكن سواحل بلاد الشام وجنوبها كانت لاحقة في جميع الأحوال، فقد كان لهذا الشعب اسم معين عندما هاجر من المكان الذي ظهر فيه واستعمل هذا الاسم لكنه اكتسب اسمًا، بل أسماء أخرى؛ منها: كنعان وفينيق. وقد كرَّس المؤرخون والآثاريون المعاصرون هذا الاسم استنادًا إلى خلفية توراتية واضحة، وأصبح هو الأكثر شيوعًا للدلالة على هذا الشعب الآن وليس في الماضي.

سنحاول في الصفحات القادمة الكشف عن احتمالات الاسم الحقيقي لهذا الشعب.

(٢) مراحل التاريخ الكنعاني

أول المعضلات تكمن في تقسيم التاريخ الكنعاني إلى مراحل متجانسة يمكن من خلالها فهم سيرة الشعب الكنعاني منذ بداية ظهوره وحتى نهايته.

نرى أن التاريخ الكنعاني ينقسم إلى أربع مراحل كبرى اكتسب فيها الشعب الكنعاني في كل مرحلة اسمًا جديدًا حسب البيئة الجديدة التي عاش فيها، وهذه المراحل هي:

(١) **المرحلة القديمة (مرحلة الأصول):** وهي المرحلة التي بدأ فيها هذا الشعب بالظهور قبل أن يهاجر إلى بلاد الشام. وتستمر هذه المرحلة ما يقرب من ألف سنة، تمتد من ٤٠٠٠–٣٠٠٠ق.م. وتشغل هذه الفترة ما يسمى بالعصر الحجري النحاسي وبداية العصور التاريخية.

(٢) **المرحلة الكنعانية:** وهي مرحلة الهجرة والاستقرار على السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط في بلاد الشام وفي جنوب بلاد الشام «أرض فلسطين» بشكل خاص. وتستمر هذه المرحلة حوالي ألفي سنة، وبشكل تقريبي من ٣٠٠٠–١٢٠٠ق.م.، وتشمل هذه الفترة ما يسمى بالعصر البرونزي بأكمله.

(٣) **المرحلة الفينيقية:** وهي مرحلة العصر الحديدي الذي امتد لما يقرب من ألف سنة من ١٢٠٠–٣٣٢ق.م.، ويصادف أن يشيع الاسم الذي كرسه الإغريق عنهم وهو «الفينيقيون»، وسنعتني في هذه المرحلة، حصرًا، بدراسة التاريخ الفينيقي الشرقي في السواحل الشرقية للبحر المتوسط في بلاد الشام.

(٤) **المرحلة البونية والقرطاجية:** وهي مرحلة تاريخ الفينيقيين الغربيين بعد أن هاجروا ثانية من بلاد الشام إلى جزر وسواحل البحر المتوسط في بلاد أوروبا وفي بلاد شمال أفريقيا، ويشغل الفترة السابقة ذاتها تقريبًا (١٢٠٠–١٤٦ق.م.).

(٢-١) المرحلة القديمة (الأصول)

٤٠٠٠–٣٠٠٠ق.م.

تبدو التقديرات الزمنية لهذه المرحلة غير دقيقة تمامًا؛ بل هي تقريبية، وربما قلَّت أو زادت أو تراوحت بمقدار ٥٠٠٠ سنة عن التاريخ المثبت أعلاه زيادة أو نقصانًا.

لنستعرض أولًا النظريات التي اقترحت المكان الأول للكنعانيين قبل هجرتهم إلى بلاد الشام، ثم نقدم رأيًا جديدًا حول هذا الموضوع.

(١) **جزيرة العرب:** لعل هذه النظرية هي الأكثر شيوعًا ليس فيما يخص الكنعانيين فحسب، بل جميع الأقوام السامية التي ينتمي لها الكنعانيون، وهي نظرية لا تؤيدها الآراء والوقائع القديمة، ولم تعد تصلح لتفسير الهجرات السامية. وأصحاب هذه النظرية يرون أن هذه الهجرات كانت تتجه من بلاد نجد والحجاز واليمن إلى بلاد الشام والعراق.

يرى البعض أن هجرة واحدة ظهرت من الجزيرة العربية في حدود ٢٥٠٠ق.م. ذهبت باتجاه الصحراء السورية العراقية وهناك انقسمت إلى قسمين؛ هما: الأموريون، الذين بقوا في هذه الصحراء، ثم اتجه بعضهم نحو العراق القديم واصطبغوا بالمؤثرات الحضارية الرافِدَينية، والكنعانيون الذين استمروا في هجرتهم إلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط في بلاد الشام وإلى جنوب بلاد الشام (فلسطين)، واصطبغوا بالمؤثرات المحلية لبلاد الشام آنذاك.

ولا نعرف ما هي الأسانيد الآثارية التي تقدمها هذه النظرية سوى هذا السيناريو المكرر الذي نراه ذاته في الهجرات السامية الأخرى مع استبدال الأسماء.

(٢) **سواحل الخليج العربي:** طرح «سترابون» هذا الرأي وقال: إن سكان الخليج العربي كانوا يسمون بعض مدنهم بأسماء المدن الكنعانية، مثل: صيدا وصور وأرواد، وقد رجح أن تكون هذه المدن الخليجية هي الأقدم، وهي التي احتضنت أجداد الكنعانيين، وأن معابدهم كانت تشبه المعابد الكنعانية، ويضيف البعض بأن الكنعانيين ربما يكونوا قد انطلقوا من البحرين باتجاه سواحل البصرة، ثم باتجاه الطرق المؤدية إلى الساحل السوري.

من مدنهم القديمة على ساحل الخليج «صور» على ساحل عُمان، وجبيل على ساحل الأحساء، وأرواد، وهو الاسم القديم لجزيرة المرق (انظر: سليم، ١٩٨٩م، ٢٨٤-٢٨٥).

(٣) **سواحل البحر الأحمر:** ظل المؤرخون يطرحون مثل هذه الآراء على اعتبار أن الكنعانيين سكان السواحل المتوسطية الشرقية، ولذلك لا بد أن تكون أصولهم سواحلية أيضًا، ولذلك رأى «هيرودوت» أنهم نزحوا من البحر الإرتيري، أي الأحمر، إلى بلاد الشام.

(٤) **سيناء والنقب:** ظهر في بعض وثائق رأس شمرا ما يشير إلى أن سكانها قدموا من شبه جزيرة سيناء أو من النقب، من جزيرة العرب ومن سواحل البحر الأحمر معًا.

(٥) **مصر:** كان للعلاقة المميزة بين الكنعانيين والمصريين أثر كبير في ظهور رأي قديم مفاده أنهما من أصل واحد. ويظهر هذا الرأي في بعض الأساطير التي جمعها المؤرخ الإغريقي «إيسوب»، التي ترى بأن الإلهين «قدم» و«فينيق» جاءا من مدينة طيبة المصرية ليتملكا مدن صور وصيدا، وأن الإله أوزيريس خلال طوافه في الأرض أقام الإله «بوصير» متوجًا على فينيقيا (انظر: عبد الحكيم، ١٩٧٨م، ٥٤).

وقد ذهبت التوراة في هذا المنحى؛ إذ سلخ التوراتيون كنعان من العائلة السامية ونسبوه هو إلى مصراييم إلى «حام» (انظر: سفر التكوين، ١٠: ٦).

وسنناقش الخلفية المثولوجية لهذا الرأي في الفصل القادم.

(أ) الأصل الرافدَيني القديم للكنعانيين

سنحاول في هذا الكتاب أن نطرح موجز نظرية تثبت الأصل الرافديني العراقي القديم للكنعانيين بعد أن استعرضنا الآراء السابقة التي تعاني من ضعف وقصور شديدين، وعلى ضوء ذلك سنحاول استنتاج الاسم الحقيقي في تلك العصور القديمة.

نرى أن الكنعانيين نشئوا أساسًا في أعالي وادي الرافدين وبلاد الشام (كغيرهم من الأقوام السامية) وأنهم كانوا مع الأموريين كتلةً واحدة، أي إن الأموريين ظهروا في وادي الرافدين أولًا، وكانوا يعيشون في مناطق لا تعتمد على الإرواء والأنهار؛ بل على الأمطار في البراري والصحاري، ويصعب علينا، في الوقت الحالي تحديد الموقع الدقيق الذي كانوا

فيه، رغم أننا نرجح أن تكون الأرض على امتداد نهر الفرات في وادي الرافدين. وفي حدود ٣٥٠٠ قبل الميلاد انشطر الشعب الأموري إلى ثلاثة أقسام، هي:

(١) الأموريون الذين كانوا يسكنون حول نهر الفرات الأعلى والذين اتجهوا نحو المناطق المرتفعة والجبلية في شمال العراق وسوريا، وهو الشعب الذي عرف فيما بعد بـ «الآراميين»، إذ إن معنى «آرام» هو المناطقة المرتفعة.

(٢) الأموريون الذين كانوا يسكنون حول نهر الفرات الأوسط، والذين بقوا يجوبون الصحراء العراقية السورية، وتشكل منهم البدو الذين أطلق عليهم السومريون «مارتو» والأكديون «أمورو»، أي الساكنين إلى الغرب من الفرات.

(٣) الأموريون الذين كانوا يسكنون حول نهر الفرات الجنوبي وبمحاذاة سواحل الخليج العربي الممتدة آنذاك إلى تخوم مدينة أور وأريدو ... وغيرهما، وهم الذين اتجهوا إلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط في بلاد الشام وجنوب بلاد الشام وعرفوا هناك بـ «الكنعانيين»، رغم أن لهم اسمًا محددًا عرفوا به وهم في العراق.

لم يكن تكاثر وتكون وانقسام وهجرة الأقوام الأمورية أمرًا يسيرًا يحصل بين ليلة وضحاها؛ بل إنه استغرق مئات السنين، لكن أصلها الواحد كان واضحًا في تشابه الكثير من عادات وتقاليد وأديان هذه الشعوب المكونة لهم.

وإذا كنا قد طرحنا في كتبنا السابقة حول الآراميين والأموريين ما يمكن أن يشكل ملامح نظرية جديدة في أصولهم فإننا سنطرح هنا بإيجاز شديد ما يكمل ذلك حول الكنعانيين.

إن المثولوجيا الأمورية والآرامية والكنعانية تكاد تتشابه في كل شيء من الإلهة الأم الأولى، إلى آلهة الكون الكبار، إلى آلهة الكواكب والعوالم السفلى ... لكن الفرق الوحيد هو أن المثولوجيا الكنعانية تترجم أسماء هذه الآلهة من اللغة السامية الشرقية إلى اللغة السامية الغربية، وأحيانًا تبقي على بعضها، أما الأساطير فتكاد تكون متشابهة.

طرحنا في كتبنا السابقة آراء مفادها أن اسم الأموريين اشتق من اسم إلههم القديم «مُر» أو «مار»، وأن اسم الآراميين اشتق من اسم إلههم القديم «رُم» أو «رام». أما الكنعانيون فيصعب أن نقول إن كنعان هو إلههم القديم، أو جدهم الأكبر؛ لأن مثل هذه التحليلات غير العلمية والفولكلورية لا تقودنا إلا إلى تكريس الأوهام والأخطاء، لذلك يجب البحث جديًّا عن إلههم الأقدم.

وقد قمنا بتنظيم شجرة دقيقة للآلهة الكنعانية خلَّصناها من أوهام الرواة والنصوص الدينية الفولكلورية، وأقمناها على أساس علمي آثاري دقيق (انظر الفصل الثاني: شجرة أنساب الآلهة الكنعانية)، وقد توصلنا إلى أن هناك أجيالًا من الآلهة الكنعانية القديمة يمكننا وصفها بالشكل الآتي:

(١) **الإلهة الأم (يم):** وهي الإلهة الهيولية المائية الأم الأولى التي ظهر منها الكون، والتي انتصر عليها «بعل» في أسطورة مبتورة ومشوهة عند الكنعانيين، ويمكن أن يكون اسم «اليميون» أحد أقدم أسماء الكنعانيين عندما كانوا في العراق القديم يعيشون على سواحل الخليج العربي التي يقال إنها كانت تمتد إلى شمال بغداد الحالية ذات يوم، ولذلك يكون من الطبيعي أن يكون اليميون، أي البحريون اسمهم الأقدم.

هناك ما يؤيد هذه التسمية، فقد بقيت عالقة في ذاكرة الكنعانيين وكان تطلق على بعض الكنعانيين الذين سكنوا أرض باشان، وكان يطلق عليهم أيضًا اسم الرفائيين، وتقع أرض باشان شرقي الأردن، بين جبلي جرمود وجلعاد، وتحدها شمالًا أرض دمشق، وشرقًا بادية سوريا، وجنوبًا أرض جلعاد، وغربًا غور الأردن، ويقال إن موسى طرد الرفائيين واحتل باشان، وكان يسكن معهم الجشوريون والمعكيون الذين بقوا فيها، وهم من الكنعانيين أيضًا، وكان المؤابيون يسمون الرفائيين بـ «الأيميين» (انظر: الماجدي، ١٩٩٧م، ١٢٩).

كذلك ورد اسم «الأميين» في التوراة ليدل على الأقوام التي سكنت في أرض أدوم جنوب الأردن وفلسطين.

(٢) **إله السماء (شم أو شميم):** وهو أول إله للسماء بعد انشطار المياه الأولى (يم)، ونرجِّح أن يكون اسم شم، الذي يمكن أن يكون أيضًا «شام»، هو الاسم الراسخ الذي أُطلق على الكنعانيين قبيل بداية العصور التاريخية وهم في وادي الرافدين، ثم حملوا هذا الاسم بعد رحيلهم غربًا باتجاه البحر المتوسط، ونتج عن ذلك تسمية الأرض التي استوطنوها شرق البحر المتوسط وعلى سواحله باسم «شام» ومعناها أرض السماء، كذلك نتج عن ذلك أن تسمى أقوامها بـ «الشاميين»، أو «الساميين»، والساميون هنا يدلون بدقة على الكنعانيين، أي الأقوام المهاجرة باتجاه بلاد الشام. ويقلب هذا الاستنتاج الأمور رأسًا على عقب، فبدلًا من أن تكون التسمية الشائعة للساميين دالة على أقوام كثيرة، فإنها كانت تدل قديمًا، كما نرى، على أقوام محددين هم سكنة بلاد الشام النازحين إليها من جنوب وادي الرافدين.

أما أن يكون هؤلاء الأقوام قد سكنوا في أراض منخفضة بين جبال سوريا ولبنان والساحل وأُطلق عليهم «الكنعانيون»، أي سكان الأرض المنخفضة، فهنا أمر آخر نرى أنه جرى لاحقًا وكرَّسه أعداؤهم العبريون، الذين نرى أن اسم السماويين لم يرق لهم، فأحبوا أن يعكسوه تمامًا فأسموهم بالواطئين (الكنعانيين) ليحققوا أربعة أهداف في آن واحد؛ أولها: هو أن يحذفوا عنهم صلتهم بالخنوع والهبوط، وربما يصفونهم بلون أحمر يدل على بشرتهم أو الصبغة التي يستعملونها، ولكي نؤكد ما ذهبنا إليه فإنهم جلوا أنفسهم من نسل «شام» أو«سام»، وأخرجوا الكنعانيين منه ... وهذه واحدة من أكبر التشويهات التي ارتكبها العبريون ثم اليهود في كتابهم التوراة. وسنناقشها مفصلًا في مكان آخر من هذا الكتاب.

(٣) **أديم (أدم، أدمة):** وهي إلهة الأرض التي يمكن أن تكون أيضًا مصدر تسمية للكنعانيين القدماء، ونرى أنهم (كلهم أو بعضهم) ربما كانوا يتسمون بـ «أديميون»، أو «آدميون» أو «أدوميون». ونرى أن هناك آثاريًّا ما يدل على ذلك أيضًا، فظهور «الآدميون» في جنوب الأردن وفلسطين وجنوب البحر الميت حتى خليج العقبة في برية قازان تحديدًا، والأدميون تسمية محدودة للكنعانيين تسمت بها الأقوام الكنعانية الجنوبية وتعني «الأرضيون»، كذلك يشير ارتباطهم بعيسى واللون الأحمر مرة أخرى إلى ما شاع عن الكنعانيين من لون أحمر؛ سواء عن طريق بشرتهم أو الصبغة التي استعملوها. وقد يقودنا هذا إلى استنتاج آخر، وهو: أن الشاميين كانوا يدلون على الأقوام الشمالية في بلاد الشام، والأدميون كانوا يدلون على الأقوام الجنوبية، وقد تم ذلك بدلالة السماء والأرض التي تُرادف الشمال والجنوب.

(٤) **إيل:** وهو كبير الآلهة الكنعانية، وربما كان الشعب الشامي يسمى «الإيليين» أو «إيليم»، وهي تسمية مقنِعة أتت بعد ذلك وذكرتها ملحمة اللآلئ؛ حيث يرى ميديكو أن «الشعب الكنعاني يطلق على نفسه لقب «شعب إيل» وسكان المدن يُدعون Krytm. إن العالم لودس في كتابه «إسرائيل: ص٦٤» يعتقد بأن لفظة كنعانيين تعني سكان المدن. وفي حكم الملك الكبير كانت البلاد كل سوريا وفلسطين» (ميديكو، ١٩٨٠م، ٢٨).

وكانت لفظة «شعب إيل» هي الأشد شيوعًا كما كان ملكهم يتسمى دائمًا «ابن إيل»، أما كريتم فيدل على سكان المدن؛ حيث «كريت = مدينة»، و«كريتم = ساكن المدينة» وهو اسم معروف.

أما أن تكون فلسطين قد سميت أرض كنعان قبل مجيء العبرانيين فرأي خاطئ نقف بالضد منه، فقد كان اسم فلسطين هو «مريام، أو مريم Mrym»، وهو ما يرد في ملحمة اللآلئ (الملك الكبير) الكنعانية؛ حيث نقرأ:

«وفي مريام الشمالية تصاعد القمع والاستعباد ومن كان سبب سعادته طرده ليحصل على تاج مليكه» (ميديكو، ١٩٨٠م، ٢٠).
كذلك «وأصبح بعل هو الذي يسأل من قبل شعب مريام الشمالية، ومع هذا فإنه لا يدير وجهه إلى تعاستك، وشعب إيل أصبح يجب البلبلة إلى كل الذين يقتربون وقريبًا ستصبح مهاويهم منعمة» (ميديكو، ١٩٨٠م، ٥٩).

وكلمة «مريام» مكونة من مقطعين هما «مر» و«يام»، وهي كلمة تجمع بين اسمي إله الأموريين الأقدم (مر)، والإلهة الأم الأولى للأموريين والكنعانيين (يم)، وهذا يعني أن هذه الأرض كانت مكانًا لسكن الأموريين والكنعانيين القدماء.

وتقودنا كل هذه الاستنتاجات إلى القول بأن اسم كنعان هو اسم لاحق، لا يدل على حقيقة هذا الشعب، وأن الاسم الأرجح لهم هو «شام» وهو ما يدل على الأرض والشعب، أما التسميات الأخرى مثل: «الأديميون» و«الأدميون» فهي أسماء أُطلقت على بعض الأقوام الشامية، وكذلك أرض «مريام» التي هي أرض فلسطين.

هنا نرى أن الوقت قد حان لاستبدال اسم «الشاميون» بدلًا من «الكنعانيون»، فهي التسمية القوية الراسخة القديمة الدالة على شعب عريق لعب الدور الأكبر في تاريخ أرض بلاد الشام وفي عقائدها الروحية.

أما اسم «الكنعانيون» فنرى أنه استعمل بشكل ضيق ومحدود جدًّا وقام العبريون بإشاعته في الألف الأول ق.م. دون جدوى. وحاول الآثاريون والمؤرخون، ذوي الخلفية التوراتية، إشاعة هذا الاسم في العصر الحالي ونجحوا مع الأسف.

لكن علينا اليوم القيام بتعديل اسم «كنعان» إلى «شام»؛ لأن هذا الاسم هو الذي يتطابق مع المعطيات الآثارية والاستنتاجات العلمية. ولنا وقفة مفصلة أخرى مع هذا الموضوع في الفصل الثاني (انظر: المثولوجيا التاريخية لكنعان).

(٢-٢) المرحلة الشامية

٣٠٠٠–١٢٠٠ق.م.

بدأت هذه المرحلة مبكرة إبان بدء العصور التاريخية؛ حيث بدأت الهجرة الكنعانية من السواحل العراقية للخليج العربي وضفاف الفرات الجنوبي.

وربما اتخذ مسار هذه الهجرة طريقين؛ الأول: مع نهر الفرات صعودًا ثم الاتجاه إلى السواحل الشامية الشمالية وتأسيس مدن «رأس شمرا» و«أوغاريت» و«أرواد» و«جبيل» و«صيدا» و«صور»، أي سواحل سوريا ولبنان.

أما الهجرة الثانية فكانت برًّا باتجاه فلسطين مباشرة، وقد استقر المهاجرون في مدن ساحلية وبرية، ونرجح أن يكون استقرارهم في المدن البرية هو الأقدم ثم نزحوا من هذه المدن وأسسوا المدن الساحلية الفلسطينية.

ومن المدن البرية في فلسطين «قادش»، «بيت شان»، «شكيم»، «أريحا»، «بوس (أورشليم)»، «بشر سبع»، «مجدو»، «السامرة» ... إلخ.

أما المدن الساحلية في فلسطين فهي «عكا»، «دور»، «يافا»، «غزة» ... إلخ. في حين استقرت الهجرة الأمورية في المناطق السهلية شرق نهر العاصي والليطاني في سوريا ولبنان وفي شرق نهر الأردن. أما الهجرة الآرامية فقد اتخذت لها من جبال العراق وسوريا مستقرًّا لقرون طويلة، ثم حلَّت محل الأموريين في سوريا بشكل خاص وحول ضفاف دجلة والفرات في العراق.

نرى أن المدن السورية الشمالية قادرة على الإفصاح عن اسم الكنعانيين الذي وفدوا به إلى بلاد الشام، فنحن نجد هذه المدن مثل «أوغاريت»، «رأس شمرا» تحمل الاسم العتيق جدًّا للكنعانيين، وكذلك مدن مثل «السامرة» و«سميرا» التي تتضمن كلمة شام في تركيبها وأصبح يطلق على عموم الأقوام المهاجرة اسم «شاميون» أو «شوام».

لم يستطع الكنعانيون أن يشكلوا دولة واحدة، واستقر نظامهم السياسي على نظام دولة المدينة city state، حيث لكل مدينة من يحكمها، ولها استقلالها، ولها إلهُها الخاص، رغم أن عموم الكنعانيين كانوا يتكلمون لغة واحدة ولهم آلهة كونية وكبيرة واحدة، ويرجح أنهم نقلوا نظامهم هذا عن السومريين الذين تميزوا به وافتتحوا به حياتهم السياسية.

ونرى أن الكنعانيين القدماء واصلوا هجرتهم بعد سواحل الشام إلى جزر البحر المتوسط الشرقية؛ مثل: قبرص وكريت، ونقلوا إليها عناصر حضارية متطورة.

ولا شك أيضًا أن الأقوام المهاجرة لم تجد أرضًا بكرًا في بلاد الشام، فقد كانت الأقوام التي ظهرت في العصرَين الحجري الحديث (النيوليت) والمعدني (الكالكوليت) قد كونت حضارات محلية خاصة بها، خصوصًا في تل المريبط وتل الرمد ومنطقة المنحطة والبيضا ... وغيرها، وهكذا اندمجت الأقوام المهاجرة مع الأقوام المحلية، وبدأ عصر المدن في بلاد الشام. كان سكان المدن يتألفون من طبقتين: العليا هي طبقة النبلاء، وهي طبقة الإقطاع والفرسان المحاربين، أما الطبقة الثانية فهي طبقة الحرفيين، الصناع. وكان الفلاحون جزءًا من ملكية الأرض، وكانت هذه المدن صغيرة ومحصنة وملوكها يتمتعون بحكم مركزي.

ورغم أن حكم دويلات المدن كان يعطي للكنعانيين وغيرهم نوعًا من التنوع الروحي والثقافي والسياسي، إلا أن «تقسيم البلاد إلى دويلات كثيرة متناثرة كان له نتائج وخيمة على مستقبل البلاد السياسي، وهو أنه ساعد في بعض الأحيان على خلق توازن سياسي بين الأقطار المختلفة، إلا أنه كان عقبةً كَأْداءَ أمام نهوض دولة مركزية موحدة قادرة في الملمات على صد الغزو الخارجي ودرء أخطار الدول العظمى عنها، وعندما كانت تجتمع هذه الدويلات ضمن تحالف عسكري أمام عدو خارجي، فقد كان تحالفها مؤقتًا سرعان ما ينفرط بزوال الأسباب التي دعت إليه، والأسوأ من ذلك الأمر أن تلك الدويلات كانت في حالة مخاصمات مستمرة تتربص الواحدة بالأخرى» (أذزارد، ١٩٨٧م، ١٤٤).

يطالعنا تاريخ المرحلة الكنعانية في بلاد الشام بمراحل سياسية واجتماعية متجانسة في هذه المرحلة، فقد بدأ بتأسيس المدن الكنعانية على السواحل وفي فلسطين، سادت خلالها صلات تجارية وحضارية متينة بين هذه المدن ومصر.

ثم بدأت فترة جديدة عندما قامت مصر بإرسال أول حملة عسكرية إلى فلسطين، تلتها بعد قرنين حملة أخرى إلى سوريا ... وهكذا سقطت أغلب بلاد الشام تحت النفوذ المصري لما يقرب من ٩٠٠ سنة.

ومع ظهور الحيثيين ثم الحوريين بدأ صراع المصالح على بلاد الشام مع مصر هناك واستمر حوالي ٣٠٠ سنة. وأخيرًا جاءت الضربة المدمرة للمدن الكنعانية من الغزو الفلستي (من أقوام البحر)، ثم الغزو الآشوري الذي اضطَر الكنعانيين إلى الهجرة بحرًا إلى شمال أفريقيا. وسنوجز هذه الفترات كما يلي:

(أ) فترة تأسيس المدن الكنعانية (٣٠٠٠–٢٤٠٠ق.م.)

وإذا كان تأسيس المدن الكنعانية يبدأ بعد استقرار الأقوام المهاجرة في البر والسواحل في حدود ٣٠٠٠ق.م. فإنه لا ينتهي عند (٢٤٠٠ق.م.) بل يستمر طيلة التاريخ الكنعاني، لكننا وضعنا هذا التاريخ لأنه يؤرخ لمرحلة جديدة تبدأ معها أولى الحملات العسكرية المصرية على المدن الكنعانية في فلسطين. ويمكننا جغرافيًّا أن نقسم هذه المدن إلى ما يلي:

(١) مدن سوريا الساحلية: رأس شمرا، أوغاريت، أرواد (جزيرة)، جبيل (ببلوس).
(٢) مدن لبنان الساحلية: جبيل (ببلوس)، بيروت، صيدا، صور.
(٣) مدن فلسطين الساحلية: عكا، أسدود، عسقلان، جت، غزة.
(٤) مدن فلسطين البرية (داخل فلسطين وشرق الأردن: قادش، حاصور، بيت شان (بيسان)، شكيم (نابلس)، بيت إيل، جبعون أريحا، يبوس (أورشليم)، بيت شمس، بيت لحم، مجدو، حازر، حبرون، عجلون، بيرشيبا، (بئر سبع)، جرار ... إلخ).

ويربو عدد المدن الكنعانية الكبيرة والصغيرة في بلاد الشام حوالي ١٣٥ مدينة والقرى ١٢٠٠، وقد بلغت المدن الكبرى قمة الازدهار ونالت شهرة عالمية (انظر: الشريفي، ١٩٨٥م، ٥٩).

ولا يَسمح لنا هذا الاستعراض التاريخي السريع بالحديث عن نشأة كل منها ولذلك سنكتفي بذكرها، ثم نتحدث عن بعض تاريخها في الفترات والمراحل القادمة.

اتصلت مصر سلميًّا وحضاريًّا بالمدن الكنعانية، وكانت هناك علاقات تجارية ودينية، خصوصًا مع جبيل، فقد شاعت تجارة خشب الأرز معها، وشاعت أساطير أوزيريس المصرية ورحيل إيزيس إلى جبيل، وعبادة أدونيس الكنعاني في مدينة فاروس المصرية (الإسكندرية) ... وغيرها من الأمور التي شغلت مراحل الأسر المصرية العتيقة (١، ٢) والأسر المصرية القديمة (٣، ٤، ٥).

(ب) فترة النفوذ المصري (٢٤٠٠–١٥٠٠ق.م.)

مع مجيء الأسرة المصرية السادسة قام القائد المصري «وني» في عصر الملك الأول لهذه الأسرة (تتي) بتجهيز جيش مصري ضخم مكون من عشرات الآلاف من الجنود وإرساله إلى بلاد فلسطين بعد أن تهددت المصالح التجارية لمصر هناك، ثم ظهرت ثورة أخرى في بلاد فلسطين، أرسل الملك القائد «وني» لإخمادها «فجهز جيشين أحدهما سار بطريق

البر، وسار هو مع الجيش الآخر بطريق البحر فنزل عند مكان من المحتمل جدًّا أن يكون قريبًا من جبال الكرمل، وسار بعد ذلك في داخل البلاد وانتصر وقمع تلك الثورة» (فخري، ١٩٩٥م، ١٥٤).

وفي هذه الفترة بالذات نرجِّح أن قوات الملك السومري «لوكال زاليزي» ثم سرجون الأكدي قد وصلت إلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط، ثم إلى قبرص، وهذا يعني اقتحامها لبعض المدن الكنعانية.

ومع مجيء عصر الدولة الوسطى في مصر كانت العلاقات المصرية الكنعانية تتجه نحو الانفراج وتأخذ المدن الكنعانية بسبل الاستقلال شبه الكامل عن مصر، وتدعم هذا الاستقلال عن مصر عندما خرج الهكسوس من بلاد الشام غزاة لمصر، ودخلوها وحكموا فيها لمدة تقارب القرنين من الزمان.

وهكذا تعزز استقلال المدن الشامية كلها (الكنعانية والأمورية) وانتعشت الممالك الكنعانية في هذه المرحة بسبب ضعف كل من مصر والعراق في الوقت نفسه.

وبرزت في نهاية هذه الفترة ممالك مثل أوغاريت (وملكها نقمد)، ورأس شمرا وجبيل ... وغيرها، وكان الملك الكنعاني «أدريمي» يتردد بين ألالاخ ويمخد وحلب. وظهرت صورة ملوك أوغاريت منقوشة على لوحات الحجر والعاج (شكل ١-١)، وكذلك ظهرت آثارهم النفيسة (شكل ١-٢)، ومع ظهور عصر الدولة الحديثة في مصر وظهور الدولة الحيثية ثم الميتانية انتهى استقلال هذه المدن وصارت مسرحًا لصراع هذه الأقطاب الثلاثة.

(ج) فترة الصراع المصري الحوري الحيثي (١٥٠٠–١٢٠٠ق.م.)

إذا كان الملك الحيثي خاتوشيلي الأول (١٥٧٠–١٥٣٠ق.م.) قد مهد للنفوذ الحيثي في شمال بلاد الشام عندما غزا إمارة حلب فإن الحوريين هم الذين تنفَّذوا فعليًّا خلال هذه الفترة في شمال سوريا «وانفصل النصف الشمالي من بلاد الشام عن السلطة المصرية في عهد الملكة «حتشبسوت»، وتعاظم نفوذ المملكة الميتانية في شمال شرق بلاد الشام، وتزعمت حلفًا قويًّا ضد الملك تحوتمس الثالث (١٥٠٢–١٤٥٠ق.م.) الذي حكم مدة اثنين وعشرين عامًا مع أخته حتشبسوت. وعندما تسلم مقاليد الأمور في وادي النيل، كان أول عمل قام به هو استعادة نفوذ وادي النيل في النصف الشمالي من بلاد الشام وإذلال المملكة الميتانية» (سليمان، ١٩٨٥م، ٣٦٤).

بلغت حملات تحوتمس الثالث على فلسطين وسوريا سبع عشرة حملة، وقد استطاع احتلال مدينة وحصن «قادش» خلال الحملة السادسة، وكانت هذه المدينة قد تزعمت

شكل ١-١: لوحة عاجية من أوغاريت من ٣٠٠٠ قبل الميلاد. وجدت خلال التنقيب في أوغاريت القديمة. تصور اللوحة ملك أوغاريت وهو يعاقب عدوًّا. عن المتحف الوطني بدمشق، سوريا.

الحلف. ثم هزم حلفًا آخر تشكل ضده في فلسطين قادته مدينة مجدو (تل المتسلم) التي احتلها أيضًا.

ولم يكد تحوتمس الثالث أن ينتهي من بسط نفوذه على شمال وجنوب بلاد الشام حتى قامت الدولة الحورية-الميتانية بتحريض مدن الشمال السوري والقيام بثورة ضد النفوذ المصري؛ ولذلك جرد تحوتمس حملة توغل فيها في الأراضي الحورية بعد أن دمر جيشها.

شكل ١-٢: خنجر مصنوع من الذهب تحمل قبضته الهلالية الشكل نقوشًا نافرة لمناظر صيدٍ، عُثر عليه في «معبد المسلات» في مدينة جبيل (ببلوس).

ثم عاد الحوريون للانفصال بعد وفاته، فقام خلفاؤه (أمنحوتب الثاني، ثم تحوتمس الرابع) بحملات مضادة لهم، وانتهى الصراع الحوري المصري على بلاد الشام عندما تقاربت الدولتان من خلال زواج سياسي، حيث تزوج أمنحوتب الثالث من ابنة الملك الحوري «شوتارنا»، ثم أنجبا الملك أمنحوتب الرابع، «إخناتون» الذي لم يعتنِ بأمور مصر الخارجية. وكان الحوريون قد اتفقوا مع مصر على النفوذ في شمال بلاد الشام مقابل ذلك الزواج. وهكذا تركز النفوذ المصري في جنوبها. وانقسم النفوذ المصري إلى ثلاث مناطق إدارية (انظر: سليمان، ١٩٨٥م، ٣٦٨).

(١) **عمورو:** تقع إلى الشمال، وكان مقر المراقب الفرعوني في «سومورو = سيميرا».
(٢) **أوبي:** تقع جنوبها، وكان مقر المراقب الفرعوني في «قومودية = قامد اللوز»، وتبعتها دمشق.
(٣) **كنعان:** وهي أرض فلسطين، وكانت مدينة «غزة» هي مقر المراقب الفرعوني.

أما النفوذ الميتاني فكان عن طريق «رابطة القسم» بين الأمراء الكنعانيين والأموريين والملوك الميتانيين، ثم استبدلت بـ «المعاهدات المكتوبة».

وما أن ضعف النفوذ المصري في بلاد الشام بدء من عصر إخناتون وبرزت القوة الحيثية ثانية، ووسعت حدود مناطق نفوذها في شمال بلاد الشام في عهد ملكها المعروف «شوبيلو ليوما»، وتنصل الأمراء الموالون لمصر عن ولائهم وناصروا الملك الحيثي دون أن تقوم مصر بعمل شيء، واغتنم هذه الفرصة ملكٌ أموريٌّ طامح هو «عبدي عشيرتا» ثم ابنه «عزيرو»، وحاول عن طريق الحيلة والمراوغة توحيد بلاد الشام في مملكة واحدة، فاستولوا على المدن والإمارات الأمورية والكنعانية الواحدة بعد الأخرى، مثل: «توينب» (قرب حماة)، و«سومورو»، و«جبيل»، و«بيروت» وانفصل النصف الشمالي من بلاد الشام على يد «عزيرو» وتحت حماية حيثية، ثم قام الحيثيون بالاستيلاء على هذا النصف الشمالي وفرض الجزية على أمراء المدن الشامية.

ثار أموتد الشمال الشامي على الحيثيين، وخصوصًا أمراء أوغاريت حينما كانت تعيش عصرها الذهبي.

وعندما اعتلى الفرعون «سيتوس» الأول العرش (١٣١٥–١٣٠١ق.م.) أدرك خطورة النفوذ الحيثي فقاد جيشه وأخضع أولًا جنوب فلسطين تمامًا له ثم احتل «مجدو» و«حوران» و«لبنان» ... إلخ.

وتكررت مثل هذه الحملات حتى أبرمت معاهدة صلح بين الملك الحيثي «مواتالي» والمصري «سيتوس الأول» حيث أصبح شمال بلاد الشام تابعًا للنفوذ الحيثي وجنوبه للنفوذ المصري.

واستقرت بلاد الشام لما يقرب من قرن كامل تحت ظل هذا الاتفاق، وكانت الحروب قد أنهكت الحيثيين والمصريين وبلاد الشام نفسها.

لكن العاصفة المدمرة هبت مع مطلع القرن الثاني عشر عندما بدأت غزوات الفلستو والآشوريين والعبريين لتدمر مدن بلاد الشام خلال قرنين من الزمان تدميرًا شاملًا.

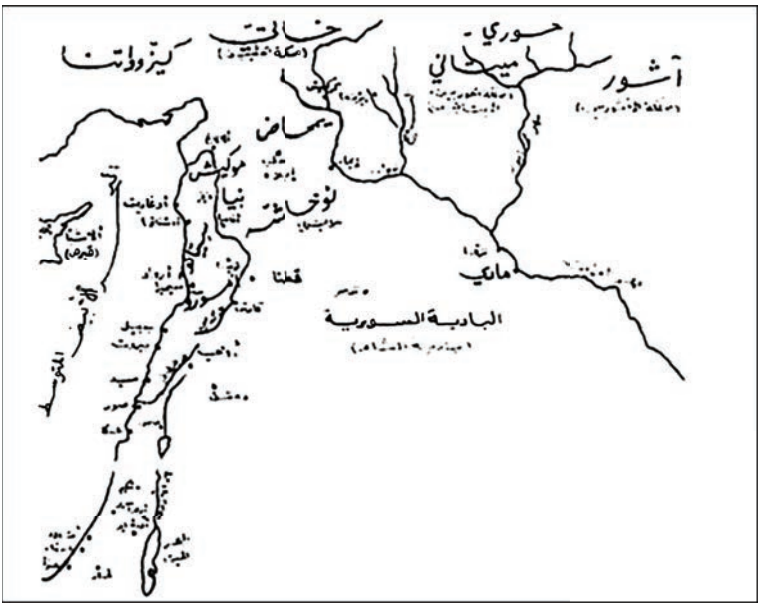

خارطة (١) بلاد الشام في الألف الثاني قبل الميلاد.

(د) فترة تدمير المدن (الغزو الفلستي والآشوري والعبري) (١٢٠٠–١٠٠٠ق.م.)

غرقت بلاد الشام كلها في وصول كارثة لم يشهد لها تاريخها مثيلًا ابتدأت بالغزو الكاسح والمدمر للقبائل الإيجية، وخصوصًا الفلستية منها، ثم سحقت القوات الآشورية أغلب مدنها، وأخيرًا تسربت القبائل العبرية في غزو مخاتل إلى قلب فلسطين وأقامت دولة غريبة فيها.

الغزو الفلستي

سقطت الدولة الحيثية عام ١١٩٠ق.م. على يد قبائل غريبة عن المنطقة هاجمت من الغرب والشمال الغربي، ويمكننا القول: إن هذا الغزو بأكمله كان جزءًا من حركة الغزو والهجرة التي كانت تقوم بها القبائل الإغريقية من وسط وشمال أوروبا نزولًا إلى بلاد اليونان واستمرارًا إلى آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط والسواحل الشرقية له.

خارطة (٢): بلاد الشام (كنعان) (٣٠٠٠–١٣٠٠ق.م.).

وتألف الغزو بمجمله من ثلاثة محاور، هي:

(١) **من اليونان باتجاه آسيا الصغرى:** وتكوَّن من «الفريجيين والمسيين والكاشكيين»، وقد دمر هذا المحور قلب الإمبراطورية الحيثية.

(٢) **من كريت وقبرص إلى مصر:** وتكوَّن من القبائل الـ «شاردانية» والـ «لوكية» والـ «ميسية» وكان الغزو بحريًّا وتحالف مع القبائل الليبية وغزا السواحل المصرية، لكن رمسيس الثالث أوقفه ورد الغزاة في معركة فاصلة برًّا وبحرًا في دلتا النيل، فاتجه ما تبقى من الغزاة نحو فلسطين.

(٣) **من كريت وقبرص إلى السواحل الشامية:** وتكوَّن من قبائل «فلستو، الليرية، الزاكارية» ثم انضمت لها القبائل المهزومة أمام رمسيس الثالث، ودمرت هذه القبائل معظم المدن الكنعانية الساحلية، واستطاعت قبائل «الفلستو» الاستقرار والتمركز في خمس مدن ساحلية كنعانية النشأة، وهي: «عكا، أسدود، عسقلان، جت، غزة»، وأصبحت أسدود عاصمة لدولة فلستية (فلسطينية) وانصهرت فيها القبائل الإيجية الغازية مع القبائل الكنعانية التي كانت تسكن هذه المدن.

وستتحول هذه الدولة إلى دولة مضادة للعبريين الذين غزوا بقية بلاد كنعان في فلسطين.

وهكذا انقسم الشريط الكنعاني إلى قسمين شغل ثلثَيه العلويَّيْن الكنعانيون (الذين سيترسخ اسمهم تحت عنوان الفينيقيين) والثلثَ الأسفلَ الفلسطينيون.

وكان الغزو الإيجي قد خرَّب أيضًا أوغاريت، حوالي سنة ١١٨٠ق.م.، والتي لم تقم لها بعد قائمة مطلقًا.

الغزو الآشوري

ما أن سقطت الإمبراطورية الحيثية حتى شعر الآشوريون بأن الوقت قد حان ليحتلوا مكانها المؤثر وتبوُّءِ زعامة الشرق الأدنى بأكمله، وإذا كانت في البداية قد اضطرت إلى التراجع داخل حدودها الإقليمية في شمال العراق، فإنها سرعان ما عاودت الهجوم.

قام العاهل الآشوري «تجلات بلاسر الأول» (١٠٩٠–١١١٦ق.م.) باجتياح جنوب سوريا للحصول على أخشاب الأرز، واضطرت جبيل لتقديم الجزية له. واحتل أرواد لفترة من الزمن.

الغزو العبري

لم تمنحنا الآثار شيئًا عن الوجود العبري في فلسطين خلال الألف الأول قبل الميلاد، وما زال تاريخهم مشوبًا بالغموض رغم أن التوراة تتحدث عن تاريخ القبائل العبرية قبل وبعد استيطانها في فلسطين.

قطعة عاجٍ منقوشة من مجدُّو حوالي (١٣٥٠–١١٥٠ق.م.) توضح مشهدين لملك عائد من حملة وهو يجلس على عرشه ويتسلم التقدمات والهدايا (عن: Gary 1964).

يمكننا تلخيص هذه المرويَّات التوراتية، التي لا صحة لها على المستوى الآثاري: إن القبائل العبرية المجهولة المنشأ قد زحفت بشكل بطيء ومتدرج نحو بلاد الشام. وفي حدود ١١٠٠ق.م. أجهز العبريون على ما تبقى من المدن الكنعانية في فلسطين، واستقروا هم فيها وفرضوا عليها عاداتهم وتقاليدهم، واصطدموا في عام ١٠٥٠ق.م. بالفلستينيين الذين كانوا متطورين بأسلحتهم وعدتهم فانهزموا أمامهم، وكان ذلك مدعاة لإعادة تنظيم العبريين لأنفسهم فاختاروا في حدود ١٠٠٠ق.م. شاؤول ملكًا لهم على أول مملكة عبرية، ثم خلفه رواد، ثم جاء سليمان، وبعدها انقسمت الدولة العبرية إلى قسمين.

وما يهمنا هنا هو أن الغزو العبري كان مشابهًا للغزو الفلستي في آثاره المدمرة للمدن الكنعانية وإزالة هويتها الكنعانية الأصيلة، أما الغزو الآشوري فكان ذا طابع اقتصادي وسياسي أكثر من كونه عسكريًّا واستيطانيًّا.

وهكذا ساهمت هذه الغزوات الفلستية والآشورية والعبرية بتغيير الطابع الديموغرافي الكنعاني لبلاد الشام الجنوبية لفترة، ثم عاد الكنعانيون وملَئوا البلاد كلها.

أما الكنعانيون، الذين كانوا قد تحرروا نسبيًّا من النفوذ المصري، فقد واجهوا الضغط الآشوري بشكل خاص واستثمروا خُلُو البحر المتوسط من القوة المصرية المؤثرة، ولذلك، ركبوا البحر وتدفقوا منذ ١٢٠٠ق.م. إلى جزر البحر المتوسط وسواحل البلقان وإيطاليا، وبشكل خاص سواحل شمال أفريقيا ليبدأ عصر جديد لها هناك وليستمر تاريخها بالتدفق في بلاد فينيقيا الشامية بمرحلة جديدة.

(٢-٣) المرحلة الفينيقية (١٢٠٠-١٤٦ق.م.)

(أ) الفينيقيون الشرقيون (١٢٠٠-٢٣٢ق.م.)

بعد أن دُمرت معظم المدن الكنعانية البرية والساحلية وتغيرت هويتها على يد الفلستينيين والعبريين معًا غرقت هذه المدن، وما تبقى من المدن الأخرى، في تاريخ منحدر طويل من الغزوات والاحتلالات الجديدة على يد المصريين والآشوريين والبابليين والفرس والإغريق، ثم تلا ذلك الرومان والبيزنطيون، ففقدت في نهاية الأمر هويتها الكنعانية.

(١) **الاحتلال المصري:** قام الفرعون بسوينس (من الأسرة الحادية والعشرين) في حدود (١٠٠٠ق.م.) بالهجوم من جديد على جنوبي فلسطين واستولى على مدينة «جزر» الكنعانية وأحرقها، ثم أعطاها هدية أو مهرًا لابنته عند زواجها (انظر: فخري، ١٩٩٥م، ٤١٩).

وحصل الغزو المصري الأكبر خلال هذه الفترة على يد الفرعون شيشناق الأول (٩٥٠-٩٢٩ق.م.) وأبدت ذلك نقوش هذا الفرعون في الكرنك ونصوص التوراة (انظر: سفر الملوك الأول، ١٤: ١٠).

وكان السبب الرئيسي لهذه الحملة هو قيام الفلسطينيين والكنعانيين ومعهما مملكة إسرائيل (ملكها يربهام) بطلب النجدة ربما ضد ملك دولة يهودا (رحبعام) فجهز شيشناق حملة عظيمة إلى فلسطين بدأت من عاصمته بوبيتيس في الشرقية باتجاه الفرما ثم سينا ثم غزة واستولى على المدن الفلسطينية وقام باكتساح ١٥١ مدينة في آسيا وفلسطين، وغنم شيشناق من دولة يهودا (رحبعام) في أورشليم كنوز الملك سليمان، وتتسابق حكام وولاة فينيقيا على كسب شيشناق، وعادت فلسطين الكنعانية والعبرية والفلستينية مصدرًا مهمًّا من مصادر المواد الأولية الخام لمصر.

(٢) **الاحتلال الآشوري:** بدأت الحملات الآشورية الكبيرة لتوسيع رقعة الدولة الآشورية مع عهد الملك آشور دان الثاني (٩٩٣-٩١٠ق.م.) ثم تبعه خلفاؤه في تلك الحملات، وخاصة في عهد الملك آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ق.م.)

واستمرت الحملات في عهد ابن شلما نصر الثالث (٨٦٠-٨٢٥ق.م.)، الذي أخذ الجزية من صور وبيلوس مرات عدة، ولما خرجت أرواد عن الطاعة لآشور هزمها في معركة حاسمة.

وقام أدد نيراري الثالث بحملة على سوريا عام ٨٠٥ق.م. ثم نعمت سوريا وفينيقيا بهدوء نسبي إلى أن اعتلى عرش آشور «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ق.م.) الذي قام بحملة على سوريا وفرض الجزية على صور وصيدا.

وكان الاحتلال الآشوري لفينيقيا يمتاز ببسط السيادة والنفوذ وفرض الجزية أكثر من كونه احتلالًا دائمًا.

وفي عهد الملك الآشوري شلما نصر الخامس وقفت «صور» بوجه الغزو الآشوري الذي كان يستهدف احتلال قبرص بأسطول بحري كبير، حيث دمرت الأسطول الآشوري وأسرت ما يقرب من خمسمائة جندي آشوري، فحاصرها شلما نصر الخامس.

ومع مجيء الأسرة السرجونية إلى آشور بدأ عصر جديد من الغزو العنيف للمدن الكنعانية، وخصوصًا في عهد سنحاريب الذي انتصر على حلف المدن السورية الآرامية والفينيقية في حدود ٧٠١ق.م. حيث فر ملك صور وصيدا إلى قبرص ومات هناك.

واستمر أسرحدون على النهج نفسه وقسم فينيقيا إلى ثلاث ولايات آشورية هي «سميرا»، «صيدا»، «صور»، وكانت صور قد استجابت لطلب الفرعون المصري «طبرقا» بالانفصال عن آشور، فكان لها أسرحدون بالمرصاد.

(٣) **الاحتلال البابلي:** سقطت الإمبراطورية الآشورية عام ٦١٢ق.م. وتنفست المدن الكنعانية الصعداء، لكن الفرعون المصري «نخاو» توغل في فلسطين وأراد فتح بلاد الشام كلها؛ لكنه اصطدم بقوة الملك البابلي الكلداني نبوخذ نصر الذي انتصر عليه في معركة قرقيش عام ٦٠٥ق.م.

وكان هذا الانتصار مدخلًا للاحتلال البابلي لبلاد الشام، حيث حاصر نبوخذ نصر صور وصيدا وغيرها، وقام نبوخذ نصر بتعيين ملوك فينيقيين على هذه المدن، لكنه استبدلهم بعد ذلك بحكام بابليين، ولا تُسجل علامات رفاه للمدن الفينيقية في العصر البابلي الحديث؛ فقد كانت بلاد الشام، كلها تابعة للنفوذ البابلي.

(٤) **الاحتلال الفارسي:** بعد أن أسقط كورش الدولة الكلدانية عام ٥٣٩ق.م. ظل حكام المدن الشامية البابليون يحكمون هذه المدن باسم الدولة الفارسية.

وعندما تولى قمبيز الحكم استبدل بهؤلاء الحكام حكامًا فرسًا، وكانت بلاد الشام معبرًا لطموحات الدولة الفارسية في السيطرة على مصر والسودان وشمال أفريقيا وبلاد اليونان، ولذلك قامت المدن الشامية والفينيقية بشكل خاص بمعاونة الملوك الفرس في تحركاتهم هذه مقابل حرية سياسية للمدن الفينيقية، حيث حصلت على نوع من الاستقلال الذاتي،

واتحدت هذه المدن في القرن الرابع قبل الميلاد، واتخذت المدينة التي أُسست آنذاك وسماها الإغريق تريبوليس (طرابلس اليوم) مركزًا للاتحاد؛ لأنها تكونت من ثلاث مستوطنات أقامها أهل أرواد وصيدا وصور، وكان الاجتماع السنوي لممثلي المدن الثلاث يعقد في هذه المدينة (هبو، ١٩٩٩م، ٢٧١).

وقبل نهاية الحكم الفارسي ثارت مدينة صيدا فدمرها الفرس تدميرًا شاملًا. ثم جاء الإسكندر المقدوني الذي هزم الفرس عام ٣٣٣ق.م. في معركة إيسوس. وقاومت مدينة صور غزو الإسكندر؛ لكنه فتحها بعد حصار طويل، في حين سقطت كل المدن الفينيقية في قبضته، وبدأ عصرٌ جديد.

ومع مجيء الاحتلال المقدوني والثقافة الهيلنستية (البطلمية والسلوقية) بدأت المدن الفينيقية تفقد طابعها الخاص، واضمحلت اللغة الفينيقية أمام الإغريقية والآرامية، وتكرس هذا مع مجيء الرومان عام ٦٤ق.م.

لا شك أن الكنعانيين والفينيقيين قدموا للبشرية أعظم المنجزات الحضارية طيلة تاريخهم الطويل، ولم يمنع عدم تكوينهم لدولة أو إمبراطورية واحدة من تعطيل عطائهم الحضاري.

ولعل أقدم منجزاتهم الحضارية تأسيسهم لتلك المدن العظيمة التي كان لها الأثر الأكبر في العالم القديم. ثم إنهم عُرفوا بالملاحة؛ حيث درسوا طرقها البحرية وربطوا بلادهم بخطوط بحرية مع بلاد اليونان غربي البحر المتوسط وشمال أوروبا والخليج العربي والهند ... وغيرها. وهم أول من اكتشف المحيط الأطلسي، وأول من دار حول أفريقيا واكتشف سواحلها. وهم الذين جعلوا حوض البحر المتوسط كله مسرحًا لحضارتهم وتجارتهم منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، أي قبل الرومان بأكثر من ألف وخمسمائة سنة. ولعل أعظم اختراع قدمه الفينيقيون إلى البشرية هو اختراعهم للأبجدية، حيث عثر على أقدم كتابة أبجدية بالحروف الفينيقية على التابوت الحجري للملك جبيل «أحيرام» الذي حكم حوالي ١٠٠٠ق.م. (شكل ١-٣) ويبلغ طول التابوت مترين ونصفًا ويقوم على تماثيل لأسودٍ جالسة.

ويعود أصل الخطوط الأبجدية إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد عندما طور مجموعة من العمال الساميين (الكنعانيين) الكتابة الهيروغليفية المصرية باتجاه أبجدي وتسمى «أبجدية السينائية المبكرة»؛ لأنها نشأت في سيناء بين القرنين العشرين والثامن عشر قبل

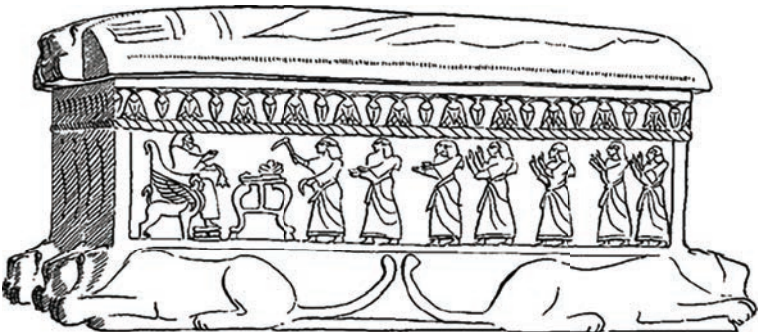

شكل ١-٣: تابوت الملك «أحيرام» ملك جبيل (ببلوس) مصنوع من الحجر ويرجع تاريخه إلى القرن العاشر ق.م.، منقوش على حافة غطاء التابوت أقدم وأطول كتابة فينيقية معروفة (المتحف الأهلي، بيروت).

الميلاد، وكلمة المبكرة تميزها عن أبجدية سينائية أخرى انتشرت في سيناء في عصر متأخر، وبالتحديد في القرن الثالث والرابع الميلاديين، وترجع في أصلها إلى الأبجدية النبطية، نشأت الأبجدية السينائية المبكرة في منطقة سيرابيط الخادم بسيناء على يد شعب ساميٍّ بسيط كان أفراده يعملون تحت إشراف المصريين في استخراج النحاس والفيروز (عبد الحليم، ١٩٩٩م، ١٤)

والطريقة التي تحولت فيها بعض العلامات الهيروغليفية إلى خطوط أبجدية كانت عن طريق استعمال طريقة أطلق عيها العلماء: «الأكروفونية acrophonic»، وهو مصطلح مكوَّن من كلمتين يونانيتين هما «أكرو: بمعنى رأس أو مقدمة» و«فون بمعنى صوت»؛ حيث يتخذ الصوت الأول في نطق الاسم الدال على شكل العلامة ليكون مدلولًا صوتيًّا مفردًا للعلامة مثل كلمة «بر» الفرعونية التي معناها بيت تكون دالة على حرف «ب» في الأبجدية السينائية، ويلاحظ أننا ما زلنا نستخدم هذه الطريقة في تعليم الأطفال نطق الحروف الأبجدية، فنرسم للطفل شكل منزل ونكتب بجواره «بيت»، ثم نكتب حرف الباء (انظر المرجع السابق: ١٤-١٥)، وهكذا رسموا رأس الثور الذي يعني بالكنعانية ألف؛ ولكنهم لفظوا هذه العلامة «أ». ورسموا شكل البيت البسيط، واسمه بالكنعانية بيت؛ ولكنهم لفظوه «ب». وهكذا فعلوا ببقية الأشكال التي أصبحت تمثل حروفَ (أصوات) لغتهم الكنعانية، ثم انتشر هذا النوع من الكتابة بين كنعانيي فلسطين، ووصل إلى أشقائهم على

الساحل اللبناني (الفينيقي)، ومنهم أهل جبيل الذين طوروا الأشكال وتوصلوا إلى ٢٢ شكلًا تمثل اللغة الكنعانية وهي: أ، ب، ج، د، هـ، و، ز، ح، ط، ي، ك، ل، م، ن، س، ع، ف، ص، ق، ر، ش، ت (حسب الترتيب المعروف: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت)، ودعيت هذه الكتابة أبجدية «أهذ ألفبائية» نسبة إلى ترتيب حروفها الأولى (انظر: هبو، ١٩٩٩م، ٢٦١). وانتشرت وتطورت هذه الأبجدية عند الأقوام القريبة حتى نشأ نظام أبجدي جديد في الشرق الأدنى واليونان والرومان (انظر: جدول ١)، وهكذا حلت الأبجدية تدريجيًّا محل الكتابة المقطعية والهيروغليفية في كل أنحاء العالم.

جدول (١): جدول الخطوط الأبجدية منذ الأصل الأوغاريتي المسماري لها حتى خطوطها المتنوعة في الشرق والغرب (هبو، ١٩٩٩م، ٢٦٣).

أما في أوغاريت، فقد كان الأمر مختلفًا؛ إذ يبدو أن الخلفية الرافدينية، التي كانت تسيطر على ثقافة أوغاريت، جعلت الكتابة العراقية القديمة (المسمارية) وليس المصرية (الهيروغليفية) هي التي تكون نواة الأبجدية الأوغاريتية. فقد عثر المنقبون في أوغاريت عام ١٩٢٩م على رقم مسمارية تختلف عن الكتابة المسمارية العراقية (السومرية والأكدية)، ثم استطاعوا فك رموزها فوجدوا أنها مكونة من ٣٠ حرفًا مسماري الشكل، بينها ثلاثة تمثل الهمزة بحركاتها المختلفة (مفتوحة ومضمومة ومكسورة) وهي مرتبة كما يلي: (أ، ب، ج، خ، د، هـ، و، ز، ح، ط، ي، ك، ش، ل، م، ذ، ن، ط، س، ع، ف، ص، ق، ر، ث، غ، ت، أُ (مضمومة)، إِ (مكسورة)، أَ (مفتوحة)).

لقد تأكد الباحثون أن هذه الكتابة الأبجدية المسمارية أقدم من الكتابة الأبجدية الخطية على تابوت أحيرام بأكثر من خمسة قرون، أي إنها تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وقد كتبت بها نصوص أدبية واقتصادية وسياسية متطورة مما يوحي بأن جذورها تعود لأبعد من هذا التاريخ. ونرجِّح أن اختراع الأبجدية الأوغاريتية سبق اختراع الأبجدية السينائية المبكرة، التي كانت محدودة جدًّا في الشام، كتبت بها اللغة الأوغاريتية الشديدة القرب من اللغة العربية ومن اللغات السامية الأخرى كالأكدية والعبرية.

لقد تقلص عدد الحروف المسمارية الأوغاريتية إلى ٢٢ حرفًا في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد وبداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وغدت قريبة من اللغة الفينيقية واللغة العبرية.

إن إنجاز الكتابة الأبجدية يعد من أعظم الإنجازات البشرية بعد اختراع الكتابة؛ لأنه يسَّر تطابق اللغة مع الكتابة وجعل أمم الأرض تبتكر لنفسها أبجدياتها وتكتب بها تراثها.

(ب) الفينيقيون الغربيون (البونيون والقرطاجيون)

١٢٠٠–١٤٦ق.م.

ضجر الفينيقيون الشرقيون المقيمون في مدن السواحل الشامية من بناء الحصون العالية لحماية مدنهم من الغزوات المتلاحقة ومن دفع الجزية المستمر ومن انتهاكات الأقوام الغازية واحتلالها لأراضهم وموانئهم ... وقد شهدنا تلك العاصفة المدوية التي حصلت لمدنهم مدة قرنين من الزمان من قبل أقوام البحر والفلستينيين والعبريين والآشوريين، وهكذا بدأت أفواج منهم بالرحيل عن الشواطئ والمدن الكنعانية والفينيقية والاتجاه نحو البحر الأبيض المتوسط بجزره وسواحله الشمالية والجنوبية.

The Ugaritic Alphabet Transliterated Into West-Syriac 3

Ugaritic	Value	West-Syriac	Ugaritic	Value	West-Syriac
	ʾa	ܐ		d	ܕ
	b	ܒ		n	ܢ
	g	ܓ		ẓ	ܨ
	ḫ	ܚ ܟ		s	ܣ
	d	ܕ		ʿ	ܥ
	h	ܗ		p	ܦ
	w	ܘ		ṣ	ܨ
	z	ܙ		q	ܩ
	ḥ	ܚ		r	ܪ
	ṭ	ܛ		ṯ	ܬ
	y	ܝ		ġ	ܥ
	k	ܟ ܟ		t	ܬ
	š	ܫ		ʾi	ܐ
	l	ܠ		ʾu	ܐ
	m	ܡ ܡ		ś	ܫ

جدول الأصل الأوغاريتي المسماري الأبجدي، والخط الأبجدي السوري الغربي.

ولا شك أن دافع التجارة والاقتصاد كان في المرتبة الثانية عندهم، هذه المرة، فهم أعظم رواد البحار وأصحاب أكبر الأساطيل والسفن البحرية التجارية، وكانوا يتاجرون بالأخشاب والبرونز والعاج والعظام والزجاج والخمور والأصباغ والقماش وقد أظهر الفينيقيون مقدرة فائقة في صناعة الأقمشة المصبوغة باللون الأرجواني، والتي كانت صبغتها تستخرج من بعض الأصداف البحرية التي عثروا عليها عند سواحلهم. وكان توسعهم التجاري في البحر المتوسط يستوجب ضرورة إنشاء محطات ومراكز مستقرة في البحر أو على سواحله الأخرى.

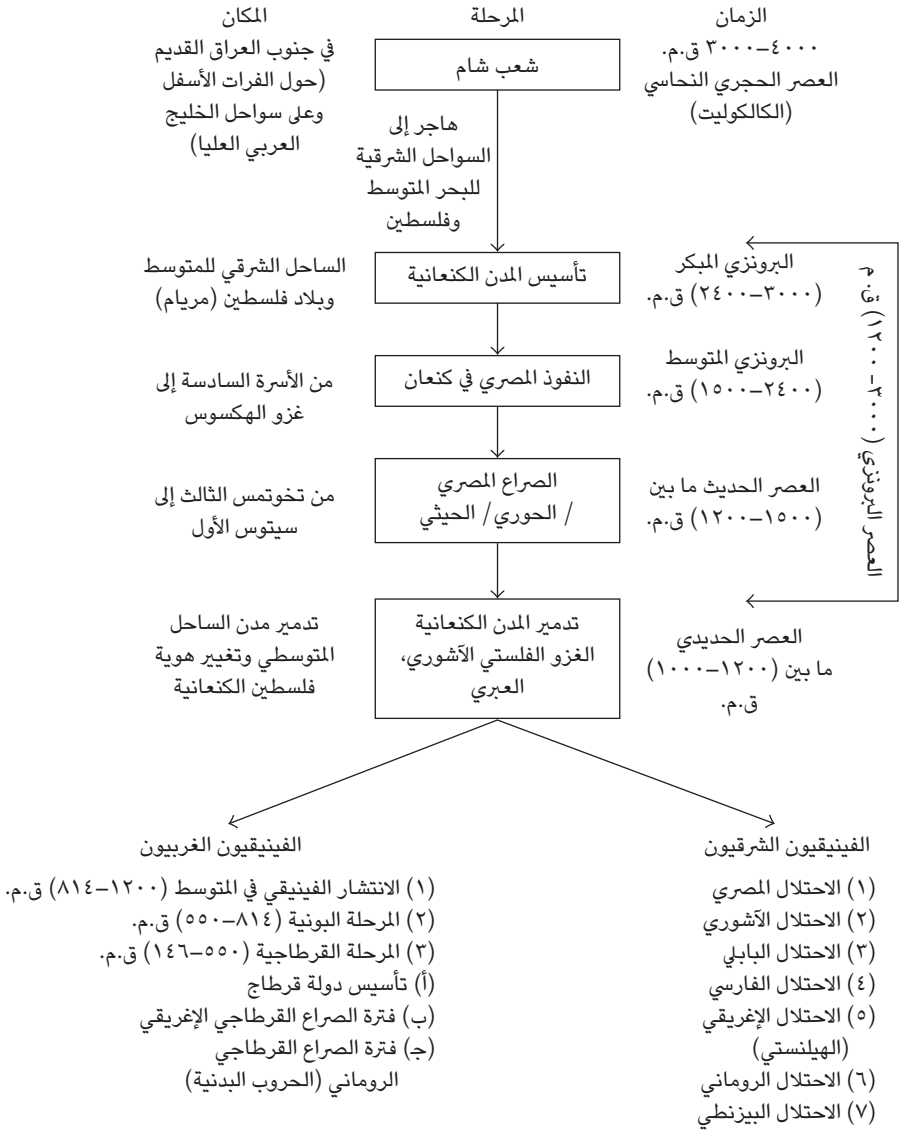

مخطط (١): مراحل تطور تاريخ الكنعانيين.

كذلك لم تظهر المدن الفينيقية القدرة على تكوين دولة واحدة متحدة تواجه بها الأقوام الخارجية، فقد اقتصرت على إنشاء بعض الاتحادات السياسية بين المدن الفينيقية أثناء حدوث بعض الأزمات والتي كانت تنهار أمام القوى السياسية الكبرى المحيطة بها.

وهكذا اجتمعت العوامل السياسية والبشرية والاقتصادية والبيئية لتدفع بعض الفينيقيين إلى الرحيل بحرًا نحو السواحل الأوروبية والأفريقية للبحر المتوسط بالإضافة إلى الجزر المنتشرة فيه.

(١) المرحلة الفينيقية (الانتشار والاستيطان) (١٢٠٠–٨١٤ق.م.)

ربما تكون هذه المرحلة قد بدأت قبل (١٢٠٠ق.م.) عندما ارتاد الفينيقيون البحر المتوسط واستقروا في جزره بشكل خاص، ولكنها ازدادت بعد هذا التاريخ.

ويمكننا من الناحية التصنيفية تقسيم المناطق التي انتشر واستعمر واستوطن فيها الفينيقيون إلى أربعة أقسام:

(أ) جزر البحر الأبيض المتوسط

لا شك أن الكنعانيين هم الذين ألهموا سكان جزيرة كريت سبل الحضارة بالإضافة إلى المصريين؛ ولكن العناصر الكنعانية في الحضارة الكريتية كانت واضحة جدًّا وربما تكون قد بدأت في الألف الثالث قبل الميلاد، ولا نرجح أن استيطانًا كنعانيًّا قد حصل في تلك الأزمان، بل أن اتصالًا ثقافيًّا وروحيًّا وفنيًّا كان يجري من كنعان إلى كريت بوضوح شديد. وقد ظل هذا حتى بعد أن دمر إغريق موكناي حضارة كريت.

الجزيرة الثانية التي ارتحل إليها الفينيقيون هي جزيرة قبرص، فقد كانت قريبة من سواحل كنعانية وفينيقية، تلك التي عثر فيها على أكروبول فينيقي يعود إلى القرن الحادي عشر. ويبدو أن صُورَ أنشأت لها في قبرص مقاطعة صغيرة خاضعة لها، وقد ظهرت في كيتيون أسرة فينيقية حوالي (٤٥٠ق.م.) ضمها بعد ذلك بطليموس الأول إلى دولته البطلمية.

ومن المستوطنات الأخرى في هذه الجزيرة جولجوي وأيدليون وتلماوس وماريون ولابيتوس التي خضعت للاحتلال الآشوري لفترة طويلة، أما جزيرة صقلية فقد شهدت استيطانًا فينيقيًّا في «سيلينونتي» و«موتيا» و«بالرمو» و«سولونتو»، واستوطن الفينيقيون في جزيرة مالطة وفي «جوزو» و«بانتلليريا» و«لامبيدوس».

وكذلك استوطنوا في «سردينيا» خصوصًا في «نورا»، «سوليس»، «كارولفورت»، «ثاروس»، وكذلك في جزيرة «كورسيكا». واستوطنوا كذلك في جزر البليار، وجزر إيجه مثل «تكوس»، «كيثيرا»، «ميلوس»، «ثيرات» (انظر: الشريفي، ١٩٨٥م، ٥٧).

(ب) السواحل الأوروبية للبحر الأبيض المتوسط

استوطن الفينيقيون مبكرًا في السواحل الإسبانية وأسسوا مدينة قادس، معنى اسمها (سور) على الساحل الجنوبي لإسبانيا في شمال غرب جبل طارق عام ١١١٠ق.م.

ومن المدن الأخرى في شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا) مدينة تاريتتوس جنوب غربي إسبانيا التي عرفت بـ «تارشيش»، وكذلك مدينة قرشيش، وهذا الاسم هو اسم فينيقي يعني المنجم، أو مكان الصَّهر (انظر: ١٩٨٩م، ٢٩٥).

كانت سواحل بلاد اليونان مكانًا لهم، خصوصًا بعد أن قضى أقوام البحر والدوريون على حضارة موكناي، فأدى ذلك إلى ظهور واضح للفينيقيين على السواحل اليونانية منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ثم العاشر ثم التاسع. وقد خلق هذا الحضور احتكاكًا تجاريًّا مع الأقوام الإغريقية الوافدة إلى بلاد اليونان. وأسس الفينيقيون هناك مدن كومايس (كوماي)، وكورنثوس وساموس (الشمس) ورودس (انظر: الشريفي، ١٩٨٥م، ٥٧).

(ج) السواحل الآسيوية للبحر الأبيض المتوسط

كان للفينيقيين حضور واضح في السواحل الآسيوية رغم قوة الحيثيين في آسيا الصغرى، فقد ظهرت آثارهم في مدينة ياليسوس وجزيرة رودس ومدينة أفيسوس ومدينة ساردس ... ومدن أخرى.

(د) السواحل الأفريقية للبحر المتوسط

لا شك أن الحضور الفينيقي في السواحل المصرية كان قديمًا، وقد أخذ طابعًا تجاريًّا ولم يأخذْ طابعًا استيطانيًّا رغم أن العبادة الفينيقية في منطقة الإسكندرية (التي كانت تسمى فاروس) كانت معروفة، وكان هناك حي من أحياء منف يسمى «ساحة صور». وكانت السواحل المصرية مراكز ومحطات تجارية أكثر من كونها مناطق استيطانية فينيقية.

على السواحل الليبية قام الفينيقيون بتأسيس مدينة «أوبا»، التي يطلق عليها اسم «أوبا ملكرت» واسم «ماكاريا» واسم «أويا» التي هي طرابلس الحالية، ومدينة «لبكي» التي هي مدينة لبدة الحالية، ومدينة «صبرات» وتعني «سوق القمح» وهي مدينة صبرا الحالية.

هناك مدن ثانوية أخرى مثل «أيبوت أكر» و«كراكس» و«توريس أفرانتس» و«ماكومكا» و«كفالي» و«غرافارا» و«زوفيس» (انظر: الجربي، ١٩٩٦م، ٧٦–٧٨).

وفي السواحل التونسية أسسوا مدينة أوتيكا عام ١١٠٠ق.م. ومدينة «هاردميتم» و«هبو، عنابة»، و«تابسوس»، و«أخولا»، و«قرطاجة» التي تأسست عام ٨١٤ق.م. والتي سيكون لها الشأن الأعظم في تاريخ الفينيقيين الغربيين، وكذلك «هرماكون» و«رأس بون» و«حضرموت» التي أصبح اسمها «سوسة».

وفي السواحل الجزائرية أسسوا مدن «فيليب فيل» و«قسطنطينة»، التي كان اسمها «كرت» أي القرية، ومدينة «تشوللو» و«جيجلي» و«تيباسا» و«جورايا».

وفي السواحل الغربية أسسوا مدن «ميليلللا» و«إيمسا» و«سيدي عبد السلام» و«تامودا»، وليكسوس على الساحل الأطلسي، وكان اسمها «تشميش» أي مدينة الشمس، ومنها انطلقوا لاكتشاف مجاهل المحيط الأطلسي، ومدينة طنجة ومدينة مولي بوسلوام وجزيرة الصويرة المغربية، وروسدير (مليلة).

يشير هذا الانتشار والاستيطان الواسعَين إلى أن الفينيقيين قد أسسوا فيما بين القرون الثاني عشر والسادس قبل الميلاد إمبراطورية يحق لنا أن نسميها «إمبراطورية حوض البحر الأبيض المتوسط»، أو «الإمبراطورية المتوسطية الفينيقية»، التي شملت سواحل ومدن وحوض وجزر البحر الأبيض المتوسط.

ولكن ظهور الإغريق أولًا ثم الرومان جعل هذا البحر المتوسط منطقة صراع معها لأكثر من أربعة قرون متصلة، حتى استطاعت روما قبل مطلع القرن الميلادي الأول جعل هذه الإمبراطورية ما يمكن تسميتها «الإمبراطورية المتوسطية الرومانية».

(٢) المرحلة البونية (٨١٤–٥٥٠ق.م.)

يشير مصطلح «البوني» أو «الفوني» إلى «الفينيقي»، ولكننا أردنا أن نميز هذه المرحلة عن سابقاتها باستخدام مصطلح البوني الذي شاع استخدامه عند الرومان، في حين شاع مصطلح «فينيقي» عند الإغريق، ولِنُميزه عن المرحلة السابقة.

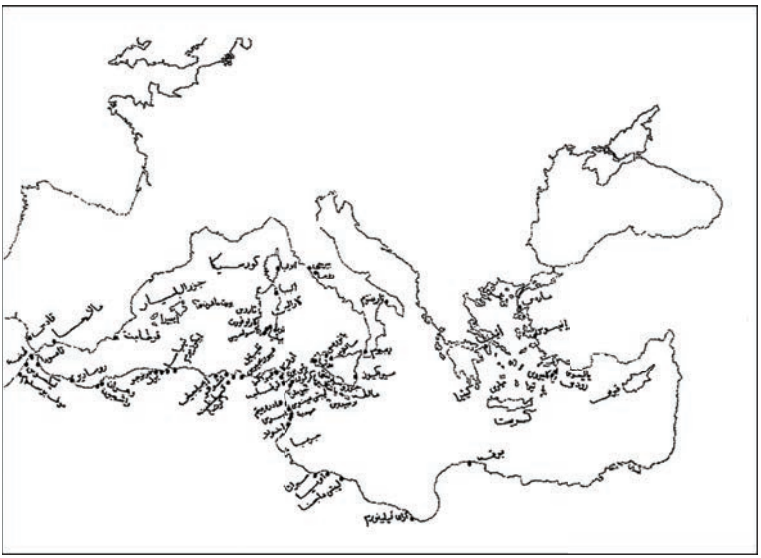

خارطة (٣): التوسع الفينيقي في حوض البحر المتوسط وسواحله وجزره (عن: عصفور، ١٩٨١م).

تبدأ هذه المرحلة مع تأسيس مدينة قرطاج عام ٨١٤ق.م. وتنتهي بظهور الأسرة الماجونية في قرطاج؛ حيث بدأت قرطاج بعدها تلعب الدور السياسي والحضاري المعروف لها، وتمتد كدولة كبيرة تشمل سواحل شمال أفريقيا من خليج سرت شرقًا حتى سواحل المحيط الأطلسي غربًا.

يسود رأي عامٌّ مفاده أن مدينة صور الفينيقية (على سواحل لبنان) لعبت دورًا بارزًا منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد في هِجرة الفينيقيين إلى شمال أفريقيا، وبشكل خاص إلى تونس، وأنها تعتبر الأم المباشرة لمدينة قرطاج، وهناك حكاية يمكن عدها من المثولوجيا التاريخية تبحث في تأسيس الأميرة الصورية إليسا، أخت الملك الصوري بيجماليون، لمدينة قرطاج، وهي حكاية تتأرجح بين الأسطورة والواقع سنذكرها في الفصل القادم.

كان شمال أفريقيا قبل مجيء الفينيقيين مسكونًا بالقبائل الليبية والبربرية، ومن المرجح أنه لم تحصل مصادمات أو عمليات إبادة بين السكان الأصليين والوافدين؛ وذلك بسبب غلبة الطابع الاقتصادي للهجرات الفينيقية.

لقد كان موقع قرطاج السهلي وابتعاده عن الساحل الصخري، بالإضافة إلى أهمية موقعها الجغرافي نسبيًّا من الوطن الأصلي بالمقارنة بالمراكز الأخرى البعيدة، كما أن طبيعة موقع قرطاج تسمح بالتوغل لحد ما في الداخل أكثر من المراكز الأخرى (انظر: الناظوري، ١٩٨١م، ١٦٩).

كان اسم قرطاج الفينيقي «قرت حشدت» أي «المدينة الجديدة» وكان لها اتصال منذ بداية تأسيسها بالحصن الجنوبي «بيرسا» قرب لوكرام ثم بقاعدة «أوتيكا» المجاورة ومدينة حضرموت في تونس. وقد أصبحت قرطاج بسرعة مدينة جديدة فعلًا؛ «لأن أصلها ملكي، ولأن قسمًا من أرستقراطية صور قد هاجر مع ثرواته إليها، وهكذا غدت قرطاج صورًا جديدة وذاعت شهرتها لا لموقعها الجغرافي وحسب؛ بل لأنها ورثت أيضًا عن صور دورها التاريخي» (ميادان، ١٩٨١م، ٥١).

تطورت قرطاج خلال القرن السابع قبل الميلاد كثيرًا، وأسست لها مستعمرة في جزيرة «إيبيسا»، وفي القرن السادس استولى «مالكس» على السلطة في قرطاج بعد أن نجحت حملاته العسكرية في صقلية وسردينيا وفي أفريقيا أيضًا (انظر: ميادان، ١٩٨١م، ٥١).

(٣) المرحلة القرطاجية (٥٥٠–١٤٦ق.م.)

(أ) تأسيس دولة قرطاج

مع مطلع القرن السابع قبل الميلاد تأسست دولة قرطاج وفي منتصف القرن السادس قبل الميلاد انتقل الحكم إلى أسرة قوية هي الأسرة الماجوية (الماجونية) نسبة إلى ماجو، وقد استطاع القائد ماجو أن يؤسس جيشًا قرطاجيًّا قويًّا مؤلفًا «من الجنود المرتزقة من كافة العناصر الليبية، أي البربرية، الذين كانوا يعملون كمشاة في الجيش، وكذلك العناصر البربرية النوميدية الذين تميزوا بقدراتهم في مجال الفروسية، وأيضًا العناصر الغالية ... وغيرها. ولم يتردد اليونانيون في الانخراط في صفوف الجنود المرتزقة في الجيش القرطاجي» (الناظوري، ١٩٨١م، ١٧٣).

وعقدت الأسرة الماجونية معاهدات مع الأتروربيين في إيطاليا، وبنيت الأسوار والحصون والثكنات، وبني الأسطول القرطاجي، وتحولت دولة قرطاج إلى دولة سياسية أكثر منها دولة اقتصادية، وبدأت تدير مقاليد الأمور في حوض البحر الأبيض المتوسط.

تأسست دولة قرطاج قبل ظهور الأسرة الماجونية مع مطلع القرن السابع ق.م. إذن، بعد مدينة قرطاج تكونت دولة قرطاج التي شملت المدن الفينيقية في شمال أفريقيا (باستثناء مصر) وصارت مدينة قرطاج عاصمة لهذه الدولة على يد الأسرة الماجوية أو الماجونية؛ بل إن قرطاج الدولة والعاصمة أصبحت بديلًا لمدينة صور (العاصمة الأم للفينيقيين الشرقيين)، وهكذا تهيأت ظروف جديدة انحدرت فيها صور وصارت قرطاج عاصمة بديلة لكل الفينيقيين.

حاولت قرطاج قبل هذه المرحة مد أذرعها إلى البحر المتوسط فقامت بتأسيس مدينة «أبيزا» بين عامي (٦٥٤–٦٠٣ق.م.) لتؤمن لنفسها ميناءً على الطريق بين سردينيا وإسبانيا (وتقع هذه المدينة «أبيزا» في البليار) واستقر القرطاجيون أيضًا في سردينيا وصقلية ثم اتخذوا لهم مستعمرات في هاتين الجزيرتين، وهكذا بدأت الطموحات الإمبراطورية لقرطاجة في جزر وسواحل البحر المتوسط.

(ب) فترة الصراع القرطاجي الإغريقي

بدأت ملامح هذا الصراع قبل تأسيس الأسرة الماجونية بقليل، ففي عام ٦٠٠ق.م. انهزم القرطاجيون أمام الإغريق الذين أسسوا مستعمرة لهم في مرسيليا وتحدوا القرطاجيين، وفي ٥٥٠ق.م. نجح القائد القرطاجي «مالخوس» في الانتصار على الإغريق في صقلية، واحتل جزءًا من الجزيرة ثم توجه إلى سردينيا حيث هُزم هناك، وفي عام ٥٣٥ق.م. اشتبك الأسطول اليوناني مع الأسطول القرطاجي وأدى ذلك إلى طرد اليونان من سردينيا وجعل القرطاجيون حلفاءهم من أهل أتروريا يحلون محلهم، وظلت قرطاجة تشن غاراتها على سردينيا والشاطئ الإسباني حتى استطاعت أن تثبت مستعمراتها فيها (انظر: عصفور، ١٩٨١م، ٧٣).

تبع مالخوس في الحكم «ماجو» أو «ماجون» مؤسس الأسرة الماجونية التي أدارت الصراع مع اليونانيين بكفاءة نادرة رغم أن هذا الصراع انتهى في النهاية لصالح الإغريق. ويعتبر ماجون وابن هامليكار أهم ملوك الأسرة الماجونية الذين برزوا في هذا الصراع.

ماجون: بدأ ماجون الكفاح ضد الإغريق بالتحالف مع الأتروسكيين والتصدي للإغريق في الإليا في كورسيكا حيث هزموهم في عام ٥٣٥ق.م. وصارت إيطاليا من جبال الألب إلى كامبانيا من نصيب الأتروسكيين، بينما أصبحت المنطقة الواسعة في الجنوب بما فيها المنطقة التي احتلها اليونان من نصيب القرطاجيين.

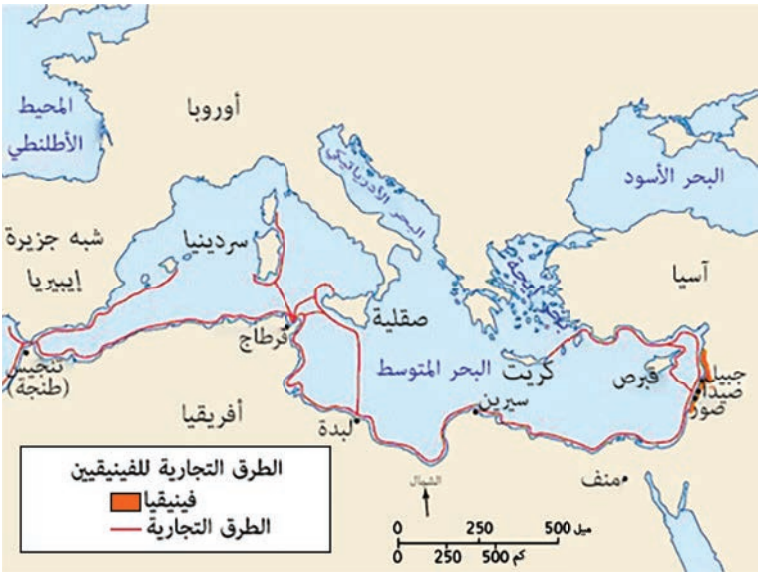

خارطة (٤): قرطاج والطرق التجارية للفينيقيين.

هاملیكار بن ماجون: استطاعت روما أن تضعف الأتروسكيين، وانتصر الإغريق على الفرس في معركة سلاميس البحرية، وهكذا ضعفت قرطاج أمام أعدائها الإغريق. واستطاع دكتاتور سيراكيوز في صقلية (جيلو) الانتصار على هاميلكار القرطاجي في معركة هميرا عام ٤٨٠ق.م. حيث قتل هاملیكار. وأنهى القرطاجيون بعد ذلك حكم أسرة ماجون.

قضاة قرطاج (صوفية suffetes): بعد هزيمة الأسرة الماجونية نفى القرطاجيون بقية أعضائها وشكلوا هيئة حاكمة من مائة شخص وضعوا على رأسها شخصًا أعطوه لقب «قاضٍ»، وحدُّوا من صلاحياته ومدة حكمه حمايةً لقرطاج من الدكتاتورية، كذلك جرى إصلاح ديني واضح؛ حيث ظهر الإله بعل حامون والإلهة تانيت بعد أن كان الإله «بعل» ينفرد بتزعم مجلس الآلهة، كذلك فقد أنهت حكومة قرطاج العلاقة التجارية مع اليونان وهو ما أضر بقرطاج كثيرًا.

لقد جعلت هذه الأمور قرطاج تبدو وكأنها تدخل مرحلة جديدة أسفرت عن استقلال قرطاج الثقافي والديني عن أصلها الفينيقي الأول، ولذلك توسع القرطاجيون داخل أفريقيا، ومدت قرطاج نفوذها وتجارتها باتجاه سواحل إسبانيا وفرنسا.

هانيبال بن جزجو: في عام ٤٠٩ق.م. قام هانيبال مدينة «سيلبنونتة» في صقلية ضد الإغريق، ودمر هذه المدينة ومدينة هميرا وقتل ٣٠٠٠ أسيرٍ انتقامًا للقائد القرطاجي السابق هامليكار، ثم قاد حملة أخرى عام ٤٠٦ق.م. هاجم فيها أغريقنتوم وهزمها ودمرها لكنه مات بالطاعون، فاستمر بعده هيميلكو.

هيميلكو: استمر في حصار مدينة جيلا وأصبحت صقلية اليونانية مهددة بأكملها، فقام الإغريق بتعيين ديونسيوس قائدًا لصقلية اليونانية فأحرز انتصارات أولية، ثم هزمه هيميلكو في معركة بحرية، ثم انتشر الطاعون في الجيش القرطاجي، وعقدت معاهدة بين القرطاجيين والإغريق حيث أصبح ثلث صقلية تابعًا للنفوذ القرطاجي.

هسرروبال: في عام ٣٤٠ق.م. انتصر تيموليون الكورنثي على هسيدروبال القرطاجي وأجبر على عقد معاهدة نقص في نفوذ القرطاجيين.

هامليكار: مع بدء غزو الإسكندر المقدوني للشرق (صور) عام ٣٣٢ق.م. قام «أجاثوكليس» سيراكيوز الطاغية بالخروج على قرطاج فهزموه وحاصروه في مدينته، فقام بتنفيذ خطة جريئة جدًّا حيث قاد أسطولًا حربيًّا وتوجه نحو «رأسجون» على الساحل الأفريقي ثم أشعل النار في سفنه واتجه نحو قرطاج العاصمة، وضرب المدن القرطاجية في طريقه ثم حاصر قرطاج العاصمة، بينما كان القرطاجيون يحاصرون مدينته سيراكيوز في صقلية، واستطاع هزيمة الجيش القرطاجي حول قرطاج.

وبينما كان هامليكار يحاصر سيراكيوز قام أجاثوكليس بالتحالف مع الوالي البطلمي على برقة (أوفيلاوس) على أن يحصل هذا على شمال أفريقيا وأجاثوكليس على صقلية، وبعد أن تقدم أوفيلاوس بجيشه الكبير قام أجاثوكليس بقتله، وانتهز أجاثوكليس مؤامرة بوملكار للحكم في قرطاج فاحتل أوتيكا وهيبواكرا، ثم ذهب إلى صقلية وترك جيشه وحيدًا.

قام القرطاجيون بالهجوم على الجيش واستعادوا أماكنهم في شمال أفريقيا، وعبثًا حاول أجاثوكليس إنقاذ الموقف حتى عقدوا معه معاهدة أدت إلى نهاية الحرب بينهما واحتفظت قرطاج بكل ممتلكاتها في أفريقيا وفي صقلية إلى نهر هاليكوس (أي ثلثها) وحصل أجاثوكليس على بعض الأموال كتعويض رمزي لما فقده من الأرض.

هكذا انتهى الصراع القرطاجي اليوناني، والذي دار بشكل أساسي حول صقلية وتنازع النفوذ فيها، وذلك لأهميتها في السيطرة على البحر المتوسط بجزئيه الشرقي والغربي.

(ج) فترة الصراع القرطاجي الروماني (الحروب البونية)

انشغلت كل من روما وقرطاج طيلة القرون الماضية بمشاكلهما الداخلية والخارجية من دون أن ينتبها إلى خطورة إحداهما على الأخرى.

ولم يبدأ الاحتكاك المسلح بينهما إلا بعد أن وجدت روما أرض إيطاليا وأخضعتها لسيادتها. وهكذا كانت قوة روما البرية ومحيطها الأوروبي، بينما كانت قوة قرطاج بحرية ومحيطها أفريقي. ولكن البحر المتوسط بجزره وسواحله كان مكان الصراع والاحتكاك.

فبعد أن استولت روما على بلاد اليونان أرادت أن تضم إليها صقلية التي كانت تحت سيطرة قرطاج. ونشأ عن ذلك ثلاث حروب متقطعة استغرقت ١١٨ سنة، وهي كما يلي (انظر: الناظوري، ١٩٨١م، وعصفور، ١٩٨١م):

(١) الحرب البونية الأولى (٢٦٤–٢٣٤ق.م.)

كان السبب الرئيسي لهذه الحروب هو محاولة السيطرة على جزيرة صقلية، أما السبب الثانوي فهو طموح روما لبسط نفوذها على جزيرة سردينيا، وكان السبب المباشر الذي أشعل فتيل الحرب هو قيام مرتزقةٍ طليان بدخول مسينا (في صقلية)، والاستيلاء عليها، فقام حاكم سيركوز والقرطاجيون لإنهاء هذا الوضع الشاذ، فاستنجد المرتزقة بروما التي هبت لنجدتهم وبدأت الحرب.

وعندما خذل حاكم سيراكوز قرطاجة، انسحب القرطاجيون إلى البحر واستعدوا لخوض معركة بحرية مع الأسطول الروماني الفَتِيِّ فتغلب عليهم الرومان أولًا، ثم تغلب القرطاجيون، وفكر الرومان بنقل الحرب إلى أرض أفريقيا فأنزلوا قواتهم شرق عنابة في تونس، واستعد القرطاجيون بقيادة «همليكار برقة» لمقاومة حصار روما لقرطاج العاصمة ونجحوا في ذلك؛ بل وهزموا الرومان وأسروا قائدهم؛ لكن الرومان أعادوا الكرة فغزوا الساحل القرطاجي ولكنهم فشلوا أيضًا.

انتهت الحرب البونية الأولى بمعركة كبيرة في صقلية عام ٢٤١ق.م. وانتصر فيها الرومان واضطرت قرطاج لعقد اتفاقية سلام مع روما تقضي بجلاء قرطاج نهائيًّا عن

صقلية، ودفع غرامة مالية كبيرة على مدى ٢٠ سنة. وهكذا ضعفت قرطاج وخرج الخلفاء الليبيون على جيش همليكار فحاربهم لثلاث سنوات، كانت روما خلالها قد بسطت نفوذها الكامل على جزيرتي سردينيا وكورسيكا.

(٢) الحرب البونية الثانية (٢١٨–٢٠٢ق.م.)

حاولت قرطاج أن تعوض ما فقدته من نفوذ وخسائر في الحرب البونية الأولى فشددت على بناء قوتها الداخلية ووسعت نفوذها باتجاه شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا)؛ حيث قام همليكار برقة بقيادة هذا المشروع، ثم أكمله زوج ابنته «هروبال»، الذي بنى مدينة قرطاجنة (قرطاجة الجديدة) على ساحل إسبانيا الوسطى.

وبدأت الحرب البونية الثانية مع تولي «هانيبال» ابن همليكار برقة حكم دولة قرطاج، فقرر الانطلاق من إسبانيا لمحاربة روما، وبدأ بحصار مدينة ساجنتوم الموالية لروما فأعلنت روما الحرب عليه، وكان هو قد خطط لتسلق أوروبا كلها ثم النزول على إيطاليا من أعلاها، وهو ما لم يخطر ببال الرومان الذين توقعوا الحرب في صقلية، أو على السواحل الأفريقية.

ترك هانيبال أخاه «هسروبال» في إسبانيا ليكون ظهيرًا له يرسل الإمدادات له بانتظام، وخرج هانيبال من إسبانيا بجيش جرار تتقدمه الفِيَلة، فهزم أولًا قبائل أيبيريا عام ٢١٨ق.م. ثم عبر جبال البرانس، ثم عبر جبال الألب (١٢ ألف قدم فوق سطح البحر)، ثم عبر مضيق الرون، ثم عاد فعبر السلاسل المتبقية من جبال الألب وقمم فيزو وخاض معركة بلاسنتيا (٢١٨ق.م.) مع القبائل الخالية والكلتية، بعدها نزل إلى حوض نهر البو، حيث كان الرومان بانتظاره.

وفي إيطاليا خاض هانيبال ثلاث معارك كبيرة (تريبيا، ترازيمين، كاناي) انتصر فيها انتصارًا ساحقًا على الرومان، وكان مهيئًا لحصار روما ودخولها، ولكنه لم يكن يملك أدوات الحصار المناسبة، فقامت روما بتشتيت قوته بحصارها للمدن البعيدة في إيطاليا مثل: «سيراكوز، كابوا، تارينتوم»، ثم قاد سقيبو الأفريقي الجيش الروماني ليهزم هيسدروبال في معركتين متتاليتين (قرطاجنة، ميتاروس) وليقطع الإمدادات نهائيًّا عن هانيبال.

وإزاء ذلك وبسبب طول الزمن الذي قضاه هانيبال في روما (١٥ سنة) طلب أهل قرطاجة من هانيبال العودة لبلاده فعاد، لكن سقيبو الأفريقي لم يقتنع بذلك فوجه الجيش الروماني نحو قرطاج وخاض مع جيش هانيبال المعركة الفاصلة في «زاما»، فمُني

هانيبال بهزيمة واضحة فرَّ على إثرها إلى الشرق، إذ تعاون أولًا مع السلوقيين ضد روما من دون جدوى، ثم مع ملك ليديا ضد الرومان من دون جدوى ... فلم يجد مفرًّا من الانتحار.

(٣) الحرب البونية الثالثة (١٤٩–١٤٦ق.م.)

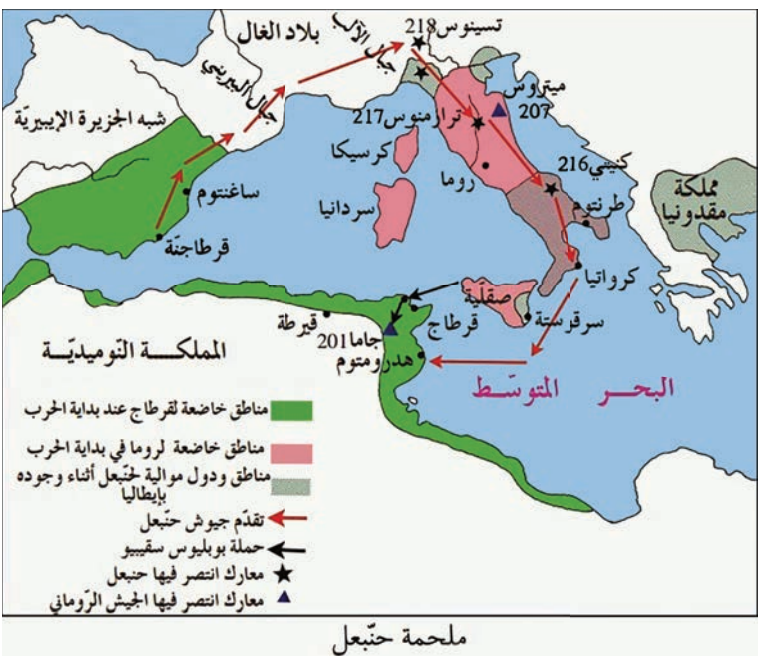

مخطط (٢): الحرب البونية الثانية وصعود هانيبال إلى أوروبا ثم غزوه لإيطاليا.

رغم الخسارة الكبيرة التي تكبدتها قرطاج في الحرب الثانية نلاحظ أنها حاولت، عن طريق بناء اقتصادها، إعادة العافية لمدنها المحيطة بالعاصمة قرطاج عند الساحل الأفريقي. واستطاعت ذلك خلال ما يقرب من عشرين عامًا، وهو ما أفقد صواب روما التي رفعت شعار (يجب محو قرطاج من الوجود) على إثر زيارة «كاتو» لقرطاج للفصل في منازعتها مع نوميديا، فهاله ما رآه من حياة نشطة وأخشاب مكدسة عند الموانئ فادعى

أن قرطاج ستبني أسطولًا بحريًّا جديدًا، وكان ملك نوميديا ماسينيا قد أشعل فتيل الأزمة عندما دخل طرابلس التابعة لقرطاج وهو يلاحق ثائرًا ضده من دون أن يستأذن من قرطاج أو روما، ومع ذلك جاء اللوم على قرطاج من قِبل روما، ثم طلبت روما أن يرحل القرطاجيون عن العاصمة مسافة عشرة أميال حتى يتسنى للرومان تدمير المدينة كلها.

فأدرك القرطاجيون أن روما تريد إبادتهم، فأغلقوا أبواب مدينتهم واستعدوا للحصار والحرب، وقاوموا حصار الرومان ببسالة ثلاثة سنوات متصلة شعر الرومان خلالها بالفشل، فعينوا قائدًا جديدًا لقواتهم هو «إميليانوس» وطلبوا منه اقتحام قرطاج بأي ثمن، وتمكن من ذلك عام ١٤٦ق.م. ثم قام بتدميرها وإحراقها وباع سكانها كرقيق وزرع أرضها بالملح، ثم وزعت أرضها على الفلاحين الرومان، وحولت روما إقليم قرطاج إلى ولاية جديدة هي «أفريقيا» جعلت «أوتيكا» مقر حاكمها وتبعيتها للحكم الروماني.

الفصل الثاني

المثولوجيا الكنعانية

دراسة في الآلهة والأساطير والرموز الكنعانية

(١) المبحث الأول: الآلهة الكنعانية

يضعنا موضوع الآلهة والأساطير الكنعانية في شبكة مركبة الطبقات من الآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال والأساطير والحكايات والملاحم النازحة من عصور مختلفة لتاريخ الكنعانيين الطويل ومن بقاع مختلفة من الأرض، أو من الأيكومين المتوسطي الذي يتشكل على وفق فسيفساء مثولوجية كنعانية ومصرية وإغريقية ورومانية، تلتمع فيها ألوان الثقافات والحضارات التي ظهرت في وحول حوض المتوسط.

كما أن المشكلة الأخرى التي نصادفها في معالجة المثولوجيا الكنعانية تكمن في تنوع وتباين مرجعياتها؛ فهناك شذرات منها في العهد القديم، وهناك ما دونه الإغريق والرومان عن التراث الروحي الكنعاني، وهناك المادة الآثارية لمدن الكنعانيين في صور وقبرص وقرطاج وغيرها. وأخيرًا ذلك الكنز الأوغاريتي من الألواح الطينية الأشد عراقة وقِدمًا، والذي بدأ بالظهور منذ عام ١٩٢٩م على يد المنقبين والآثاريين.

كل هذه المرجعيات المتفاوتة في مستوى صدقها وأصالتها تزيد المشهد المثولوجي الكنعاني ضبابا والتباسًا؛ ولكنها من ناحية أخرى، تعطينا انطباعًا قويًّا بخصوبة وعظمة المثولوجيا الكنعانية.

إن الوسيلة الوحيدة لتفادي المشكلات السابقة هي في انتهاج طريقين؛ الأول: هو تنظيم شجرة دقيقة محكمة لتسلسل أنساب الآلهة الكنعانية، والثاني: هو الانطلاق أساسًا من الألواح الأوغاريتية واعتبارها المرجع الأعرق والأشد أصالة للمثولوجيا الكنعانية، لأنها

نصب الإله بعل من أوغاريت، رسم: فاروق كاظم.

تنقل لنا المشهد الروحي الكنعاني في حدود القرن الخامس عشر قبل الميلاد بكل أمانة ودقة.

وسنعمل على انتهاج السبيلين وحرث الطريق الوعر والشائك في هذا الموضوع.

(١-١) شجرة الآلهة الكنعانية

نفضل العودة إلى كتابنا «الآلهة الكنعانية» الذي فصلنا فيه الحديث عن الآلهة الكنعانية وأجيالها، والذي طرحنا فيه رأيًا جديدًا في أصل الآلهة الكنعانية وضبطنا جدول أنسابها اللاحقة، ورغم أننا سنجري هنا تعديلًا جديدًا وهو إضافة آلهة جديدة سواء في بدايتها،

مثل: «أ س، دامور، ملكارت»، أو في وسطها في جيل إيل وحيل بعل، أو في نهايتها عندما يتحد بعل مع حدد وتظهر عناة بصيغة عرجاتس الآرامية ومعهما ابنهما «سيميوس».

تتكون شجرة أنساب الآلهة الكنعانية (مخطط (٢)) من أربعة أجيال كبرى، يحتوي كل جيل على مجموعة من الآلهة، وهي كما يلي:

(أ) جيل الآلهة القديمة

لقد سجلنا تحفظنا المطلق على جدول أنساب الآلهة الكنعانية الذي وضعه الكاهن الكنعاني الإغريقي «سانخونتين» ثم «فيلون الجبيلي»، واعتباره مربكًا ومشوشًا وموضوعًا لصالح الثيولوجيا الهيلينية، ثم لصالح مدينة بيروت ورفع شأن آلهتها كما حصل مع فيلون الجبيلي، الذي كان من أبناء هذه المدينة.

وقد ثبتنا اعتراضنا تفصيليًّا على اعتبار الإله «عليون» والإلهة «بيروت» كآلهة أب وأم لكل الآلهة الكنعانية (انظر: الماجدي، ١٩٩٩م، أ: ٣٠–٣٩).

هناك إشارات أركيولوجية كثيرة تأتينا من العصور الحجرية الوسيطة والحديثة والمعدنية (الميزوليت، والنيوليت والكالكوليت) في بلاد الشام وتعطينا فكرة عن وجود الإلهة الأم التي سبقت اكتشاف الزراعة بقليل في «الميزوليت»، ومع اكتشاف الزراعة (النيوليت) ومع اكتشاف المعادن (في الكالكوليت).

وتتمثل هذه الإشارات بظهور تماثيل الإلهة الأم التي هي إلهة محلية في بلاد الشام سبقت مجيء الكنعانيين إلى البلاد، وعَبَدها سكان بلاد الشام الأصليين الذين نجهل عنهم كل شيء تقريبًا.

لقد ظهرت الأقوام الكبارية والنطوفية في بلاد الشام خلال فترة العصر الحجري الوسيط (الميزوليت)، ورافق ذلك ظهور بعض التماثيل الآدمية والحيوانية التي تعبر عن مقدسات العبادة آنذاك، مثل تلك التماثيل النطوفية التي عثر عليها في عين الملاحة وعين صخري ومغارة الواد (انظر: كوفان، ١٩٨٨م، ٣٥)، وتوحي لنا هذه التماثيل بأشكال بشرية ذات طبيعة غامضة، بينما يعطينا تمثال «العاشقين» من عين صخري فكرة عن الصورة الهيولية الأولى للجنس، باعتباره طاقة مخصبة، فهو يمثل ببراعة نادرة عناقًا جنسيًّا لذكر وأنثى، لعلهما أوَّلا الآلهة في بلاد الشام وهي في طور تناسلها (الشكل ٢-١).

أما النيوليت الشامي (٨٥٠٠–٤٥٠٠ق.م.) فقد أعطانا ألوانًا جديدة للإلهة الأم، فهناك الإلهة الأم الأفعوانية الشكل؛ كما هي تماثيل المنحطة، والدمى الجالسة من البيضا،

شكل ٢-١: العاشقان (دمية من عين صخري)، العصر النطوفي (٩٠٠٠ق.م.)، لعلها تمثل أول الآلهة المتناسلة.

وتماثيل الإلهة الأم في تل المريبط والمنحطة وشاروهان، ثم ظهور ذلك الشكل الغريب للإلهة الأم التي عرفت بـ «الأم الرهيبة mere terrible» في المنحطة؛ حيث ظهرت الإلهة الأم بصورة مركبة تحتوي على الأنثى والحيوان والأفعى والشكل الشيطاني الغريب، وربما الذكورة التي جعلتها تبدو وكأنها حاوية على قوى الطبيعة كلها. وكذلك تظهر الإلهة الخُنثى الأفعوانية الشكل من تل الرمد في سوريا.

أما الكالكوليت في طوره النحاسي (من ٤٠٠٠–٣٢٠٠ق.م.) فقد أعطانا انطباعًا قويًّا بحصول الانقلاب الذكوري وتهميش الإلهة الأم وتحولها إلى ما يشبه الرمز الذي يظهر

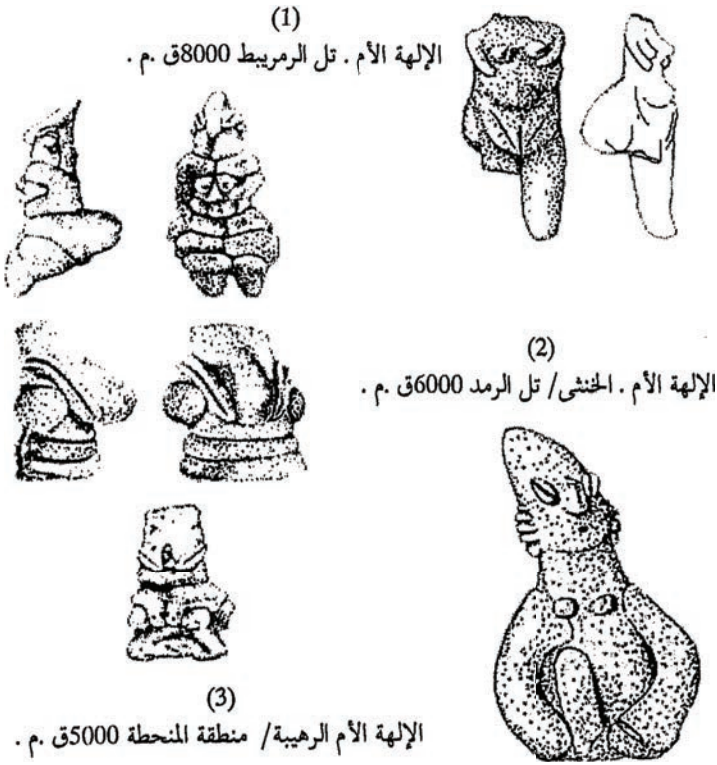

شكل ٢-٢: الإلهة الأم في بلاد الشام، العصر الحجري الحديث (النيوليت).

واضحًا في جدارية «تليلات الغسول» الأردنية المسماة «نجمة الغسول» والتي ربما جمعت في رمزيتها هذه كل الكواكب، سواء كانت أنثوية أو ذكرية (انظر: الماجدي، ١٩٩٧م، ٩٧-٩٨). (شكل ٢-٣).

رغم ذلك أحيا ظهور الكنعانيين في بلاد الشام اتباع الإلهة الأم القديمة، ولكن الاختلاف ظهر حول هوية هذه الإلهة وطبيعتها.

يضللنا فيلون الجبيلي عندما يضع على رأس شجرة الآلهة الكنعانية الإله الذكر عليون Eylon أو إليون Elioun، كإله أول وكزوج للإلهة بارات أو بيروت، لأن هذه المدينة

شكل ٢-٣: نجمة الغسول المرسومة على جدار في حدود الألف الخامس ق.م. وهي نجمة ثمانية وبداخلها نجمة ثمانية بداخلها نجمة ثمانية ثالثة، وترمز النجمة الثمانية لفكرة الإله في تليلات الغسول في الأردن.

هي مدينته فكان لا بد من رفعها إلى مستوى الأم الأولى، أما عليون فهو الإله الذي يذكره العهد القديم ونصوص رأس شمرا وتدوينات أخرى.

لقد أهمل العلماء المختصون مناقشة هذا الموضوع وملاحظة الالتباس والخطأ الذي تصدر عنه بداية الآلهة الكنعانية واستسلموا دون مناقشة لرواية فيلون الجبيلي، ولذلك نرى هنا ضرورة مراجعة هذا الأمر الذي سيصحح لنا مسار فهمنا الكامل للدين الكنعاني كله.

ولكي نساهم مساهمة متواضعة في هذا الموضوع فإننا سنقدم مقترحًا استنتاجيًّا يمكن أن يكون بديلًا معقولًا عن ذلك الإرباك الذي وضعه فيلون الجبيلي، ويكمن مفتاح هذا الحل في المثولوجيا الرافدينية وبمساعدة قوائم أسماء الآلهة الأوغاريتية.

تمنحنا قوائم أسماء الآلهة التي عُثر عليها في أوغاريت والتي تحمل أسماء أكدية (بابلية) وأسماء أوغاريتية، تمنحنا هذه القوائم تقابلات بين الآلهة الأكدية والآلهة الأوغاريتية، فعلى سبيل المثال يرد اسم الإلهة «تامونو» أي «تيامت» الواردة باللغة الأكدية ويقابلها اسم الإلهة «يمو» في الأوغاريتية (انظر: شيفمان، ١٩٨٨م، ٧٦).

لكننا عندما نرجع إلى الأساطير الكنعانية نجد أن اسم الإله «يمو» أو «يم» مندرجًا في أسفل سلم الآلهة. وتُظهره أسطورة صراعه مع الإله بعل على أنه إله مندحر يقوم بعل بالانتصار عيه ليصبح بعل بعد ذلك «ملك الآلهة»، وتذكرنا هذه الحادثة بانتصار مردوخ (الذي يسمى «بل» أيضًا) على الإلهة تيامت فيصبح بعدها «ملك الآلهة».

إن هذه المقارنة بين «تيامت» و«يم» صحيحة جدًّا تدعونا لاستنتاج جديد وهو أن «يم» أو «يمو» هي الإلهة الأم عند الكنعانيين وهو ليس بإله ذكر. لكن الانقلاب الذكوري من ناحية، ومحاولة المحو المتعمد لأصول الآلهة الكنعانية من ناحية أخرى أنزلت هذا الإله من مرتبة الإلهة الأم وتحويله إلى إله مهزوم يعبر عن البحر ولا يعبر عن شيء آخر.

إن الإله «يم» الذي يعبر عن المياه الهيولية الأولى وعن مياه البحار والمحيطات موجود كاسم في ثنايا اسم «تاموتو» أو «تيامت»، وهو أيضًا في صيغة «يمو» يقترب من الإلهة السومرية الأم الأولى «تمو»؛ ولذلك أرى أن هذا الإله كان في أصله إلهة أنثى معبرة عن الإلهة الكنعانية الأم الأعلى التي أصبحت إلهًا ذكرًا مع تصاعد حمى الانقلاب الذكوري، وأُنزلت إلى إله ذكر مغلوب وهامشي.

وفي تقليبنا وبحثنا في الأسماء الأوغاريتية وجدنا اسم «ثمتم Themtm» الذي يشير إلى المحيطين السماوي والأرضي وهما في حالة اندماج، وهذا المحيط المزدوج هو الذي نلمحه عند آفاق البحر المترامية حين تتحد مياه البحر بحدود السماء في خط واحد متصل يكاد يكون على شكل دائرة كونية (إذا كنا في وسط البحر).

ونرى أن هذا المحيط السماوي البحري هو الذي خرج من الإلهة الأم الأولى «يمو» وهو يقابل محيط السماء والأرض السومري المزدوج «إن-كي» الذي خرج من «نمو» الإلهة السومرية الأم.

وهكذا انفصل هذا المحيط بعد ذلك إلى إلهَين، هما عبارة عن محيطين منفصلين عن بعضهما (شم أو ثم وهو محيط السماء) و(تم أو دم، وهو محيط الأرض).

ومن كل منهما نشأ إله السماء «شميم أو شاميما» من المحيط السماوي «شم أو ثم» وإلهة الأرض «أديم أو أدمة» التي يمكن أن يكون قد استعمل لها مرادف آخر هو «أرسو»، الذي يعني الأرض أو إلهة الأرض.

ومن تزاوُج إله السماء «شميم» مع إلهة الأرض «أدمة» يظهر الإله «إيل» وإخوته من الآلهة الأخرى.

وبذلك ينهار البناء الذي صممه، بشكل متعسف، فيلون الجبيلي والذي ألغى فيه الإلهة الأم واستبدل بها إلهة محلية، ثم صاغ إلهة السماء والأرض صياغة إغريقية.

وبذلك أيضًا نكون قد وُفِّقنا إلى وضع أنساب الآلهة القديمة التي سبقت إيل، ولكي نرى بصورة أوضح ما افترضناه نضع الجدول الآتي، الذي يقارن بين جدول فيلون الجبيلي ومتقرحنا الجديد:

جدول فيلون الجبيلي	مقترحنا
عليون (إله فينيقي) بارات (إلهة بيروت) ↓ أبيجوس أطغتون (أورانوس) إله السماء جي إلهة الأرض ↓ إيل	يمو (يم) إلهة المياه الهيولية الكنعانية الأم ↓ ثمتم (شمتم) المحيط السماوي الأرضي ↓ شم (محيط السماء) تم (محيط السماء) ↓ شميم (شاميما) إله السماء أديم (أدمة) إلهة الأرض ↓ إيل

وفيما يلي جدول شجرة الآلهة الكنعانية موضوعة بشكل علميٍّ دقيق:

يفتح لنا هذا المقترح المجال واسعًا لتصور آلهة كنعانية أصيلة وحقيقية نابعة من أرض وطبيعة كنعان نفسها تناسب الخلق الأول والتكوين الأول ... ولذلك أزحنا من شجرة الأنساب التي وضعناها للآلهة الكنعانية مخطط فيلون الجبيلي واعتبرناه مقحمًا، إضافة إلى الأخطاء والإرباكات الكبيرة التي حفل بها مخططه لأنساب الآلهة الكنعانية، والتي لا مجال للرد عليها هنا وهي واضحة، على أية حال، لكل مهتم بهذا الموضوع.

وهكذا صار بإمكاننا وضع شجرة أنساب الآلهة الكنعانية بأصول واضحة لا لبس فيها؛ بل إن هذه الأصول ستعدل مجمل سياق هذه الشجرة، بل وتعدل أساطير الآلهة الواردة فيها كما سنرى (انظر: شجرة أنساب الآلهة الكنعانية).

(ب) آلهة الكون (العناصر الأربعة)

وتضم هذه الطبقة من الآلهة مجموعة الآلهة الآباء والآلهة الأمهات الكبار، وهؤلاء الآلهة نتاج تزاوج السماء والأرض، فهم يمثلون مظاهر الطبيعة والكون في أعظم أشكالها، وإذا نظرنا بعمق إلى جوهرهم فسنجدهم يكونون عناصرها الطبيعية الأربعة (النار، التراب، الهواء، الماء) ولو عدنا إلى شجرة الآلهة الإغريقية التي نرجح أن تكون قد أُخذت حرفيًّا من شجرة الآلهة الكنعانية ذات، يوم كما يؤيد ذلك فيلون الجبيلي وسانخونتين. إذا عدنا لهذه الشجرة فسنجد أن ما يقابل هذا الجيل عند الإغريق هو ذلك العدد الهائل من الآلهة الكونية القديمة والتي تتكون من الجبابرة والعمالقة والصقالبة (من السيكلوب ذات العين الواحدة) والعمالقة الجدد من دم أورانوس والصقالبة الأورانيون وغسل الإله بونتوس (الموج البحري) ونسل طيفون.

هذه الأنواع الإلهية السبعة التي خرجت من تزاوج الأرض والسماء، أو من السماء لوحدها، أو من الأرض لوحدها يمكن أن تهدينا إلى رَتق ما ضاع من الآلهة الكنعانية في هذه الطبقة، ورغم أن الآلهة الإغريقية ما قبل الأولمبية pre-olympeic تعج بعشرات الآلهة المشوهة الخلق، والتي لم تأخذ بعد الشكل الإلهي المستقر الذي يشبه الإنسان، لكن هذه الآلهة تمثل الخليقة الكونية ومظاهرها بعد ظهور الأرض والسماء.

تقع كل هذه الآلهة بين مستويين هما: السماء والأرض ويمثلها في الكنعانية «شميم وأديم» وفي الإغريقية «أورانوس وجيا»، والمستوى الآخر هو جيل المطر والخصوبة ويمثلها في الكنعانية «بعل وعناة» وفي الإغريقية «زيوس وهيرا».

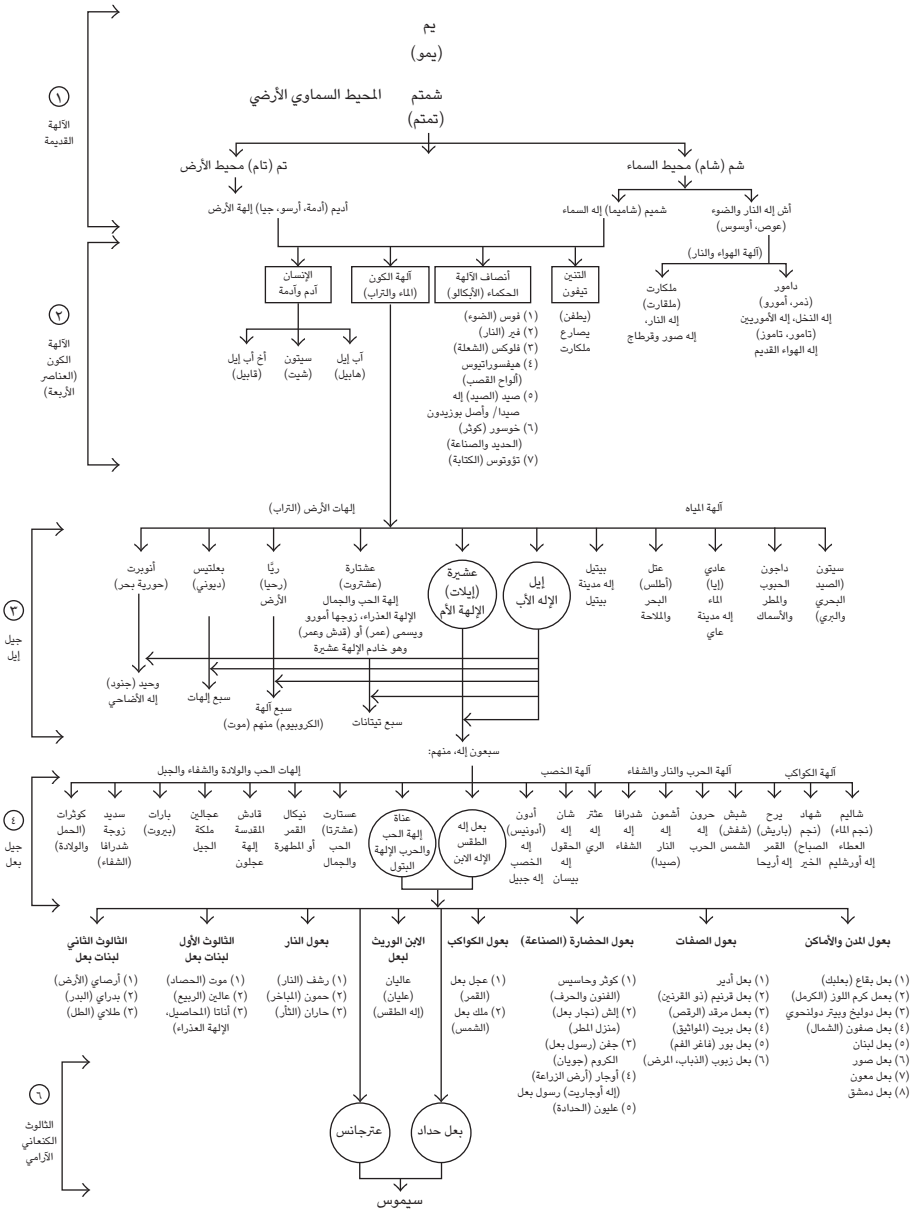

مخطط (٣): شجرة أنساب الآلهة الكنعانية (وضع وتصميم: د. خزعل الماجدي).

بين هذين المستويين تظهر الآلهة الكنعانية الآتية:

(أ) **آلهة الهواء والنار:** وهم نسل الإلهة «عوص» أو «أوسوس» وأصله «أش» أي النار، وهو أخو إله السماء شميم؛ حيث ظهر منه الإله «دامور» الذي هو الإله «ذمر» أو «دمناروس» إله الأموريين، وهو إله الهواء القديم، والإله الآخر الذي يتوحد به عوص هو الإله ملقارت، وهو نظير هرقل الإغريقي إله النار وإله مدينة صور وقرطاج.

(ب) **آلهة الماء والتراب:** وينقسمون إلى قسمين:

(١) نسل الآلهة الذكور المولودين من تزاوج السماء والأرض:
كل هؤلاء الآلهة يمثلون المياه بمختلف أشكالها:

إيل: الإله الأب يمثل المطر.
بيتيل: وهو إله يمثل مكان إيل في المياه عند منبع النهرين.
عتل (أطلس): وهو إله البحر والملاحة.
عاي (إيا): وهو إله المياه البابلي الذي صار إله مدينة عاي الكنعانية.
داجون: إله الجنوب والمطر والأسماك، وأحيانًا يوصف كإله للطقس.
سيتون (صيد): إله الصيد البحري والبري.

(٢) نسل الآلهة الإناث المولدات من تزاوج السماء والأرض، وكلهن يعبرن عن الأرض (التراب)، وهن أخوات الإلهة عشيرة (عشتارة)، ريا (رحيا)، بعلتيس، أنوبرت.

(ج) **أنصاف الآلهة:** من الحكماء أو العماليق الذين ظهروا مباشرة بعد خلق الأرض والسماء، وهم الذين علموا الإنسان نواميس الحضارة، وتختلف الروايات في ذكر عددهم فهم يتراوحون بين ٧ و١٢، مثل «فوس = الضوء، فير = النار، فلوكس = الشعلة، هيفسورانيوس = ألواح القصب، صيد = الصيد، ربما هو نفسه سيتون، خوسور = الحديد والصناعة وهو الإله كوثر، تؤوتوس = الكتابة ... إلخ».

وعند مقارنة هؤلاء بالحكماء السومريين الخارجين من المياه أتباع «إيا» يمكننا أن نطلق على هؤلاء «الألكالو الكنعانيون» أي الحكماء الكنعانيين.

(د) **التنين تيفون:** وهو «يظهر» في الأساطير الكنعانية، ويكون على شكل ثعبان كبير يصارع الإله ملكارت ... كما صارع تيفون هرقل.

(هـ) **الإنسان:** وهو الكائن الذي ظهر بعد خلق السماء والأرض مطابقًا لهما في صورة ذكر وأنثى هما «شمم وأدمه» ثم «أدم وأدمة» وربما «آدم وحواء» واكتمل نسلهما بسلالة بشرية متتابعة.

(ج) جيل إيل

يستمر النسق الإلهي من خلال جيل إيل وتحديدًا من خلال الإلهين «إيل وعشيرة» باعتبارهما مركز الثقل في هذا الجيل ويصبح الإله «إيل» أبا الآلهة والبشر، ويستوي على كل شيء حتى على ماضي آبائه وأجداده من الآلهة، وربما كان كهنة إيل وراء حذف وتشويه سلالة الآلهة ما قبل إيل.

ويتزوج الإله إيل عشيرة بشكل خاص رغم أن له علاقات جنسية واسعة مع أخواتها. ورغم أن إخوته الذكور هم أزواج لهن، ولكن هذه الحقائق تُطمس احتفاءً بذكورية وبطولة إيل.

وتعتبر الإلهة عشيرة الزوجة الرسمية للإله إيل، وهي الإلهة الأم الجديدة وتلقب «إيلات» على ضوء اسم زوجها إيل، وتنجب منه نسل سبعين إلهًا هم آلهة الجيل القادم الذي يضم بالدرجة الأساس «بعل وعناة».

ويضم جيل الإلهات أيضًا الإلهات اللائي يرتبطن مع الإله إيل بعلاقة جنسية وينجبن منه مجموعة كبيرة من الآلهة الغريبة.

فالإلهة «عشتارة» أو «عشترون» تمثل إلهة الحب والجمال، وتأخذ دور الإلهة العذراء؛ لكنها تنجب من إيل سبع إلهات إضافة، إلى إنجاب عشيرة وعشترون من إيل عن طريق التقبيل الإلهين «شهار وشاليم».

أما الإلهة «ريا» التي تأخذ موقعًا مركزيًّا في الآلهة الإغريقية فهي زوجة «كروزس» مقابل «إيل»، أي إن مكانها هو مكان عشيرة، هذه الإلهة تنجب سبع أبناء منهم الإلهة «موت».

أما الإلهة «بعلتيس» وتسمى «ديوني» فإنها تنجب سبع بنات أيضًا.

وتنجب الحورية «أنويرت» من الإله إيل سبع أبناء منهم الإله جنود «إله الأضاحي».

وبذلك يكون عدد أبناء الإله «إيل» مائة إله بالضبط.

(د) جيل بعل

وهو الجيل المقابل للإلهين الإغريقيين «زوس» و«هيرا» ويسمى عند الإغريق بـ «الكرونيديون» نسبة إلى كرونوس، ويمكن أن نسميه عند الكنعانيين بـ «الإيليين»، نسبة إلى الإله إيل فهم جميعًا أبناء الإله إيل.

ويمثل الإله بعل «ملك الآلهة»؛ لأنه مثل «مردوخ» ينتصر على قوى الهيولي الماشية الأولى ممثلة بـ «يمو»، ثم يبني بيته وعرشه ويحكم الكون. ويتخذ له رفيقة أساسية هي «عناة».

ويشتمل جيل الإله بعل من الذكور والإناث على ما يأتي:

(أ) **آلهة الكواكب:** وهم آلهة الشمس والقمر والزهرة، ويمثل القمر الإله «برح» وهو «باريشي» إله أريحا الذي يتزوج نيكال إلهة القمر. أما الشمس فيمثلها الإله شغش أو شبش، وإلهَا الزهرة هما من تزاوج الإله إيل مع الإلهتين عشيرة وعشتار عن طريق التقبيل، وهما شاليم نجم المساء وإله أوروشليم، والإله شهار نجم الصباح.

(ب) **آلهة الحرب والنار والشفاء:** وهم الآلهة: حرون إله الحرب والحرارة، وأشمون إله النار والطب في صيدا، وشرافا إله الشفاء زوج الإلهة شديد.

(ج) **آلهة الخصب وهما الإلهان أدونيس إله جبيل:** الذي يرتبط بقصة مأساوية مع عشترون (عشتارت) إلهة الحب والجمال. والإله شان، إله الحقول، وهو إله مدينة بيسان (بيت شان).

(د) **إلهات الحب والولادة والشفاء والجبل:** وهي الإلهات عستارت (عشترتا)، التي هي شكل من أشكال الآلهة التي كانت في الجيل السابق «عشترون»، والإلهة نيكال إلهة القمر وهي إلهة سومرية، والإلهة قادش المقدسة أو المطهرة، والإلهة عجالين ملكة الجيل إلهة مدينة عجلون، والإلهة بارات إلهة مدينة بيروت، والإلهة سديد زوجة شدرافا إلهة الطب، والإلهات كوثرات إلهات الحمل والولادة.

وينتمي لهذا الجيل أيضًا آلهة وإلهات من نسل إيل مع أخوات عشيرة مثل التيتانات السبع من عشتارة، والآلهة الكوربيم السبعة، ومنهم موت من ريا (رحيا)، والإلهات السبع من بغليتيس (ديوني)، والإله وحيد (جنود) من الحورية أنويرت.

(هـ) البعول: أشكال وأبناء بعل

بعد انتصار بعل وسيادته التدريجية على مقدرات الكون بدلًا من إيل أصبحت مظاهر الكون كلها بعلية، وتحولت المدن والأماكن كلها لصالح بعل ... بل ارتد ذلك إلى الآلهة القديمة وأصبح شميم إله السماء هو بعل شميم أو بعل شماين، وهكذا أصبح كل شيء إما شكلًا من أشكال بعل أو ابنًا له.

لكننا استطعنا أن نرصد بعض الآلهة البعلية المذكورة في الألواح والأساطير وقمنا بتصنيفها إلى البعول التالية:

(أ) **بعول المدن والأماكن:** ومنها بعل بقاع (بعلبك)، بعل كرم اللوز (كرمل)، بعل دوليخ، الذي كان يسميه الرومان جوبيتر دوليخوس، بعل صفون وهو بعل جبل صفون، ونرى أنه الإله بعل الحقيقي، لأن مقر سكنه الدائم هو جبل صفون، حيث بنى بيته هناك، ويسمى هذا البعل أيضًا بعل الشمال.

وبعل صور، وبعل معدن، وبعل دمشق التي ربما كانت آلهة غير بعلية لكن استعمال كلمة بعل هنا بمعنى «رب»، مثل بعل دمشق الذي هو «رامان»، وهو إله آرامي وليس كنعانيًّا.

(ب) **بعول الصفات:** ومنها بعل أدير أو القدير، وبعل قرنيم، أي: ذو القرنين، وهي صفة أطلقت على بعل حمون القرطاجي، وبعل مرقد (الرقص)، وبعل بريت (المواثين)، وبعل بور (فاغر الفم) المؤابي، وبعل زيوت وهو إله الذباب والأمراض.

(جـ) **بعول الحضارة (الصناعة):** وأغلبها آلهة تابعة للإله بعل وتعمل بمثابة الخدم له: كوثر وحاسيس وهما إلها الفنون والحرف، وإلش مُنزل المطر وهو بخار بعل، وجفن أو جوبان وهو إله الكروم ورسول بعل، وأوجار وهو إله الأرض الزراعية رسول بعل ورب مدينة أوغاريت، والإله عليون الذي ارتبط اسمه بالحدادة، رغم أن عليون كان أحد أسماء إيل، وهو الإله الذي رفع إلى مستوى إله خالق، وارتبط بالإلهة بيروت عند فيلون الجبيلي.

(د) **بعول الكواكب:** مثل عجل بعل إله القمر، وملك بعل إله الشمس.

(هـ) **الابن الوريث لبعل وهو عايان أو عليان:** وهو الذي يذكر وكأنه بعل حيث تتحدث الأساطير عنه كما تتحدث عن بعل، وقد يذكر اسم بعل على هيئة بعل عليان، ولذلك علينا أن نعده إله الطقس الجديد، ابن بعل ووريثه.

(و) **بعول النار:** وهم الإله رشف، والإله حموت إله المباخر الذي صار يطلق عليه في شمال أفريقيا بعل حمون زوج تانيت، والإله بعل حارات إله الثأر.

(ز) **الثالوث الأول لبنات بعل:** وهن الإلهات اللائي ارتبطن بالزراعة البعلية (المطرية) ويمثلن مظاهرها، مثل: الإلهة «إناتا» إلهة المحاصيل، وتوصف بأنها الإلهة العذراء وربما كانت وريثة عناة (أنات)، وهي أساس اشتقاق اسم تانيت.

(ح) **الثالوث الثاني لبنات بعل:** وهن الإلهات اللائي ارتبطن بمظاهر الكون الكبرى، مثل: أرصاي إلهة الأرض، وبدراي إلهة البدر أو القمر، وطلاي إلهة الندى أو الطل الذي يسقط فجرًا على النباتات في الصيف.

(و) الثالوث الكنعاني الآرامي

ظل الإله بعل يلعب الدور الأساس في المثولوجيا؛ ولكنه تنشط أكثر عندما ارتبط بنظيره الآرامي «حدد» إله الطقس عند الآراميين، ولا شك أن هذا حصل مع أفول الكنعانيين في الشام وظهور الآراميين كقوة سياسية وحضارية جديدة.

ثم ظهر ثالوث جديد من الإله الابن «سميوس» الذي أنشطر إلى مظهرين؛ الأول: ذكري كان يمثله إله البحر «سيميون»، الذي لقب اختصارًا «سوما»، والثاني أنثوي الذي كانت تمثله إلهة الحمام «سميرنا» التي لقبت اختصارًا «سيما».

وكان الثالوث الأول الأرضية الروحية والفكرية التي ترسخت عليها المسيحية في ثالوثها المعروف (الآب، والابن، والروح القدس) حيث كانت الروح القدس هي الآن قبل ذلك.

وهكذا التقت نهاية الشجرة الكنعانية بنهاية الشجرة الآرامية واندمجتا، ثم أحاطت اندماجهما عناصر هيلنستية ورومانية ثم مسيحية.

إن شجرة الآلهة الكنعانية المكونة من الطبقات أو الأجيال الستة تعطينا انطباعًا قويًّا عن ذلك الإيقاع التطوري الذي مرت به الحياة الروحية الكنعانية من التوحيد إلى التفريد إلى التعدد، وهو إيقاع نابض بالحياة يعكس بيئة وحياة وطبيعة الكنعانيين أو الفينيقيين.

ظهر من اتصال الآلهة الكنعانية مع الآلهة الآرامية في جيل البعول وفي نهاية شجرتي الآلهة الكنعانية والآرامية صورة جديدة للإله بعل، تمثل اندماج إله الطقس الكنعاني بعل مع إله الطقس الآرامي «حدد» في صيغة بعل حدد الذي أصبح يلخص إله الطقس الشامي أو السوري بشكل عام.

كذلك اندمجت الإلهة الآرامية «عتر» مع الإلهة الكنعانية «عناة» في صورة واحدة نتج عنها ظهور الإلهة الجديدة «عتر عناة» التي أصبحت «عترغات» والتي تحولت نهائيًّا إلى «عترغاتس» أو «أترغاتس»، وهي الإلهة الشامية أو السورية الأم إلهة السمك والقمح.

ثم تكون ثالوث إلهي يتكون من الأب والأم والابن، وهم بعل حدد وأترغاتس وسيميوس، الذي أصبح الثالوث الآرامي الهيلنستي عندما تَطابق بعل حدد مع زوس، وأترغاتس مع هيرا، وسميوس مع ميركوري (هرمس) الرسول.

(٢) المبحث الثاني

الرموز الدينية الكنعانية
Typology

كانت قوة الإله تكمن في رموزه، ولذلك كانت الرموز الدينية إشارة إلى القوة الدينية.

(٢-١) رموز الفينيق

«النخلة والطير»: تشير رموز الفينيق (كما تحدثنا عنها في المبحث الأول) إلى الانبعاث من الموت، وكانت النخلة بثمرها وطلعها تشير إلى الفينيق أيضًا. لكن الفينيق تركز أكثر في الطير المجنح، الذي ينبعث من رماده، والذي كان يأخذ أحيانًا شكل امرأة مجنحة.

(٢-٢) رموز إيل

(أ) **الخوذة المتقرنة:** التي تشبه نبات الذرة رمزًا أساسيًّا للإله إيل، فقد كانت تتكون من كوزين يشبهان أكواز الذرة، ويبرز من مقدمتهما قرنان يدلان على الملوكية أو الألوهية، وكان قرص الشمس المجنح رمزًا آخر من رموز الإله إيل؛ حيث يظهر دائمًا على نقش صورته (ومن رموز إيل الأخرى القوس الحاد، والسهام الملتهبة).

(ب) **قرص الشمس المجنح:** حيث يظهر القرص الذي يحمل رمز الألوهية (الأشعة الثمانية) محمولًا بجناحين متميزين يختلفان عن الرمز الآشوري أو المصري المقابل.

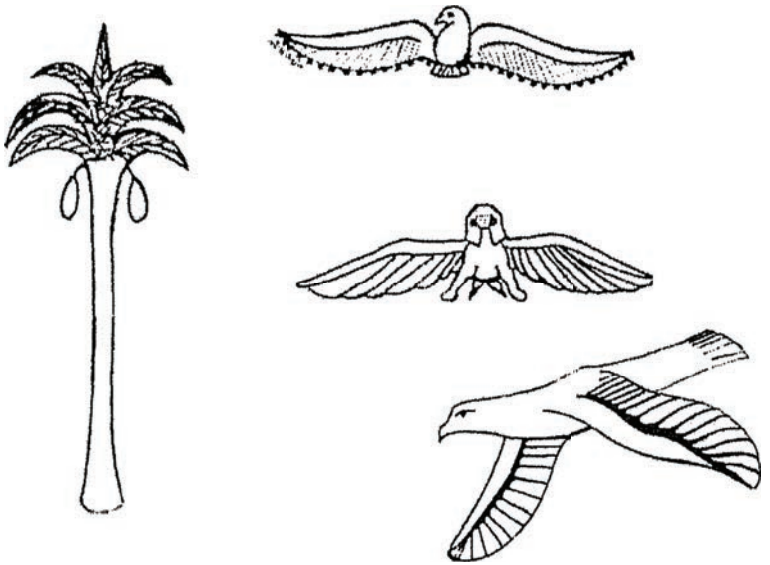

(أ) طائر الفينيق بشكليه الحيواني والإنساني (ب) نخلة الفينيق

شكل ٢-٤: رموز الفينيق، رسم: فاروق كاظم.

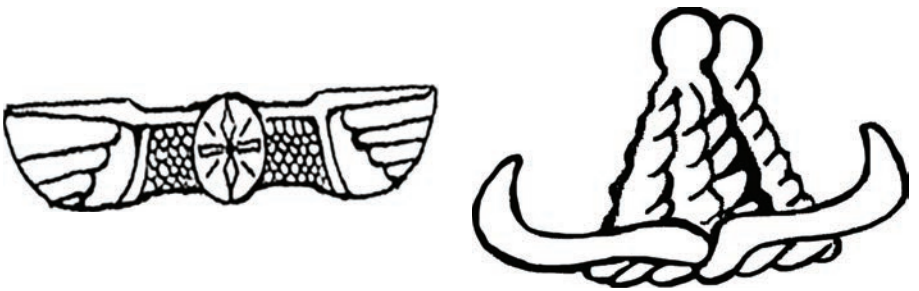

التاج المقرن لإيل قرص الشمس المجنَّح

(٢-٣) رموز عشيرة

كان غطاء رأس عشيرة الذي يشبه الخوذة المذيلة يرمز لها. وكان مزودًا بقرن ملفوف في مقدمته يدل على الألوهية (شكل ٢-٥أ).

وكذلك كانت أوراق نبات الذرة تشير إلى عناة؛ حيث تظهر في نقوشها وهي تطعم الجداء بهذه الأوراق، وهو ما يشير إلى كونها إلهة النباتات الخضراء والخصوبة (شكل ٢-٥ب).

(أ) الخوذة المذيلة لعشيرة (ب) أوراق نبات الذرة

شكل ٢-٥

(٢-٤) رموز بعل

(١) **الرمح المورق:** وهو الرمح الذي اعتاد بعل على الإمساك به في يده اليسرى، بينما كان يمسك هراوة في يده اليمنى. ونرى أن الرمح المورق رمز أصيل من رموز بعل فهو يوحي بالخصب والقوة بالحب والحرب معًا.

ونود الإشارة إلى أن رمز الصاعقة (شوكة الصاعقة المفردة أو المزدوجة) هو رمز آرامي ذو أصول سومرية وبابلية تسرب بعد الألف الثاني إلى بعل، وعندما أصبح بعل

يمسك به صرنا نطلق على الإله اسم «بعل حدد»، أي إن الصاعقة رمز «حدد» ولذلك نعتبر هذا الرمز آراميًّا وليس كنعانيًّا، ونتمسك بالرمح المورق والهراوة كرمزين كنعانيين أصيلين (شكل ٢-٦أ)

(٢) **الخوذة الكونية المقرنة:** اشتهرت الخوذة الكونية المخروطية الطويلة كرمز أصيل وقديم لبعل، ثم أصبحت الخوذة القصيرة المخروطية ذات القرون هي لباس الرأس الشائع للإله بعل (شكل ٢-٦ب).

(٣) **الهراوة:** وهي سلاح بعل التقليدي الذي كان يمسكه بعل بيده اليمنى، وكان يمسكه آلهة آخرون، مثل: الإله «موت» (شكل ٢-٦ج).

(أ) الرمح المورق (ب) الخوذة الكونية المقرَّنة (ج) الهراوة

شكل ٢-٦: رسم: فاروق كاظم.

(٢-٥) رموز عناة

(١) **الأسد:** وهو رمز قديم للألوهة المؤنثة كانت إنانا وعشتار تتخذه وجهًا من وجوه القوة والحرب لهما. وقد حافظ الأسد على ارتباطه بعناة باعتباره رمزًا للقوة والحرب. ولنلاحظ أن الأسد رمز شمسي، ولأن عناة كانت تبدو في أغلب أساطيرها قوية عنيفة كان الأسد رمزًا مهمًّا من رموزها، وتبدو عناة وهي تعتلي ظهر الأسد وتمسك بيديها نباتَي البردي واللوتس (شكل ٢-٧ / ١).

(١) الأسد (٢) البردي واللوتس (٣) الإلهة عناة مع رموزها: البردي، واللوتس، والأسد، التاج

شكل ٢-٧: رسم: فاروق كاظم.

(٢) **البردي واللوتس:** وهما رمزان تعودت عناة أن تمسك بهما. ونعتقد أن هذين الرمزين ارتبطا بعناة من خلال الاتصال مع التراث الروحي المصري (شكل ٢-٧/٢).

(٣) **المحراث.**

(٤) **قرن الفاكهة:** الذي أخذه الإغريق من الرومان ليكون أحد رموز إلهة الحظ «تايكي»، أو «فورتونا».

(٥) **الصاعقة.**

(٦) **الأجنحة.**

(٧) **السلاح.**

(٨) **طوق الشعر:** وكان طوق الشعر الموضح في هذا الشكل خاصًّا بعناة، وربما كان شكلًا من أشكال التيجان.

(٩) **التاج المقرن:** كان التاج المقرن يرمز إلى الألوهية والملوكية في آن واحد. وقد لبست عناة عدة أنواع من التيجان المقرنة. واعتادت أن تظهر بقرنين كبيرين على رأسها

طوق الشعر — التاج المقرَّن — التاج المقرَّن: عناة ذات القرنين، عناة ذات القرون الأربعة

شكل ٢-٨: رسم: فاروق كاظم.

تتوسطهما أيقونة مزخرفة جميلة. وربما أشار القرنان إلى وصف عناة بالبقرة وهو وصف اعتدنا على مصادفته.

وهناك التاج المقرن (ذو الأربعة قرون) والذي لو تمعنا فيه لوجدنا أنه عبارة عن جديين أو عنزين جانبيين يحيطان رأس عناة، فتظهر القرون الأربعة كدليل على الملوكية أيضًا. ويظهر على قمة رأسها عادة المخروط التقليدي الذي كان يظهر به بعل.

(١٠) **العانة:** كان مثلث الشعر الذي يوضع عادة تحت أشكال عناة يشير إلى الموضع الجنسي للإلهة الأنثى. وربما كانت كلمة «عانة» مشتقة من عناة.

(١١) **الجداء:** كان الجدي يرمز للإلهة عناة، وكانت تظهر في بعض رسوماتها وهي تحمل جديين بيديها.

(١٢) **الأفعى:** وكانت تظهر بطريقة مزدوجة تحيط جسد عناة، والأفعى رمز قديم للألوهية المؤنثة.

(٢-٦) رموز تانيت

(١) **اليد المرتفعة:** التي تمثل المباركة والحماية والدعاء.

الإلهة عناة وهي تظهر بمثلث شعر العانة الجدي الأفعى

شكل ٢-٩: رسم فاروق كاظم.

(٢) **الصولجان:** حيث يتألف من عصا متوَّجة بهلال يعلو قرصًا، وتخرج من القرص ذؤابتان جانبيتان، ثم يخرج شريطان جانبيان من العصا، ويرمز الشكل عمومًا إلى جسد امرأة، وعادة ما يُوضع إلى جانبها علامتان تقليديتان لتانيت.

(٣) **علامة تانيت:** هي الرمز التقليدي لتانيت في المشرق والمغرب، والحقيقة أن مرجع هذه العلامة قديم جدًّا قد يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ، حيث يمثل الأنثى التي تفتح ذراعيها ورجليها ترميزًا للجنس.

وقد تطورت هذه العلامة حتى أصبحت على شكل دائري على مستقيم، وتحت المستقيم مثلث. وربما يقترب هذا الشكل من علامة الحياة المصرية (عنخ). وعادة توضع في قرطاج علامة الهلال المقلوب والقرص فوقها.

نرى أن علامة تانيت كانت قد ظهرت في زمن مبكر جدًّا في شمال أفريقيا. تشير إلى ذلك الرسومُ البدائية على الصخور في ليبيا، والتي تعود إلى ما يقرب الألف الثامن والتاسع قبل الميلاد.

وقد اتخذت علامة تانيت شكلًا هندسيًّا صارمًا في قرطاج كان الحجر يُرصَّع أو ينحت على شكلها. إضافة إلى الميزة النجمية التي تكمن في الشكل الدائري له. وأحيانًا تجسد هذه العلامة تانيت وحمون معًا.

وكانت علامة تانيت تميل أحيانًا إلى تجسيدٍ أنثوي بظهور ثديين صغيرين على قاعدة المثلث.

(٤) **الصولجان:** الذي يتألف من قضيب من الغار أو الزيتون، ويحمل في أعلاه جناحين، وتلتف حوله حيتان أحيانًا.

(٥) **الرمان.**

(٦) **الغصون.**

(٧) **السنابل.**

(٨) **القرن والهلال.**

(٩) **النجمة المشعة (نجمة الزهرة وزخارفها).**

(١٠) **السمكة:** وتشير إلى علاقتها بالبحر وإلى صفة الأمومة فيها.

(١١) **الهلال والنجمة:** ولعل الكثير من النقوش البونية كانت تحمل رمز الإلهة تانيت على شكل كوكب الزهرة يتصل به هلال، ويشير هذا الرمز إلى أمرين أولهما العذرية حيث يرمز له من خلال القمر، وتطابقت فيه تاينت مع العذراء «كايلستس» في الحقبة الرومانية. والثاني يرمز إلى الخصوبة والأمومة التي عرفت بها «نوتريكس»، النجمة، أو يرمز لها برمانة أو حمامة أو سنبلة ... إلخ.

(١٢) **المعيَّن:** وهو شكل هندسي موضوع على حجرة مستطيلة داخل أخرى مستطيلة، وربما أشار هذا الشكل إلى شكل العضو الجنسي للمرأة (الإلهة).

(١٣) **القنينة والصنم:** يتكون من منضدة صغيرة عليها قنينة أو جرة، وفوق الجرة رمز تانيت الذي تعلوه دائرة تدل على الشمس أو القمر.

(١٤) **الأذن المصغية:** تعتبر الأذن المصغية رمزًا للإلهة تانيت، كما هي للإله حمون، دلالة على الصلاة والأدعية التي توجه لهما. وكانت تنقش على الحجر مفردة أو مزدوجة.

(٢-٧) رموز عشتارة

كانت عشتارة تمثل الحب الإباحي، ولذلك كان من أهم رموزها «العري»، فكانت تظهر عارية في صورها ونقوشها، وكان «الحصان» أحد رموزها المهمة لما يمثله من القوة والطيش ولأصولها الآسيوية؛ لكنها كانت تظهر أيضًا برموز مصرية معروفة، مثل التاج المصري المضاف له قرنان جانبيان، وعلامة الحياة المصرية (عنخ)، التي كانت تمسكها الإلهات المصريات.

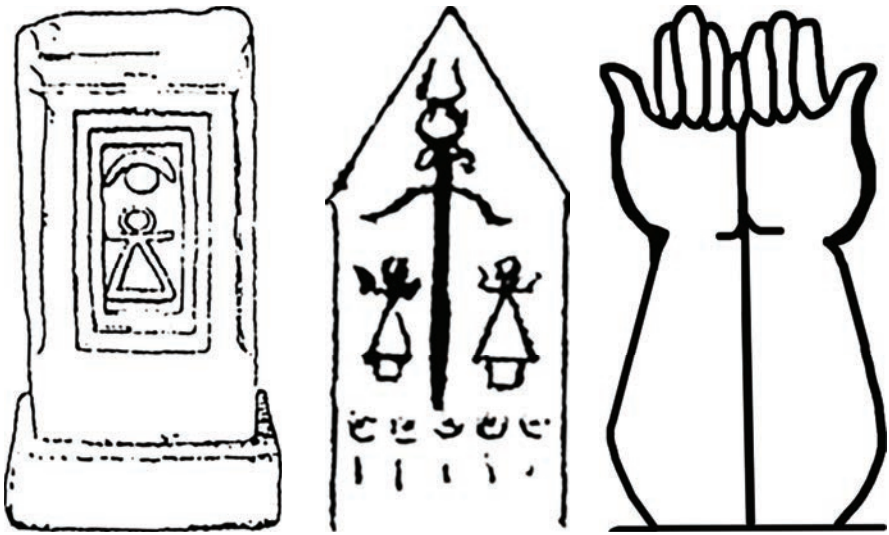

الذراعان المرتفعان صولجان تانيت علامة تانيت على شاهدة قبر في قرطاج

شكل ٢-١٠: رموز تانيت.

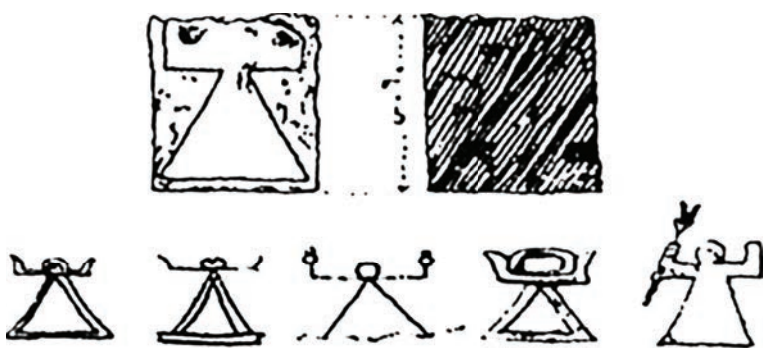

علامة تانيت في لبنان.

(٢-٨) الرموز الدينية الأخرى

(١) **زهرة اللوتس والورق القلبي:** رمز الزمن عند البونيين.
(٢) **تاج الورق:** رمز العالم السعيد للولد المضحى به عند البونيين.
(٣) **الخطوط المتقاطعة:** رمز العالم الأسفل.

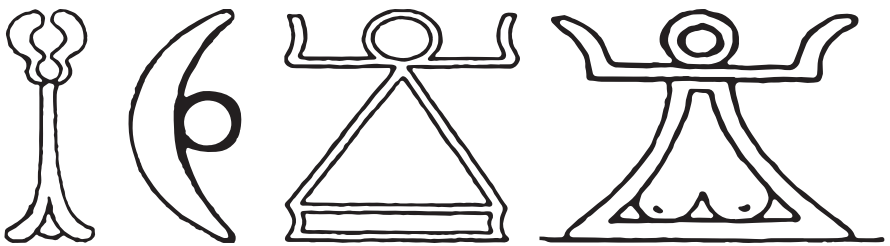

شكل ٢-١١: رموز تانيت.

وقد جمع لوح عثر عليه في شمال أفريقيا رموز تانيت المختلفة، ويبدو كأنه لوح نذري أو شاهدة جنائزية، فهو مستطيل الشكل يظهر في أعلاه نتوءان جانبيان ومثلث بينهما يحتوي على رمز الهلال والقرص لتانيت، والذي يبدو وكأنه عين وحاجب، وفي متن اللوح تندرج رموز تانيت من الأعلى: الخطوط المنكسرة المحيطة برمز المعين، وتحت هذا السطر النقشي كتابة يصعب قراءتها وتحتها ثلاثة رموز لتانيت هي: الكف المرفوعة، ورمز تانيت الرئيسي المزود بثديين، ورمز الصولجان، وفي السطر النقشي الأسفل يظهر نقش السمكة وهو أحد رموز تانيت المائية الأمومية.

(٣) المبحث الثالث: الأساطير الكنعانية

تشكل ألواح أوغاريت المصدر الأول للمثولوجيا الكنعانية التي يصح أن نسميها هنا «المثولوجيا الأوغاريتية»، وتعود هذه النصوص إلى حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ولذلك تعد النصوص الأقدم والأشد عراقة بين النصوص الكنعانية.

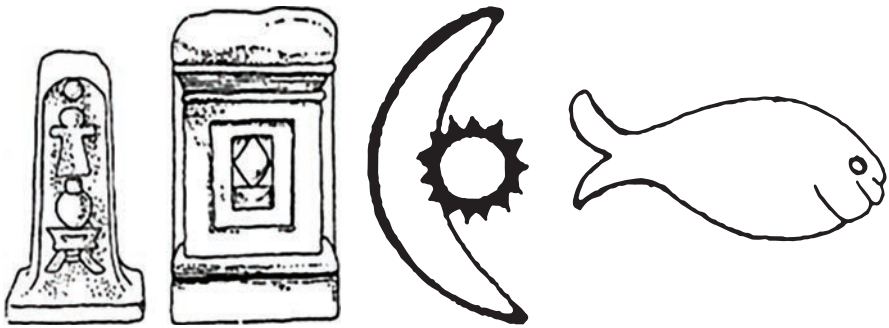

السمكة النجمة والهلال المعيّن والقنينة والصنم، عن: Garden 1962: 98

شكل ٢-١٢: رموز تانيت.

بالرغم من أن حفريات جبيل (ببلوس) زودتنا ببعض الإشارات والنصوص التي سنأخذها في نظر الاعتبار، إلا أن هذه النصوص يطغي عليها الطابع المصري، بسبب وقوع هذه المدينة مباشرة تحت النفوذ المصري منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

لكننا لن نهمل ما تحدث به سانخونتين وفيلون الجبيلي عن خلق الكون، وقصة الخليقة الكنعانية، وتأسيس مدينة صور؛ لأن ذلك سيكون معيننا الأول لمثل هذه الأساطير، رغم أننا سنقوم بمناقشتها وفق استنتاجاتنا الخاصة بالخليقة الكنعانية.

إن المثولوجيا الكنعانية تعتبر بحق مثولوجيا الصراع بين الخصب والجدب، فهي تدور في أغلب مواضيعها حول هذه الثيمة.

كان الكنعانيون يحرصون على وفرة المطر في الشتاء والندى في الصيف، وكان أكثر ما يخشونه هو الشتاء عديم المطر والصيف عديم الندى وهبوب الجراد، ولذلك ظهر ذلك في أساطيرهم؛ ولكن طبيعة كنعان كانت تمتاز بميزة خاصة وهي تعاقب سبع سنوات من المطر والندى والخصوبة بعد سبع سنوات من انحباس المطر والندى واليباب، وهكذا ظهر إيقاع الطبيعة هذا واضحًا في أساطيرهم.

وسنرى أن الأساطير الكنعانية تهمل كثيرًا الكواكب ولا تتعامل مع مظاهرها إلا بما ينفع الخصب والجدب؛ على عكس الأساطير الأمورية ذات الطابع الكواكبي والأساطير الآرامية المهتمة بجدل النور والظلام.

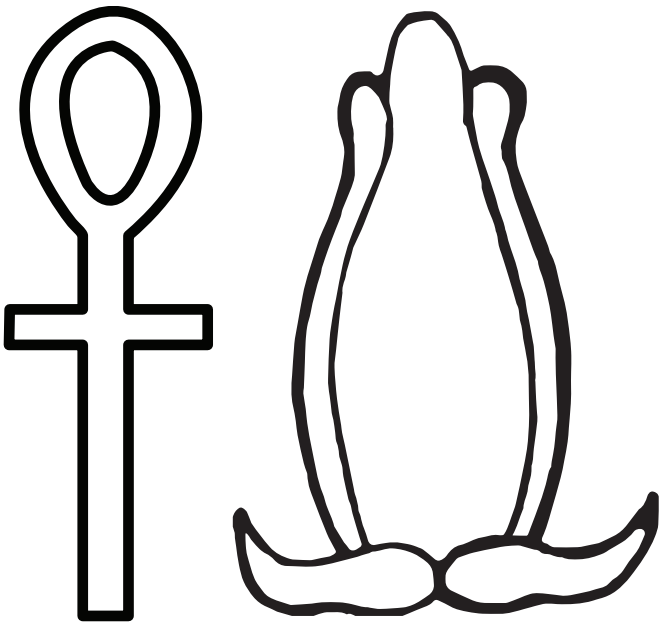

التاج المصري المقرَّن عنخ رمز الحياة المصري

شكل ٢-١٣: رموز عشتارة.

إن هذه الصفات شكلت بإجمالها أساطير بلاد الشام منذ القدم قياسًا لطبيعتها المتنوعة ومشارب أقوامها النازحين من طبيعة مختلفة وبيئات متفاوتة.

(٣-١) أساطير الخليقة

رغم عدم وجود أسطورة خليقة كنعانية خاصة في ألواح أوغاريت إلا أننا نرى أن هذه الأسطورة موجودة في القسم الأول المحذوف من أسطورة صراع بعل ويم، وسنثبت ذلك.

لكننا قبل الدخول في هذا الأمر لا بد من القول: إن الرواية الأسطورية التي وردت على لسان سانخونتين ثم فيلون الجبيلي حول بداية الخليقة يمكن أن تكون مرشدًا لنا في استنتاج المحذوف من أسطورة صراع بعل ويم والخاص بالخليقة الكنعانية، رغم أن هذه الرواية الأسطورية تحمل مؤثرات هيلنستية واضحة.

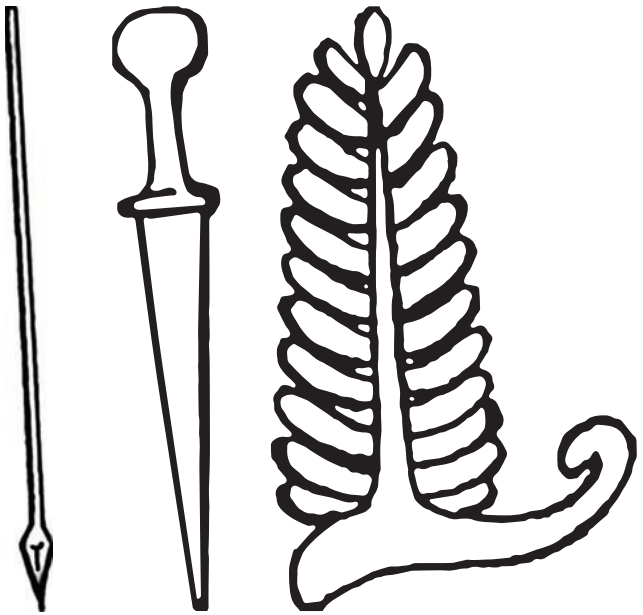

شكل ٢-١٤: رموز موت.

(أ) ما هو المحذوف عمدًا من أسطورة بعل ويم؟

كنا قد توصلنا في المبحث السابق إلى وضع نسب الآلهة القديمة الكنعانية، تلك التي بدأت الخليقة، وقد وضعنا نظرية تقول إن الإله «يم» كان الإلهة الأم الكنعانية الأولى التي أطيح بها من قبل الإله بعل، فتحولت تدريجيًّا إلى إله ذكر هامشي لا قيمة له.

ونرى أن أسطورة صراع «بعل ويم» هي الأسطورة التي يمكن أن تمنحنا أسطورة الخليقة الكنعانية، ولكن كيف يحصل ذلك وهذه الأسطورة تبدأ بداية أخرى لا علاقة لها بما نريد؟

إن مفتاح الحل هو في قناعتنا الراسخة بأن هذه الأسطورة التي تبدأ بصراع بعل ويم تشبه أسطورة صراع مردوخ وتيامت (خصوصًا أن مردوخ يطلق عليه اسم بيل أو بعل)، ولذلك نرى أن هذه الأسطورة ما هي إلا أسطورة الخليقة الكنعانية وقد أعيدت

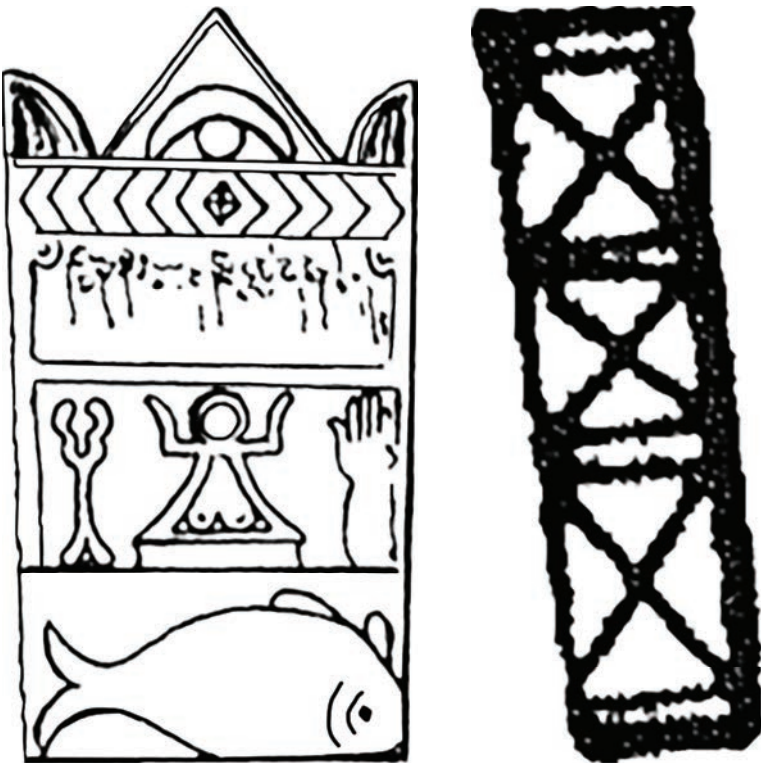

الخطوط المتقاطعة رمز العالم الأسفل لوحة نقشت عليها رموز تانيت، رسم فاروق كاظم

شكل ٢-١٥: رموز دينية كنعانية.

صياغتها، وأن إعادة الصياغة هذه تمت من خلال حذف الجزء الأول الخاص بالخليقة الكنعانية؛ حيث خلق الكون والآلهة ... حتى وصولنا إلى بداية الصراع بين (بعل/مردوخ، ويم/تيامت).

كما إن إعادة الصياغة شملت أيضًا تغيير شخصية «يم» الذي تحول إلى ذكر مناوئ للإله بعل، في حين أنه إلهة أنثى هي الإلهة الأم الكنعانية الأولى وهي «يموه».

وهكذا يكون من الطبيعي تتبع سياقات أسطورة الخليقة البابلية في أطرها العامة لاستنتاج كيفية خلق الكون عند الكنعانيين.

وسيشمل عملنا هذا إعادة تركيب أسطورة خلق الكون «كوسموغونيا cosmogoney»، وأسطورة خلق الآلهة «ثيوغونيا theogoney»، وأسطورة خلق الإنسان «أنثروبوغونيا anthropogoney».

(أ) الكوزموغونيا والثيوغونيا الكنعانية من الهيولي إلى السماء والأرض

(١) بدأت الخليقة من ظهور المياه الهيولية الأولى (يمو)، وهي مياه البحر الأول الساكن الذي يبدو أنه تحرك إما بفعل ازدواج عنصري الأنوثة والذكورة فيه (يمو ويم)، أو أن ريحًا هبت على هذه المياه من داخلها.

ولكي نثبت وجود هذه الرياح أو الروح أو الهواء نقول: إن الإلهة الأم الكنعانية ترتبط بشكل حميم مع الإلهة الأم الأمورية والآرامية وهي الريح (إم)، وهو ما يفسر الأصل الواحد للكنعانيين والأموريين.

وهكذا يمكن أن تكون الإلهة الأم الكبرى للأموريين والكنعانيين هي «م» التي تكون «إم» الريح عند الأموريين و«يم» عند الكنعانيين، وهكذا اجتمعت منذ البداية قوتا الهواء والماء في الإلهة الأم الكبرى.

لقد تحدثنا بتوسع عن الإلهة «إم» في كتابينا عن الدين الأموري والآرامي، ولاستكمال صورة الخليقة القديمة نفضل العودة إليهما.

إن الهواء والماء هما أهم عناصر الآلهة الكنعانية اللاحقة؛ لأنهما يجسدان المطر الذي يتجلى أولًا في «إيل» ثم ابنه «بعل»، ولذلك لا بد أن يظهر منذ بداية أسطورة الخليقة الكنعانية ما يشير لهما.

وإذا عدنا إلى أسطورة «صورة البهية» الواردة على لسان فيلون الجبيلي فسنرى أن الخليقة الكنعانية تبدأ من تصور وجود هواء يتعانق مع فضاء، ثم يبدأ هذا الهواء بالتكاثف، فينتج عنه عاملان هما الريح والشهوة.

ومن تزاوج الريح والشهوة يظهر «موت» على شكل بيضة، ثم تلقح الريح البيضة وتبعث فيها الحياة، ثم تفقس البيضة وتخرج منها الكواكب والنجوم والشمس والقمر، وبفعل ظهور النور تنفصل المياه واليابسة عن السماء.

ولنلاحظ أن هذه الموتيفة الأسطورية الكونية متأثرة بالخليقة المصرية؛ حيث تذكر بعض أساطير الخليقة المصرية أن الإله «بتاح» خلق الكون على شكل بيضة ثم فقست فخرج منها الكون، وهي كذلك متأثرة بأسطورة الخليقة الإغريقية التي ترى أنه لم

يكن يوجد شيء سوى «خاؤوس» وهو العنصر الذكري الذي يمثل الخواء في الأسفل وهو يحتضن «نوكوس» العنصر الأنثوي الذي يمثل الظلمة في الأعلى، وأنهما عن طريق الحب (أيروس) أنتجا «أثير»، وهو قبة الفضاء و«تيرا» أي: الأرض الأولى. وهناك رواية أخرى تقول إنهما عن طريق الرغبة (باثوس) أنتجا «أورانوس» وهو إله السماء، و«حيا» وهي إلهة الأرض (انظر: غريمال، ١٩٨٢م، ٢٣).

ويتضح من هذه الروايات الهيلنستية خلط التراث الكنعاني بالتراثين المصري والإغريقي؛ لذلك تُفضل العودة إلى الرواية التي افترضناها حول «يم» و«إم» عنصري «الماء» و«الهواء»، حيث حرك الهواء الماء، لأنه عنصر الروح والريح. ونتج عن ذلك كثافة في الماء كونت فيما بعد الكون البدائي.

وإذا كنا نفتقد ظهور صورة أو رسم لهذه الآلهة الهيولية عند الكنعانيين فإننا نجدها عند السومريين، فقد استنتجنا أن الإلهة «إم دوكد» هي الإلهة الأم القديمة للريح، وهي التي تعبر عن الإلهة «إم» التي كانت موجودة في بدء الخليقة مع الإلهة «يم» والتي تعبر عنها المنحوتات والرسوم السومرية. كما في (الشكل ٢-١٦).

(٢) بعد أن ظهر الكون الأول الذي نرى أن اسمه يمكن أن يكون «ير-مر» أو «مر-ير»، وهو الاسم القديم الصحيح الذي يعني «السماء-الأرض»، ولكن هذا الاسم تحول (وفق اللغة الكنعانية وانفصالها عن اللغات التي كانت من ضمنها) إلى اسم مرادف لها هو «ثم-تم» أو «شم-تم» حيث «شم» تعني السماء و«تم» تعني الأرض.

ويرد اسم «ثمتم Thmtm» ليدل على المحيط المزدوج السماوي والأرضي في الكتابات الأوغاريتية القديمة. (انظر: شيفمان، ١٩٩٥م، ٧٥)، ويشبه هذا الكون الأول الكنعاني ما يرد عند السومريين «آن-كي» الذي يخرج من المياه الأولى «نمو»، كذلك يشبه ما يرد عن البابليين «لخمو ولخامو» و«انشار وكيشار» وهما الطمي الأول والأفق الأول لذلك الكون البدائي منقسمًا إلى ذكر وأنثى في حالة اتصال وانفصال.

(٣) ينفصل الكون البدائي «شمتم» إلى عنصرين؛ الأول: سماوي أو يمثل قبة السماء (شم)، والثاني أرضي يمثل هاوية أو محيط الأرض (تم أو دم)، ونرى في الاسمين ما يقترب من السماء (شماء) والأرض (أدمة).

(٤) يظهر من «شم» الإله «شميم» أو «شاميما» وهو إله السماء الذي عبرت عنه المثولوجيا الكنعانية باسم «بعل شماين» أو «بعل شمين» إله السماء، واعتبرته أقدم الآلهة، ولكننا حفاظًا على السياق نفضل تسميته «شميم».

ويظهر من «تم» الإلهة «أديم» أو «أدمة» إلهة الأرض التي عبرت عنها المثولوجيا الكنعانية باسم «أرسو»، أي الأرض وهي إلهة قديمة جدًّا تعبر عن الأرض الأم الأولى.

ويبدو أن الإله شميم كان منتشرًا بشكل واسع جدًّا في فينيقيا كلها، وفي قبرص وسردينيا وتدمر، «ويذكر إسحق الأنطاكي من القرن الخامس الميلادي أن عبادة بعل شميم كانت منتشرة في إديسا، ويعني الاسم سيد السماء، ولذا من المفترض أن يكون واحدًا من الآلهة السماوية، وكان فيلون الجبيلي يضع اسمه إلى جانب اسم «زيوس» على رأس قائمة الآلهة، وليس لدينا ما يثبت أنه كان إله طقس أو إله شمس، وعلى كل حال لم تزل شخصيته مجهولة ومجال عمله غير معروف؛ ولكن نفترض أن يكون مساويًّا لإله السماء (آنو/أورانوس)» (أزدارد، ١٩٨٧م، ٢٠٣).

أما الإلهة «أرسو» فيظهر اسمها كابنة للإله بعل بصيغة «أرصو» أو «أرصاي» مع أختيها «بدراي = البدر» و«طلاي = الندى» ويظهر اسمها مرتبطًا بلقبها «بت يعبود دار» الذي يعني «بنت العالم الواسع» (انظر: المرجع السابق، ١٧٠).

وهذا إلحاق متأخر للإلهة أرسو ببعل الذي سيستولي على كل المقاليد.

(٥) تذكر الأساطير الفينيقية أن هناك أخًا للإله «شميم» هو الإله «عوص» أو «عوش» أو «أوسوس»، وهو الإله الذي بنى مدينة «صور».

يذكر المؤرخ الفينيقي «سانخونتين» قصة خلق الإنسان، التي سنذكرها في موقعها، ثم يصل إلى أن جيلًا من العمالقة (وهم أنصاف آلهة وأنصاف بشر) ظهر من اتحاد النور مع النار وتكون اللهب. أي إن هذا اللهب هو الذي أخرج ستة من العماليق اخترع كل منهم شيئًا ينفع العالم، أي كل ما تحتاجه البشرية لرفاهيتها، وهؤلاء العماليق هم (انظر: بنت بطوطة، د.ت، ٢٠١–٢٠٣).

(١) **العملاق الأول:** اخترع الصيد والقنص.
(٢) **العملاق الثاني:** اخترع فن تشغيل المعادن.
(٣) **العملاق الثالث:** اخترع الزراعة.
(٤) **العملاق الرابع:** اخترع صناعة الطوب.
(٥) **العملاق الخامس:** أقام العدل.
(٦) **العملاق السادس:** اخترع فن الملاحة، وكان اسمه أوسوس (Ousoos)، وهو الذي بدأ بمغامرة السفر في البحار فوق جذع شجرة حيث قادته إلى شواطئ سورية،

وعلى البحر أقام عمودين أحدهما تكريمًا للريح والثاني تكريمًا للنار، وبنى مدينة صور ووضع نظام العبادة.

إن «أوسوس» أو «أوس» هذا هو ذاته الإله «عوص» الذي تصفه الأساطير الشعبية على أنه كان صيَّادًا في بداية حياته وعاديًّا؛ لكنه اهتدى إلى لبس الثياب من جلود الحيوانات التي كان يصطادها، وأنه بنى هيكلين لإلهتي النار والريح.

وتخلط هذه الأساطير بين كونه إنسانًا أو إلهًا؛ لكنها تضعه مع أخيه «شميم» في مستوى واحد، ويبدو أن عداوةً أو تنازعًا ما قد جرى بين الأخوين (انظر: عبد الحكيم، ١٩٨٢م، ٤٩٨).

فإذا أردنا تحليل ذلك وفق منظور علمي فإننا نقول: إن الإله «عوص» هو نفسه ذلك الإله الذي ظل وما زال غامضًا في المثولوجيا الفينيقية والبربرية والليبية، وهو الإله «أش» وهو إله النار، ولكي ندلل على ذلك نقول: إنه خرج من «النور والنار»، أي من «اللهب»، ثم إنه أقام هيكلين أو معبدين للنار والريح وهو ما يجعل النار دائمة الاستعار، ثم إن هناك تقاربًا بين «أوس» و«أش»؛ ولذلك نرى أن هذا الإله إنما يمثل كتلة اللهب السماوية التي كانت في السماء «شاميم». أما عن الملاحة فنرى أنها وظيفة أخرى له، لها علاقة بجذع الشجرة الذي يمكن أن يشتعل ليلًا ليضيء مسرى الماء.

شكل ٢-١٦: إمدوجد (إلهة الريح القاسية) على شكل لبؤة بجناحي نسرٍ تقف على غزالين، الألف الثالث قبل الميلاد في سومر.

وفي بحثنا عمَّا آل إليه الإله «عوص» وجدنا، صدفةً، أن هذا الإله قد تجلى بشكل واضح في آخر سلم الآلهة الكنعانية بصيغة الإله «حاسس» الذي يرد دائمًا برفقة الإله «كوثر»، وهما إلها الصناعة والأعمال الحضارية، والإله «حاسس» هو ذاته الإله «أوسوس» أو «عوس»، واسمه يعني بالأكدية «الذكي» أو الحساس (اسمه موجود في اسم اتراحاسس البابلي، منقذ الناس من الطوفان). ويذكر فيلون الجبيلي أن «أوسوس» أول من استخدم جلود الحيوانات كلباس للجسم، وأول من استخدم جذع شجرة كقارب، وهو ما أتينا على ذكره.

ونرى أن الإلهين «كوثر» و«حاسس» كانا إلهين قديمين جدًّا أُنزلا أيضًا من مكانهما القديم إلى إلهين صانعين عند بعل (لترسيخ قوة بعل).

وأن في اقترابهما من النار ما يشير إلى أنهما أصل إله النار الكنعاني «ملكارت» الذي سنراه كابن للإله «عوص».

وهكذا نتج عند هذا المستوى ثلاث قوى هي «السماء، الأرض، النار».

(ب) خلق آلهة العناصر الأربعة

في هذا المستوى ستفصح السماء والنار والأرض عن عناصرها العميقة المكونة لها؛ ولذلك نرى ظهور آلهة عديدة يمكننا في نهاية الأمر القول: إنها تمثل عناصر الطبيعة الأربعة (الماء، الهواء، التراب، النار).

(١) تزاوجت السماء والأرض بصيغة الإلهين «شميم» و«أديم» وظهر منهما مجموعتان أساسيتان من الآلهة الذكور والإناث.

المجموعة الأولى من الذكور تشير كلها إلى قوى الماء الممزوجة بقوى الهواء وهي لذلك تحوي آلهة الطقس والمطر والمياه، وهذه الآلهة هي:

داجون: وهو إله الطقس الذي ظهر في المدونات الأكدية والسومرية، وكان أحد أهم الآلهة الرئيسية عند الأموريين.

أطلس: وهو الإله «عتل» عند الكنعانيين حيث يروى عنه أنه الإله الذي اخترع الملاحة ومارسها وعلمها للإنسان.

بتيل: وهو «بيت إيل» ويسميه فيلون الجبيلي «بيتلوس»، وقال بأن الأنصاب الحية تمثله، وهي أنصاب الحجر التي لها قوة سحرية، كما أن بيت إيل الذي كان على المياه عند

ملتقى النهرين (لا نعرف أي نهرين) يمكن أن تشير إلى طبيعته المائية، ويقال إن العبريين قد عبدوا هذا الإله إضافة إلى الكنعانيين (انظر: عاموس، ٦٠٤: ٥؛ سفر التكوين، ٣١: ٣، و٣٥: ٧)، وربما دل «بتيل» على بلاد لبنان كلها.

إيل: وهو أعظم الآلهة الذكور من أبناء السماء والأرض، ويعتبر الإله الأب لكل الآلهة، وسنتناوله بالتفصيل عند الحديث عن أساطيره.

سيتون: وهو إله الصيد البحري والبري، ومن اسمه جاء الإله «صيد» وبوزيدون، ويمكن أن يكون هو الإله المؤسس لمدينة صيدا.

عاي: وهو الإله أيا (إله الماء عند البابليين) وعلى اسمه سميت مدينة «عاي».

بعلتيس: وهي الإلهة الأنثى التي تلقب بـ «ديوفه» التي ربما كانت الوجه الأنثوي للإله «أدون» أو «دونسيوس»، أما اسمها «بعلتيس» فيشير إلى ارتباطها باسم الإله بعل الذي يحمل ذات الصفات التهتكية الداعرة لديونسيوس وأدون، وقد تكون هي الإلهة القديمة بعلات (Baalat) ذاتها التي ذكرتها أختام جبيل في الألف الثالث قبل الميلاد على أنها «سيدة جبيل»، والتي تصفف شعرها على الطريقة المصرية، وتحمل قرصًا بين قرنين على رأسها مما يجعلها مشابهة للإلهة المصرية حاتحور (انظر: Larousse, 1995, 73)، ولهذه الإلهة سبع بنات من الإله إيل.

ريا: تحتل هذه الإلهة الكنعانية مكانة مهمة جدًّا في البانثيون الإغريقي، فهي زوجة الإله «كونوس»، الذي يقابل إيل، ومعنى اسمها في اللغة الكنعانية «الأرض»، فهي إلهة الأرض، وفي العربية تعني المطر الساقط على الأرض. وهذه الإلهة تمثيل جديد لإلهة الأرض في جيل الإله إيل، فهي سليلة أمها (أديم، أدمة، أرسو) والتي امتلكت نفس صفاتها، وهي عند الإغريق أيضًا سليلة الإلهة الأم «جيا»، وقد جعل الإغريق البدائيون من جيا الأم العظمى وخالقة لجميع الكائنات، هكذا تأكدت أفضلية ريا من حقيقة كونها قد جُعلت أمًّا لجميع آلهة الأولمب العظام. وبالرغم من أصل ريا الأجنبي إلا أنها سرعان ما اكتسبت ملامح إغريقية خالصة، وادعى العديد من الأقاليم اليونانية شرف كونها كانت مسرحًا لسلسلة حوادث إلهية لأسطورتها ... وتبدلت شخصية ريا الهيلينية بتأثير «سيبيل» الإلهة الإيجية العظيمة التي أدخلت عبادتها قديمًا إلى اليونان، إلا أن كلًّا من الإلهتين دُمجتا معًا في النهاية (الخوري، ١٩٩٠م، ج٥٠، ٢).

ويبدو أن الإلهة ريا كانت أحد احتمالين؛ فإما أنها كانت الإلهة الأم الجديدة زوجة إيل، وإما أنها كانت إلهة هامشية قبل أو بعد أن رحلت إلى البانثيون الإغريقي. وفي كلا

الحالتين حلت الإلهة عشيرة القادمة من البانثيون الأكدي أو البابلي محل ريا، وتحولت عشتار الأكدية إلى عشيرة وأضيفت لها صفات الأمومة بعد أن تهذبت فيها صفات العذراء المغامرة والمحاربة.

ويرى فيلون الجبيلي: أن الإله إيل اتصل جنسيًّا بالإلهة ريا وأنجب منها سبعة أبناء منهم الإله «موت» وهو إله الأرض السفلى (العالم الأسفل)، ويطلق عليه فيلون اسم ثاناتوس Thanatos أو بلوتون Plotonn، لأن «موت» الكنعاني سيقابل إله الجحيم اليوناني والروماني.

عشتارة: ورد ذكرها بعدة أسماء وهي (عشتارت، عشتارة، عشتارتة، عشترة، عشتورة)، ويجمع الاسم بلفظة عشتروت، ويعني هذا الاسم بصورة عامة الإلهات «إشتارتي»، الذي يقابل اسم الجمع المذكر «إيلاتي»، ويعني آلهة. والأهم في كل هذا هو التفريق بين هذه الإلهة والإلهة «عشيرة» زوجة إيل.

ويبدو أن هذه الإلهة امتصت صفات العذرية والغنج والجمال والحب من «عشيرة» التي أصبحت إلهة أمًّا فقط. وبلغة أخرى يبدو أن عشتار الأكدية أو البابلية عندما دخلت إلى البانثيون الكنعاني انشطرت إلى إلهتين؛ الأولى هي عشتارت إله الحب والجمال، والثانية هي عشيرة الإلهة الأم زوجة إيل.

وقد حملت هذه الإلهة عدة ألقاب منها «سيدة المعارك، وإلهة الأسيويين» حيث تظهر في إحدى المسلات المصرية كمقاتلة عادية فوق قوس مشدود العنان إلى جسدها وهي ترمي سهامها.

أما لقبها الآخر «ذات القرنين»، حيث ظهرت وهي تلبس رأسًا على شكل ثور يرمز إلى السلطة. أو تاجًا مخروطي الشكل تحيط به من الأعلى ريشتان يبرز تحتهما قرنان، وتحمل بيدها اليسرى عصا طويلة وبيدها اليمنى صليب الحياة المصري (عنخ)، وتلبس ثوبًا طويلًا شفافًا تظهر من خلاله تقاطيع جسدها، وهو ما عثر عليه كنصب كلسي في بيت شان «بيسان» في فلسطين، وكان الحصان حيوانها المفضل وربما رمزها. وتلقب أيضًا بـ «سيدة المشاعل»، حيث عبرت بهذا اللقب في «أفقا» قرب بحيرة «يمولة» في لبنان، وقد هربت هذه الإلهة بعد أن لاحقها الثعبان تيفون. وكانت عبادتها هناك مرتبطة بالنار، حيث كانت تُحمل المشاعل وتُشعل النيران على شكل كرات فوق سطوح المعابد، ويروي زوسيموس أنها كانت تلقي كرات ضخمة من النيران من أعلى جبال لبنان باتجاه نهر أدويس إيذانًا ببدء الاحتفال المقدس (انظر: أذزارد، ١٩٨٧م، ٢٢٥).

أما اللقب الأخير لها فهو «ضجيعة إيل»، حيث ضاجع إيل إلهتين ظهرتا على شكل مشاعل، وهما «عشتارة» و«عناة»، وأنه بعد مضاجعته لعشتارة ولدت له سبع بنات (تيتانيدس أو أرتميدس) وصبيين هما «باثوس» و«إروس»، وأحيانًا تندمج الإلهة عشتارة مع عشتارت من جيل بعل.

عشيرة: وهي الإلهة الكنعانية الأم زوجة إيل، والتي صارت أمًّا لكل الآلهة الكنعانية من إيل؛ حيث استمر نسلها إلى الأجيال القادمة، وقد حملت ألقابًا عدة، منها: «خالقة الآلهة» و«الأم» و«إيله، إيلاتو، إيلات» و«سيدة العموديين» و«ربة اليم» و«سمكة البحر» و«السارية»، وكان الحمار حيوانها المفضل. وقد كان لها مظاهر عدة، أو صور عند العبريين والعرب والأنباط وفي بلاد الشام ووادي الرافدين (انظر: الماجدي، ١٩٩٩م، أ: ٥٣–٥٦).

نرى أن الإلهة عشيرة ظهرت من إضفاء صفات الأمومة على الإلهة الأكدية عشتار، وربما اختلطت مع إلهتين: واحدة من جيلها هي عشتارة، والأخرى من الجيل اللاحق هي عشتارت. كذلك يجب فرزها عن ولدها أو ولد «بعل» عشتر (عشتار). ولا بد من تذكر أن الإلهة الآرامية «عتر» ظهرت من عشتار أيضًا، وكونت أساس اسم عترغاتس، التي ننفي عنها كونها ظهرت من دمج «عناة + عشتارة»؛ بل هي الإلهة الآرامية عتر اندمجت فيها صفات عناة (شكل ٢-١٩، ٢-٢٠) ويمكننا جمع كل هذه الاستنتاجات في جدول واحد مبسط كما يلي:

أنوبرت: وهي حورية مائية تزوجها الإله إيل وأنجب منها الإله «وحيد» أو «جنود» وهو الإله الذي ضحى به لوالده الإله شميم إله السماء عندما أصاب الوباء والجرب الأرض.

وفي تأملنا لاسم أنوبرت وجدنا أن لهذا الاسم علاقة بالإلهة «بيروت» أو «برت» التي ستظهر في جيل بعل. والإلهة بيروت مشتق اسمُها من الكلمة الكنعانية «برت»، أي: «الروح»، فهي حورية مائية تمثل إحدى تجسدات الروح الكلي المائي عند الكنعانيين.

وقد ذهبنا لأبعد من ذلك فنحن نرى أن هناك علاقة بين اسم برت أو بيروت الكنعانية والكلمة المصرية بيريت Peret تعني «بذور»، وربما كان لها علاقة بكلمة «بر» التي تعني «بيت»، وفي كلا الحالين فإننا نرى أن البذور تدل على صفة الخصب، وأن البيت تدل على المكان والمستقر الأرضي، وهذا يعني أن هناك إيقاعًا خفيًّا بين الاسمين الكنعاني والمصري.

وقد حمل الكنعانيون الإلهة بيروت أو بارات عبر البحار وعبر مضيق جبل طارق، وأطلقوا اسمها على الجزر البريطانية التي ما زالت تحمل هذا الاسم «باريتانيا».

وتظهر بارات كإلهة مصرية تحمل صليب الحياة بيد وعصا الملوكية بيد أخرى، وهي من الفترة المصرية الفرعونية، وهناك نقش نقدي مصري هيلنستي يطابقها مع تاريكي؛ حيث تظهر حاملة قرنَ الخصب، وهناك نقش آخر من العصر القبطي المسيحي يظهرها حاملة الصليبَ تحيط بها كتابة لاتينية (الشكل ٢-٢١).

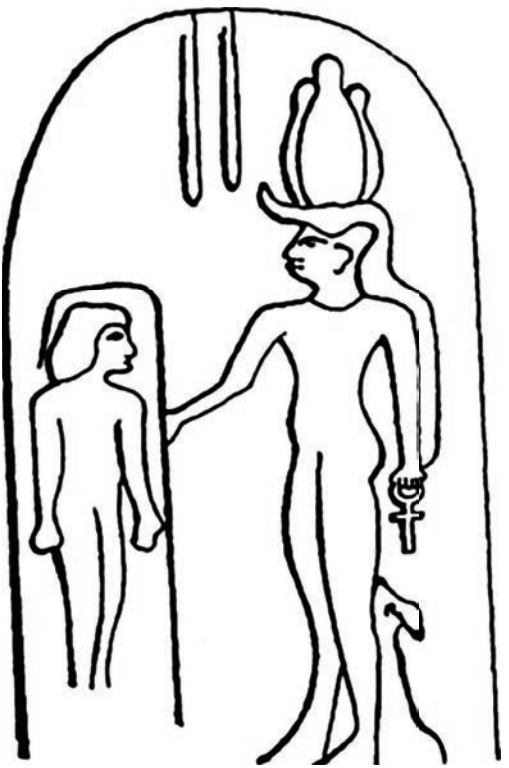

شكل ٢-١٧: الإلهة عشتارة عارية بطراز مصري الرسم (التاج المقرَّن، ورمز الحياة «عنخ» في يدها) من رأس شمرا، تخطيط فاروق كاظم.

هكذا يظهر لنا جليًّا أن جيل إيل الذي يمكن أن نطلق عليه اسم «الإيليون» هو جيل يتضمن بشكل أساسي عنصري «الماء والتراب» من خلال آلهته التي تعرفنا عليها.

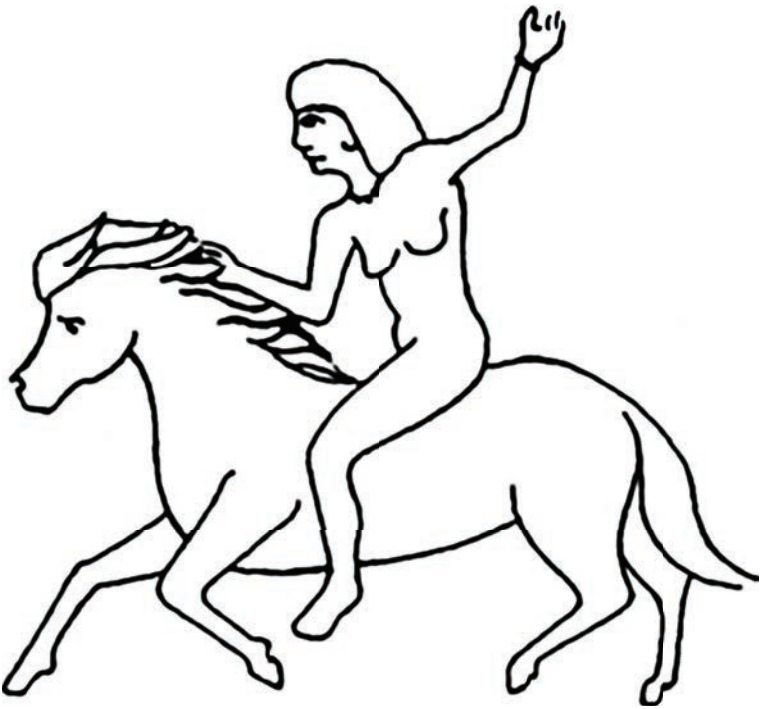

شكل ٢-١٨: الإلهة عشتارة عارية فوق حصان تلوِّح بسلاحٍ في يدها، تخطيط: فاروق كاظم.

أما عنصرا «النار والهواء» فيرتبطان بالأصل السابق الذي نشأ في جيل الآلهة السابقة «السماء والأرض»؛ حيث تخبرنا الأساطير التي ترد تواترًا عن سانخونتين أن الإله «عوص» أو «أوسوس» أنجب ولدين الأول هو «دامور» أي النخيل أو التمر، ثم أعقبه هرقل أو هرقل (أول من اخترع الأرجوان وقلد به عشترون) (انظر: عبد الحكيم، ١٩٨٢م، ٤٦٨–٤٩٩).

وتمنحنا هذه الإشارة الفرصة لتأمل طبيعة هذين الإلهين فالإله «دامور» هو الإله «ذ.مر» الذي أطلق عليه «أمورو» إله الأموريين. والحقيقة إن مثل هذا التخريج حسن الهدف وسيئ النية؛ فهو يريد القول إن الأموريين يعبدون إلهًا ضمن البانثيون الكنعاني، وبذلك يجعلهم فرعًا من الكنعانيين، وقد أوضحنا الأصل الواحد لهما من خلال الإلهتين «يم، وإم».

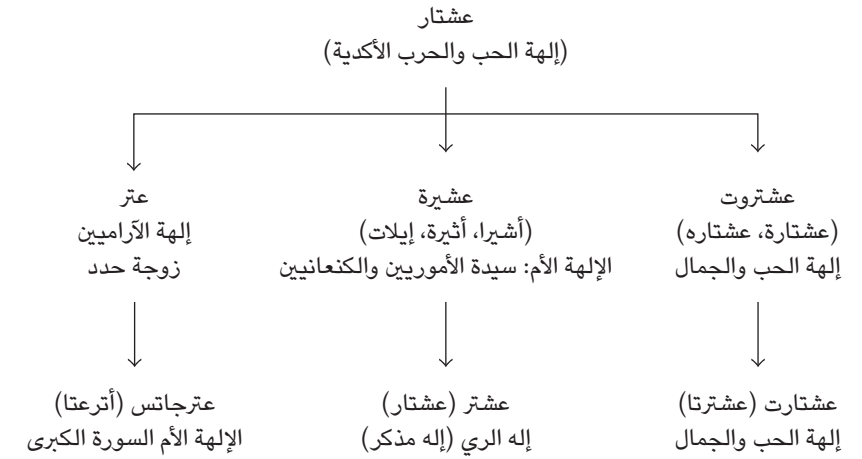

جدول (٢): اشتقاق العشتارية الكنعانية.

يرد اسم الإله دامور أيضًا بصيغته الإغريقية «دماروس»، حيث تقول الأسطورة الهيلنستية: إن الإله أطيختون (وهو مقابل شميم الكنعاني) كانت له محظيات كثيرات يغيظ بهن زوجته «أدمة» وقد أنجب من إحداهن الإله دماروس، الذي أنجب بدوره الإله ملكارت، الذي هو «هرقل»، وعمورو هو الإله القومي للأموريين والذي كان ينظر إليه كإله كواكبي أو سماوي أو إله عاصفة وهواء.

إن الإله «دامور» هو مصدر كلمة «تامور» ويسمى أحيانًا بها، وهي كلمة تدل على «التمر» ثمرة النخيل ويدل على النخلة كلها، ومنه اشتقت كلمة «ثمر» الشاملة.

وقد تأملنا كثيرًا في مصدر هذه التسمية فوجدنا أنها إما أن تكون قد أتت من اسم الإله «ذ.مر»، وهو الإله الأموري القديم الدال على السماء أو الأرض (ذات اللون البني أو الأحمر). أو من الإله «دموزي» أو «تموز» وهو الأرجح عندنا؛ لأن هذا الإله مخضب بالدم وهو اللون الأحمر الذي يدل على كيس خضاب النخلة، أو يدل على التمر الأحمر اللون ... ولسبب آخر، لعله الأهم في استنتاجاتنا هذه، هو أن الرمز السومري والبابلي للإله «دموزي» أو «تموز» هو النخلة التي تعلو قمتها دائرة الألوهية، وهو حصرًا رمز الإله «دموزي أشمخوقال أنا» إله الإخصاب المسئول عن تلقيح النخيل، ثم صار يشير إلى قوة الإخصاب في الحيوان والنبات والطبيعة كلها. والحقيقة أن كل هذه الإشارات تريد

شكل ٢-١٩: عشيرة (أثيرة) الإلهة الكنعانية الأم.

أن تفصح عن اللون الأحمر الذي هو جوهر الآلهة الثلاثة «عوص، تامور، ملكارت»، وهو ما يجعلها مرتبطة بفكرة النار ذات اللون الأحمر أيضًا، وهو ما كان من أصل تسمية الكنعانيين والفينيقيين كما أسلفنا في الفصل السابق، وهو ما يجعلنا نظن بأن «تامور» هو نفسه «تاموز» أو «تموز».

الابن الثاني للإله عوص هو الإله «ملكارت» وهو نظير «هرقل» الإغريقي ونظير «نرجال» السومري البابلي الذي كان إله النار والأمراض والعالم السفلي، وكان الإله ملكارت إله مدينة صور وابنتها قرطاج ... ولعل وضعه أخًا للإله «دامور» يأتي من فكرة وجود «تموز» و«نرجال» سوية في العالم الأسفل بعد أن ينزل تموز إلى العالم الأسفل.

شكل ٢-٢٠: عترجاتس (أترعتا)، لوحة من النحت النافر عُثر عليها في البتراء، الأردن.

الإله «ملكارت» هو إله النار الكنعاني بامتياز، ويبدو أن الأساطير الهيلنستية الكنعانية وحدته مع الإله «عوص» ودمجتهما في شخصية واحدة، ويبدو أن الإله ملكارت هو الذي أشاع العدل في مدينة «صور»، ثم بنى أسطولًا بحريًّا وغزا البحر المتوسط وجزره، مثل: «رودس، مالطة، كريت» حتى وصل إلى مضيق جبل طارق وسمى هذا المكان بـ «أعمدة ملكارت» التي أبدلها الإغريق بـ «أعمدة هرقل»، ثم سار باتجاه السواحل الأطلسية جنوب غرب إسبانيا وأسس مدينة «قادش» الساحلية و«هسباليس» في الداخل، وتقول الرواية إنه بنى ٢٠٠ منشأة على سواحل إسبانيا والبرتغال تابعة لصور، وتوجه نحو السواحل الأفريقية وأسس قرطاج التي تحمل بعضًا من اسمه؛ حيث ملكارت يعني «ملك المدينة»، وقرطاج تعني «المدينة الجديدة». وأسس المدن الأخرى على الساحل الأفريقي ثم استولى على كورسيكا وسردينيا (التي أخذ اسمها من اسم ولده سرد)، ثم

شكل ٢-٢١: (١) الصورة المصرية العشتارية للإلهة بارات (٢) و(٣): بارات كما تُصورها أعمال فنية مصرية وبيدها الصليب والعصا وقرن الخصب، وتظهر الكتابة اللاتينية من العصر القبطي المسيحي.

دخل صقلية وأسس مدنًا عدة فيها، ثم توجه ملكارت إلى إيطاليا حتى وصل إلى شواطئ الغال وبنى ماسيليا أو مرسيليا (انظر: بنت بطوطة، د.ت، ٢٠١–٢٠٣).

وتعطينا هذه الرواية انطباعًا بأن الفينيقيين حملوا الإله ملكارت وغزوا به سواحل وجزر ومياه البحر الأبيض المتوسط الذي أصبح، إذا صح التعبير، «بحر ملكارت»، وكانت «صور» هي عاصمة هذه الإمبراطورية البحرية.

ولا نغالي إذا قلنا إن جزيرةً ربما سميت باسم هذا الإله «كرت» أي القرية أو المدينة، وإن أول من حكمها هو الملك مينوس الذي كان ابن زوس من الأميرة الفينيقية أوروبا وهي ابنة الملك الفينيقي «أجينور».

وكان البحر الأبيض المتوسط بالذات، يسمى «راش ملكارت»؛ ولذلك كانت عبادته مرتبطة بالبحر مثلما ارتبطت بالنار؛ فقد أقيمت له معابدُ عند سفوح الجبال الساحلية. وينطبق مثل هذا على نهر بيروت الواقع شرق بيروت «وأكثر الكتاب المحدثين يرون أنه هو النهر الذي دعاه بلينوس الطبيعي نهر ماغوراس، وأنه كان من أنهار الفينيقيين المقدسة؛ إذ دعوه بذلك اشتقاقًا من اسم الإله ملقار وهو اسم زحل بلغتهم» (اليسوعي، ١٩٨٢م، ٤).

ويبدو أن الإله «ملكارت» كان إلهًا شمسيًّا؛ حيث تظهر رموزه (الأسد والنسر) لتدل على طبيعته الشمسية، وما ارتباطه بالنار إلا نتيجة طبيعته؛ لذلك فقد كانت النار لا تنطفئ شعلتها فوق مذابح معابده، وهو ما يشير إلى علاقته بهرقل (شكل ٢-٢٢).

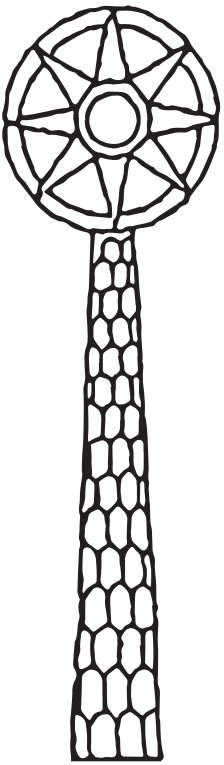

رمز الإله ديموزي السومري.

كانت مدينة صور تحتفل بمهابة ووقار في شهر كانون الثاني من كل عام باحتفال يسمى «بعث ملكارت»، وهو احتفال يختلف عن الاحتفالات الخصبية لمنظومة الآلهة البعلية من الجيل القادم؛ فقد كان يجري على محرقة وذلك بحرق تمثال كبير للإله ملكارت لوحده أو وهو يركب حصان البحر (وهنا يجب أن نتذكر إله البحر اليوناني ملكرتيس الذي هو ملكارت البحري). وكان محظورًا على الغرباء حضور هذا الاحتفال الناري، وهناك إشارات إلى أن إنسانًا أو كاهنًا كان يحرق باعتباره الإله ملكارت، وكانت تجري طقوس تمثيلية في هذا العيد تتضمن طقوس الحرق أولًا، ثم طقوس بعث ملكارت التي كانت تتم بحركات درامية، حيث تستعاد أسطورة رحيل ملكارت إلى ليبيا وقتل

شكل ٢-٢٢: صورة متخيلة لطقوس النار وتقديم المحرقات للإله ملكارت.

التنين «تيفون» لملكارت وهو في طريقه إلى هناك، حيث تتم عودته إلى الحياة عندما يقوم «أيولاوس» بوضع طيور السلوى وهي حية في أعياد ملكارت التي كانت تضبط أوقاتها، في غير موعدها المعروف، عندما تعود الآلاف من هذه الطيور إلى أرض كنعان في ليلة واحدة من ليالي آذار، «ولعل الإغريق كثيرًا ما راقبوا في دجى الليل ألسنة اللهب تحرق ملكارت على كل شاطئ وفي كل ميناء؛ حيث أقام الفينيقيون متاجرهم ومصانعهم، فعلموا، وقد امتلئوا دهشة، أن هؤلاء الغرباء العجيبين إنما يحرقون إلههم، وربما نبتت أسطورة هرقل ورحلاته وموته في النار من هذه المحارق، بيدَ أن الإغريق لم يستعيدوا الأسطورة فحسب، بل عادةَ حرق الإله أيضًا وسط اللهب على جبل أوتيا، ونظن — وإن لم يكن لدينا نص

صريح على ذلك — أنهم كانوا أيضًا في كل مرة يحرقون تمثالًا لهرقل في المحرقة» (فريزر، ١٩٧٩م، ١٠٥-١٠٦).

وإذا كان النظير الإغريقي له هرقل، فإن نظيره الروماني هو «باخوس» أو على الأقل أنه كان يُعبد في روما إلى جانب باخوس أو ديونسيوس، وهذا يعني ارتباطه بأعياد القصف والمجون والخلاعة والخمر.

وكان الإله ملكارت سيد الآلهة في صيدا وقرطاج، وقد ذكره هيرودوس وقال: إن معبده يحتوي على عمودين طويلين أحدهما من الذهب والثاني من الزمرد، وكان العمودان يضيئان في الليل، وارتبط ملقارت بالبحر والملاحة، ويوجد مرفأ باسمه في صقلية، ولا يستبعد أن تكون أعمدة هرقل هي نفس أعمدة ملقارت، وقد قتل بالنار واحتفل الكنعانيون بصحوه السنوي في شهر كانون الثاني (انظر: كورتل، ١٩٩٣م، ٥٠-٥١).

وإذا كان هرقل مقابلًا لملكارت فإنهما يشتركان في المصدر الشمسي لهما؛ حيث كان هرقل في بداية أمره إلهًا للشمس، يخترق الظلام بسهامه النافذة ويشفي المرضى، ثم تحول إلى بطل نصف إلهي، نشأ وترعرع في طيبة ثم خاض مغامراته الشهيرة، خصوصًا مع أسد نيما، ومغامراته السبع الشهيرة (شكل ٢-٢٣).

لقد ظهر اسم الإله «ملكارت» دائمًا مع اسم الإله «أشمون» على أنهما إلها قسم، وهو ما أظهره العقد الموقع بين الملك الآشوري أسرحدون مع بعل ملك صور (انظر: أذزارد، ١٩٨٧م، ٢٤٢).

وقد كان الإله «أشمون» إله النار في الجيل البعلي الذي كان يرتبط بعلاقة مع الإله «أدون» من نفس جيله، أي إن الإيقاع المتمثل بظهور الإلهين «دامور وملكارت» في جيل إيل هو ذاته الذي أظهر الإلهين «أدون وأشمون» في جيل بعل لتطابق وظائف هذه الآلهة مع بعضها، وهي وظائف تتراوح بين «الخصب والنار» ويجمعها نبض العالم الأسفل.

لقد ظهر في جيل الإله إيل مع الآلهة الممثلة للعناصر الكونية الأربعة مجموعة من المردة والعماليق والجبابرة والشياطين، بعضها اكتسب صفات إيجابية خيرة مثل عماليق الحضارة، وبعضهم اكتسب صفات سيئة شريرة مثل تيفون.

وتذكرنا هذه الصورة بما ظهر في جيل التيتانات (جيل كرونوس) في البانثيون الإغريقي حيث ظهرت، بالإضافة للنسل المرتبط بكرونس مثل ريا وأوقيانوس، مجاميعُ

هرقل هسبريدس

هرقل يتكئ على عصا

شكل ٢-٢٣: هرقل نظير ملكارت.

أخرى من الكائنات المُخِّيَّة مثل الصقالبة (السيكلوب ذوات العين الواحدة) والعمالقة ذوي المائة يد وغيرهم.

أما في البانثيون الكنعاني فإن الصورة هنا ما زالت مشوشة بعض الشيء حول هذه المخلوقات والتي يمكن أن نصنفها كما يلي:

(ج) عماليق الحضارة (معلمو البشر)

وهم مجموعة من الكائنات الإلهية الضخمة التي ذكرها كل من فيلون الجبيلي وسانخونتين؛ لكنَّ هناك اختلافًا حول عددها وأسمائها، ولكننا نذكرها هنا لأنها التي قدمت للإنسان نواميس الحضارة وسبل الحياة، وهم يشبهون من هذه الناحية الـ «أبكالو» السومريين، وهم الحكماء السبعة الذين قدموا الحضارة للبشر وكانوا مثل مخلوقات الإله «إنكي» أو «إيا» يظهرون بأشكال سميكة (انظر: الماجدي، ١٩٩٨م، ١٧٠).

ويمكننا أن نحصي من هذه المخلوقات أو الأبكالو الكنعانية ما يلي:

(١) فوس الذي اخترع الضوء.
(٢) فير الذي اخترع النار.
(٣) فلوكس الذي اخترع الشعلة.
(٤) هفسورايلوس الذي اخترع أو استعمل ألواح القصب.
(٥) خوسور الذي استعمل المعادن.
(٦) صيد إله الصيد البري والبحري.
(٧) تحوت (تؤوتوس) الذي اخترع الكتابة.
(٨) إله الزراعة والري.
(٩) إله الماشية.
(١٠) إله الطوب.
(١١) إله صناعة الألبسة.
(١٢) إله العجلات.

ويضاف لهؤلاء ملكارت (إله العدل)، وأوسوس (إله الملاحة).

وظهر من أول الآلهة والبشر نسل «النور والنار واللهب»، وكان عددهم حوالي مئتين من ذرية كنعان الأولى، الذين تزاوجوا وأنجبوا أولادًا ضخامَ الأجسام، طوال القامات، وسميت الجبال التي ملكوها بأسمائهم وهي «قاسيون، لبنان، أنيتلبانان، براتي» الذين نرى أنهم يميلون لكونهم آلهة أكثر من كونهم بشرًا، أو أنهم أنصاف آلهة مثل عماليق الحضارة.

(د) تيفون

وهو التنين الكبير الذي يقابله بنفس الاسم تيفون الإغريقي الذي يقاتله هرقل، في حين يقاتل ملكارت هذا التنين وهو في طريقه إلى ليبيا. وسيظهر هذا التنين تحت اسم «يطفن» في أسطورة بعل وأمهات، وتطابق كلمة «طفن» معنى «قتل»، ونرجح أن يكون تيفون هو جذر الأفعى في أسطورة الجنة التوراتية.

(أ) الأنثربوغونيا الكنعانية (خلق الإنسان)

ظهرت الطبيعة والآلهة في أساطير الخليقة السابقة وكأنها شيء واحد، فهل اختلف خلق الإنسان عن ذلك؟

الإنسان من الأساطير الكنعانية خلق مع الآلهة الأولى، الكونية منها بالذات، وبدا كما لو أن الإنسان كان في بدايته إلهًا، أو أن الآلهة، كلها، كانت بشرًا ثم وقع التأليه عليها.

ورغم أنه لا توجد صراحة أسطورة خلق أنثروبوغونية (خاصة بالإنسان) كنعانية في مدونات أوغاريت أو نصوص ببلوس أو النصوص الهيلنستية، إلا إن ذلك لا يمنعنا من استنتاج خاص لهذه الأنثروبوغونيا.

إن هذه الأنثروبوغونيا التي ما زالت قيد الغيب ولم تكشف عنها الآثار حتى يومنا هذا تحف بها أنثروبوغونيات مشابهة سومرية وبابلية وإغريقية؛ ولكننا يجب ألا نندفع بسهولة وراء مثل هذه المغريات إلا إذا وجدنا مسوغًا حقيقيًّا ومقنعًا لذلك. إننا لا نجد، بصراحة، ما يشير إلى ذلك ولذا نحذر من الاندفاع في الاستنتاجات والفرضيات. ماذا نفعل إذن؟

لقد اهتدينا إلى حل آخر انطلاقًا من منطقة مثولوجية أخرى هي المثولوجيا العبرية، فهي القادرة على الإيحاء بما كانت عليه الأنثروبوغونيا الكنعانية، وهذا يعني أن الكنعانيين هم الذين ابتكروا أسطورة خلق الإنسان الأول، ثم أخذها عنهم العبريون، وهو ما يتفق مع آراء العلماء حول الجذور الكنعانية للمثولوجيا الأولى.

كيف يمكن تخيل الجذر الكنعاني لهذه الأسطورة «على مستوى الأسماء»؟ لنعد إلى شجرة الآلهة الكنعانية حيث نرى أن الإله الأول «يم» يلد «شمتم» الذي يظهر منه إله ذكر هو «شم» وإلهة أنثى هي «تم» ومنهما ظهر نسل الآلهة اللاحقة.

ولنقف هنا قليلًا.

لقد نظر الكنعانيون إلى خلق الآلهة والبشر سوية ووضعوا سياقًا واحدًا لهما واعتبروا أن الآلهة والبشر والكون قد ظهروا من إله واحد أزلي قديم هو الإله «يم». وهو ما يختلف عن نظرة السومريين والبابليين لخلق الإنسان، ويتفق مع نظرة المصريين لخلق الإنسان.

رأى الكنعانيون أن الإله «شمتم» أظهر منه وفق سياق واحد الآلهة والبشر، ولذلك كان يجب التمييز بينهما على صعيد الأسماء وهكذا نرى أن «شم» الإله يتحول إلى «شاميم» وأن «تم» الإلهة تتحول إلى «أديم» وهي أدمة أو أرسو إلهة الأرض.

أما «تم» المرأة الأولى فهي «دم» و«دمة» و«أدمة» لكنها بهذه التسمية تطابق إلهة الأرض ولذلك أعطيت اسمًا آخر كان موجودًا في المثولوجيا السومرية هي «ننتي» ...

التي كانت تُوصف بأنها ابنة إله السماء وهي إحدى إلهات الشفاء وتسمى «السيدة التي تحيي»، أي: «حواء» هكذا طوبقت «أدمة» مع «حواء» وأصبح اسم حواء هو الدال عليها ولكي نثبت هذا نقول إن اسم الإلهة «ننتي» كان يعني أيضًا «سيدة الضلع»؛ لأن كلمة «تي» تأخذ معنيين هما «حياة» و«ضلع». وهكذا استدعى هذا الخلط ابتكار الأسطورة العبرية الشهيرة التي تقول بأن حواء خرجت من ضلع آدم، خصوصًا وأن أسطورة «إنكي ونخرساج» تشير إلى ذلك عندما تقوم الإلهة «ننتي» بمشافاة ضلع إنكي (انظر: كريمر، ١٩٥٧م، ٢٠٥).

والآن بقي لدينا الإله «شم» الذي كان يجب أن يتميز أيضًا عن الرجل الأول «شم»، وقد تم ذلك عن طريق تذكير اسم حواء القديم «أدمة» وجعله مرادفًا له لكي يتم التخلص من اسم الإله «شم»، وهكذا أصبح «شم» الرجل هو «آدم».

وأصبحنا الآن أمام أربعة أسماء متداخلة ومتناظرة هي «شم» الإله الذكر ومعه «آدم» و«أدمة» الإلهة الأنثى ومعها «حواء».

وبالطبع فإننا لا نعرف على وجه الدقة ما هي الأسطورة الكنعانية لخلق آدم وحواء، رغم أننا كشفنا عن أصل اسميهما، ولا نعرف كيف حور وتصرف العبريون بهذه الأسطورة ونحتوها وفق معتقداتهم.

وإذا مضينا في الاستنتاجات فسنجد أن أبناء آدم وحواء في الأسطورة العبرية تتفق مع تسلسل الآلهة الكنعانية ويمكن استنتاج أسمائهم منها أيضًا (انظر: المخطط (٤)).

يظهر إلهان رئيسيان من «شم» و«تم» هم شميم وأوسوس «عوس» ويجري استبدال صورتهما البشرية بأسماء جديدة حتى لا تختلط بأسماء الآلهة، وهنا يجري نوع آخر من نحت الأسماء.

الإله «شميم» هو أب للإلهة إيل ولذلك يسمى «أب إيل» ثم يتحور هذا الاسم ليتكون اسم «هابيل» وهو اسم الابن الأكبر لآدم وحواء والذي يناظر الابن الأكبر للإله شم أو شام.

الإله «أوسوس» أو «عوس» أو «أش» وهو الإله المرتبط بالنار يسمى بشريًّا «أخ أب إيل»؛ لأنه فعلًا أخ شميم، ويتحور هذا الاسم إلى «أخابيل» ثم تتحول الخاء إلى قاف فيكون «قابيل»، وهو اسم الابن الأصغر لآدم وحواء والذي يناظر الابن الأصغر للإله شم.

وقد ذكرنا أن عداوة تنشأ بين الإلهين «شميم» و«عوص» ولذلك تنسحب هذه العداوة بين الولدين «هابيل» و«قابيل»، ويأخذ هابيل شكل الراعي، أما قابيل فيأخذ شكل الفلاح، وتعيننا الأسطورة السومرية التي تتحدث عن المنافسة بين الفلاح والراعي.

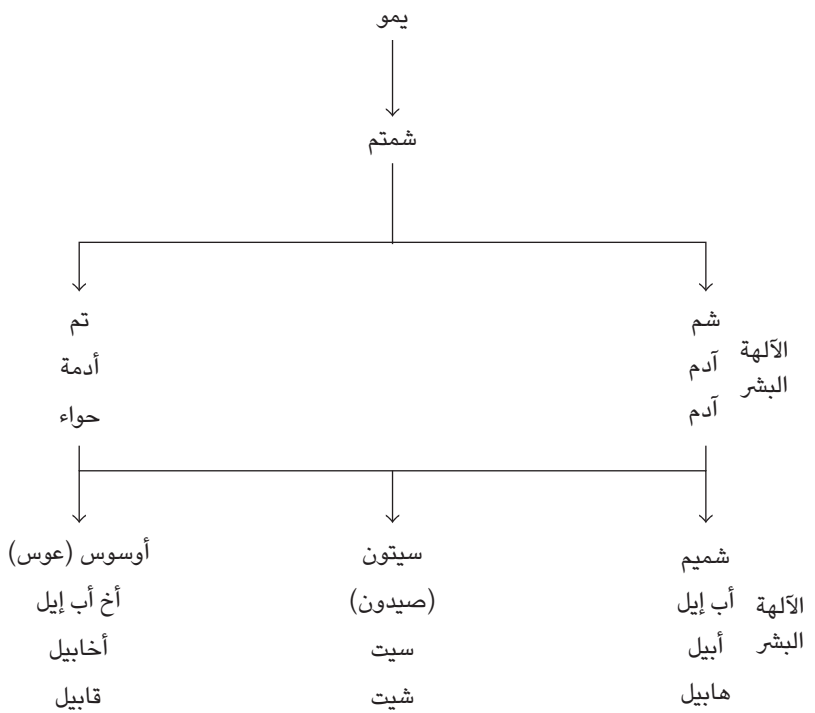

المخطط (٤): تناظر الآلهة والبشر الأوائل في الخليقة الكنعانية.

ويقوم قابيل بقتل هابيل، وهكذا يجنح نسل قابيل نحو الجنس البشري أكثر، ويظهر من نسل عوص معلمو الحضارة الأوائل، أما نسل هابيل فيبقى في إطار الآلهة رغم أنه ينقطع على مستوى البشر لكن نسل قابيل هو نسل ناري شرير في الجوهر. لذلك يخترع مؤلفو الأسطورة العبرية شخصًا آخر من آدم وحواء من نسل «شميم وأدمة» هو الإله «سيتون» الذي يتحول بشريًّا إلى الإله «شيت» الذي تنحدر من سلالته البشر الأتقياء ويظهر منه بقية المصلحين القدماء (أنوش، مهلئيل، يارد، أخنوخ، متوشالح، لامك، نوح) عند العبريين.

ولا نملك، كنعانيًّا، ما يدعونا للاسترسال مع بقية هذا النسل. ونكتفي بإثباتاتنا السابقة حول أصل أسماء آدم وحواء وقابيل وهابيل وشيت وهو في رأينا استنتاج جديد لم يذهب إليه أحد قبلنا. ونضيف هنا إلى سلسلة الاستنتاجات السابقة التي فصلناها.

ورغم أن الحديث الغامض والملتبس الذي يتحدث به فيلون الجبيلي حول البشر الأولين لا يمكن أن يكون مقنعًا إلا أننا نذكره هنا على سبيل التوثيق فهو يرى أن الريح تزاوجت مع باعو وأنجبت أيون (الحياة) و«يون» الأول وهو الابن البكر اللذان أنجبا يون الذي هو آدم وبينا التي هي حواء. ومن تزاوجهما ظهر النور والنار اللذان أنجبا العماليق.

هذا الكلام المشوش والذي تشوبه المسحة الهيلنستية لا يمكن أن يكون دقيقًا رغم أنه يحوم حول الاستنتاج الدقيق الذي وضعناه. إن البشر وفق الأساطير الكنعانية تعلموا الحضارة من آلهة الحضارة أو عماليق الحضارة الذين تختلط شخصياتهم بالشخصيات الإنسانية مثل صيدون وملكارت وتؤوتوس (تحوت) و«خوسور» ... إلخ، وهذا التداخل طبيعي جدًّا بالنسبة للشخصيات المتعايشة مع بعضها والحالة واحدة مكان الأخرى.

(٣-٢) أساطير إيل

لا تسعفنا الآثار الكنعانية بالكثير من أساطير إيل التي نرى أنها المركز الأول الكبير الذي تلتف حوله المثولوجيا الكنعانية، يليه في ذلك الإله بعل؛ لكن أخبار وحكايات وإشارات الإله كثيرة إضافة إلى أساطيره الصريحة، أو التي يأتي ذكره فيها.

وقد اهتدينا إلى وضع مخطط افتراضي يشير إلى دورة حياة الإله إيل والأساطير التي يمكن أن توجد في سيرته من خلال تلك المعلومات المبعثرة عنه:

(أ) أساطير مرحلة القوة

- **ولادة الإله إيل وحجزه لأبيه:** حيث يرى فيلون الجبيلي وسانخونتين أن الإله «شاميم» إله السماء كان له زوجات كثيرات أنجب منهن ذرية لا حصر لها، ومنها أنه هجر زوجته إلهة الأرض «أدمة» وحاول قتل أبنائها مرارًا وبلا هوادة، لكن ابنه البكر إيل عندما كبر واتخذ من الإله «تحوت» أو «توت» إله الكتابة (الذي عرفه الساميون فيما بعد في الملاك جبرائيل) كاتبًا لأسراره، ثم أشعل حروبًا طاحنة ضد أبيه لإهانته لأمه

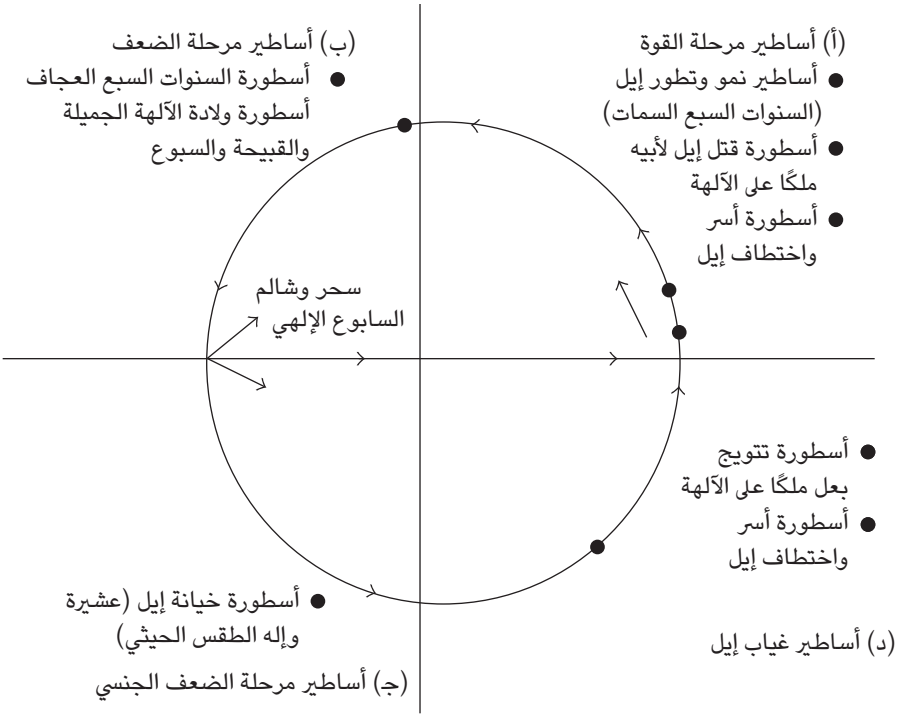

مخطط (٦): الدورة المثولوجية للإله إيل.

الأرض، وهكذا تمكن بعد ذلك من الانتصار على أبيه وتمكن من اصطياده وحبسه في أعماق الهاوية.

ثم بدأت مرحلة البناء فبنى الإله إيل مدينته الأولى «جبيل» أو «ببلوس» في فينيقيا، وسمي، بعد أن أصبح ملكًا للآلهة مكان أبيه، باسم «إيم ألوهيم» أو «رب الأرباب».

وبذلك يشبه إيل الإله الإغريقي كرونوس إله الزمان، ويرى فيلون أن إيل يملك أربع عيون: عينان إلى الأمام، وعينان إلى الخلف، عينان مفتوحتان، وعينان نائمتان. ومعنى هذا أنه كان في مقدور هذا الإله إيل أن ينام متيقظًا ويستيقظ وهو نائم (انظر: عبد الحكيم، ١٩٧٨م، ٤٧).

ويذكر أن له ستة أجنحة وسبعة رءوس.

- **تضحية إيل بابنه «شديد»:** كان لإيل ولد وحيد اسمه «شديد» أو «سديد»، وكان إيل يخاف من أن تكرر الأقدار أفعالها ويقتله ابنه هذا مثلما فعل هو مع أبيه، فقام بقتل وذبح ابنه هذا، ثم فعل نفس الشيء مع ابنته.
- **شاميم يبعث له بابنتيه:** سئم والده شاميم من الحجز فبعث له بابنتيه «عشتروت» وأختها «ريا» التي كانت تسمى أيضًا «ديونا» و«سميرنا» و«بعلتي» للإيقاع به، لكن إيل تمكن من استمالتهن وتزوج بهن، وإذا اتفقنا مع الشجرة الإلهية الكنعانية فإن «ريا» ستكون غير بعلتيس، وهكذا تلد أخواته الثلاث مجموعة من أبنائه وكما يلي:

(١) من «عشتروت» ينجب سبع بنات تيتانات (طيطيات) أو الترابيات.
(٢) من «ريا» ينجب سبع ذكور هم الكروبيم، ومنهم الإله «موت» وهم آلهة الأرض السفلى أو الشياطين.
(٣) من «بعلتيس» أو «ديوني» ينجب سبع بنات.

- **زوجته الكبرى «عشيرة»:** لكن زوجته الأساسية هي عشيرة وهي الإلهة الكنعانية الأم وريثة أمها إلهة الأرض «أدمة»، ومن عشيرة ينجب الإله إيل سبعين إلهًا هم آلهة الطبيعة الجدد، وهم نسل الجيل القادم، وعلى رأسهم بعل وعناة اللذين سيرثان مقام إيل وعشيرة.
- **قتله لأبيه شاميم:** بعد أن حكم إيل ٣٢ عامًا عاد فأوقع بأبيه الذي حاول أن يتخلص من أسره، وحين أمسكه مزق أطرافه وأعضاءه وألقى بها مع دمه في مياه الينابيع والآبار والأنهار.
- **توزيع الأرض على زوجاته وأبنائه:** بعد أن أصبح الإله إيل الملك المطلق للكون والأرض وزع الأرض على زوجاته وبناته وأولاده، وكان من حصة زوجته عشتروت أثيكا في اليونان، أما بعلتي فأخذت عاصمته «جبيل»، أما بيروت فقد منحها لبوصيدون إله البحر. واكتفى هو وزوجته بمكان إقامته الدائمة عند منبع النهرين (ولا نعرف أي نهرين)، وقرب مصدر المحيطين «ثمتم Thmtm» وتشير هذه الكلمة إلى مفردها «ثمت أو تمت»، وربما أشارت إلى تيامت إلهة المياه الأولى البابلية، وبذلك يمكن أن يكون النهران هما دجلة والفرات لأنهما ينبعان من مياه المحيطين عند البابليين (انظر: الماجدي، ١٩٩٩م، ٤٥).

ويقال إن إيل كان يسكن جزيرة عند منبع النهرين، وبذا يقربنا هذا المشهد من صورة «دلمون» جزيرة البحرين في الخليج العربي التي يمكن أن تكون أرض إيل ... ولِمَ لا؟ فقد كانت في الأساطير السومرية أرض إنكي «إيا» إله الماء القريب في صفاته من إيل، وهي الجنة السومرية القديمة، وقد يقربنا هذا الاستنتاج من الأصل الرافديني للكنعانيين الذين تحدثنا عنه سابقًا.

- **منح مصر للإله تحوت:** كان الإله «تحوت» أو «توت» هو الذي أعان إيل في شبابه وأصبح مودعَ أسراره وموجهه في التعامل مع أبيه واحتجازه؛ ولذلك أعطاه إقليم مصر تحت حكمه. والإله «تحوت» يرجع في أصله إلى الإله «توت» أو «توتو» وهو لقب الإله البابلي الآشوري «تيو» إله الحكمة والكلمة وابن الإله مردوخ.

(ب) أساطير مرحلة الضعف

يبدو أن تقسيم مملكة إيل واعتزاله الحكم في جزيرة نائية تشكل بداية مرحلة الضعف وبدء الشيخوخة؛ ولكنها لم تأت دفعة واحدة بل استغرقت زمنًا طويلًا، فقد أصبح الإله إيل مشرفًا ومرشدًا رمزيًّا للعالم والبشر.

(١) أسطورة التضحية بولده جنود أو وحيد

ربما كانت كارثة الوباء أو الجفاف هي ذاتها السنوات السبع العجاف التي عالجها إيل بالتضحية بابنه «جنود» أو «وحيد» من حورية البحر «أنوبرت» أو «عين عبريت» أو «عفريت» والتي نرى أنها الإلهة «بيروت» أو «بارات» إلهة مدينة بيروت، التي رفعها فيلون الجبيلي إلى مستوى الإلهة الأم قبل إيل وزوَّجها بالإله «عليون»، الذي جعل منه إلهَ السماء مكان شاميم كما أسلفنا.

وكان ابنها هذا وحيدًا؛ ولكنه لاقى نفس المصير الذي لاقاه سديد فقام بالتضحية به فوق المذبح وهو يرتدي ملابسه وإشاراته الملوكية في سبيل والده إله السماء (ربما لأنه شعر بالذنب، وربما دعاه لينزل المطر في هذه السنوات العجاف). وتشبه هذه الحادثة ما فعله إبراهيم مع ولده إسماعيل (في الرواية العربية) ومع ولده إسحاق (في الرواية العبرية) خاصة وأن هناك من يطابق بين إبراهيم وإيل.

(٢) أسطورة ولادة الآلهة الجميلة والقبيحة والسابوع الإلهي

ويمكن أن نسميها أيضًا أسطورة نهاية السنوات السبع العجاف وبداية السنوات السبع السمان (دورة السنوات السبع). ويتكون نص هذه الأسطورة من حوالي ١٢ مشهدًا هي كما يلي:

(١) دعوة الآلهة والملك والملكة لحضور الاحتفال في الهيكل ونجد معهم أتباعهم والقادة العسكريين والمدنيين والكهان، وهذا الحقل مخصص لتجديد قوى إيل التناسلية بعد تقدمه في السن لتنتهي السنوات السبع العجاف وتعود قوى الخصب والخير إلى الأرض.

(٢) طقس فرك الكروم: حيث تجري عملية تهذيب الكروم التي ترمز إلى الموت، ثم تجديد الحياة، وهي نوع من القداس الإلهي تجري فيها قطع وبتر شخصية إلهية تسمى «الموت والشر» صاحب صولجانَي الحرمان والترمل. وهو الكرم أو إله الكرم، ويشير لون الكروم الأحمر المائل إلى السواد إلى هذا القداس الإلهي.

(٣) تلاوة نشيد الولادة وحفظ الآلهة السبعة الخيرة (السابوع الإلهي) الذي سيرعى فيه كل إله سنة من السنين السمان القادمة.

(٤) طقس طبخ الجدي في لبن أمه: وهو طقس كنعاني قديم معروف (تذكره التوراة معترضة عليه)، ويتم ذلك في حقول عشيرة الفردوسية زوجة إيل ومعها عناة ابنتها.

(٥) صراع عناة (رحماي لاس) مع البطل الطيب، وهو مشهد يصور شخصية عناة (ابنة إيل) وقوتها أمام الأبطال.

(٦) مشهد مساكن الآلهة والشعائر ذات الأركان السبعة.

(٧) الغيرة على الأسماء الإلهية لمعبودات «أبناء شاروما».

(٨) دعاء الإلهة الطيبة التي ستلد وترضع ثدي عشيرة، ويقوم كبار القوم بتحضير الضحايا الطيبة للمأدبة.

(٩) مشهد حقول الفردوس حقول عشيرة وعناة.

(١٠) المشهد الرئيس الأول: ولادة إلهي الفجر والغسق.

ويبتدئ هذا المشهد عند ساحل البحر؛ حيث يظهر الإله إيل الشيخ وهو يخلق إلهتين على النار، وربما كان هذا المشهد هو قيام الإلهتين عشيرة وعناة بالرقص قرب النار على الساحل؛ حيث يردد الراقصون أمامهما نشيدًا لإكثار حليب الثدي؛ لأن وظيفتهما إرضاع

الآلهة القادمة الجديدة، وتتم الإشارة إلى أن إيل في هذه السنوات العجاف ما زال فاقدًا لقواه الجنسية، فهل ستقوم الإلهتان بإحياء قواه الجنسية؟ ثم يدخل إيل والإلهتان إلى منزله وهناك يتعرى إيل لكن قضيبه ينزل (غير قادر على الانتصاب). فيتدارك الموقف وينطلق إلى السماء ويصيد طائرًا ينتف ريشه وينظفه ثم يشويه على النار، ويحاول مجامعة الإلهتين:

«إذا صاحت النساء أيها الزوج الزوج
لقد أُنزل قضيبك
وسقطت عصا يدك
حين يشوي الطائر على النار
نعم يشوي على الفحم
ثم إن النساء زوجات إيل
زوجات إيل وله إلى الأبد
ولكن النساء إذا صحن: يا أبتاه، أبتاه.
هبط قضيبك
وسقطت عصا يدك
حين يُشوى الطائر على النار
نعم يُشوى على الفحم
والبنات بنات إيل
بنات إيل إلى الأبد» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٦٣).

ولكن العجز الجنسي يكون قد دب نهائيًّا في أوصال إيل ولا ينجح في مضاجعتهما جنسيًّا، لكنه يخترع طريقة أخرى هي الاتصال العاطفي بدلًا من الاتصال الجنسي، فينحني عليهما ويقبِّل شفاههما الحلوة كالرمان (ومن التقبيل يكون الإخصاب ومن الإخصاب يكون الحمل) كما تقول الأسطورة. وهكذا تدخلان في المخاض وتلدان إلهين هما الإله شهار والإله شاليم، إلها الفجر والغسق، وهما إلهان جميلان يمكن أن تكون وظيفتهما في مساعدة فعل الإخصاب في السنوات السبع السمان؛ ولكنهما ليسا إلها إخصاب بالمعنى الدقيق؛ إنهما إلها حب وعاطفة وهكذا يرفعهما الإله إيل بعد ذلك إلى السماء ليكون «شهار» هو نجم الصباح الذي يشير إلى الخير، وليكون «شاليم» نجم

المساء، الذي يشير إلى العطاء، ثم يستمر الإله إيل بهذا النوع من الاتصال العاطفي مع عشيرة وعناة.

(١١) يلد منهما إلهين طيبين آخرين؛ ولكنهما ماردَين نهِمين لهما شفة تمتد إلى الأرض وشفة إلى السماء؛ بحيث تدخل فيهما طيور السماء وأسماك البحر. وكان هذان الإلهان نهمين ولا يشبعان، فأمر إيل بأن يوضعا في أرض القفر (الصحراء)؛ حتى يصلا ذات يوم إلى فلاح يزرع الحنطة فيطلبا منه أن يقدم لهما طعامًا وشرابًا فيجيء لهما بالطعام والشراب ... وهنا ينقطع النص.

ويبدو من قراءة متأنية للنص ولنصوص أخرى محايثة أن هذين الإلهين ينتميان إلى آلهة تسمى «جزريم» وتعني «الآلهة القاطعة أو القاتلة» وربما عنت نوعًا من الآلهة الملتهِمة، التي يضعها إيل في العالم الأسفل (بدلالة الصحراء) وهي تشبه الغِيلان والسعالي.

(١٢) والسؤال الآن: ماذا عن السابوع الإلهي؟ وكيف سينجبه إيل ليزيح به جدب السنوات السبع؟ لأنها لا تذكر صراحة في النص.

ونرجح أن الإله إيل ينجب هؤلاء الآلهة السبعة إما بنفس الطريقة العاطفية (الاحتضان والتقبيل)، أو عن طريق الكلمة؛ حيث كلمة إيل هي المطر. ثم يخاطب إيل أبناءه السبعة ويوجههم إلى البرية:

«أنتم هناك ستقيمون بين الأحجار والأشجار
سنين سبعًا سويًّا؛
بل ثمانيَ دائرة (سنين)،
حتى تزرعوا أيها الآلهة الخيِّرون الحقل،
حتى تزرعوا أركان البرية» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٧٠).

تمثل لنا هذه الأسطورة المركبة الطويلة نسبيًّا عددًا من المشاهد الأسطورية المؤلفة في نص واحد طويل غلبت عليه الصفة الدرامية، ولذلك انقسمت موجات النص الطينية إلى «أقسام بخطوط أفقية رسمها الكاتب، أما النص ففي شكل تمثيلي مع إرشادات مسرحية تبين الموضوع وشخوص المسرحية في مختلف المناظر. وكانت أصول التمثيلية دينية؛ حيث يقوم النص علمًا من أعلام الطريق إلى فجر تاريخ التمثيلية الكلاسيكية (الإغريقية)» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٦١).

وهذا يعني أن هذا النص يشير إلى إمكانية تنفيذه دراميًّا في شكل مسرحي شرقي قديم. وقد قادتنا كل هذه الإشارات الصغيرة وغير المباشرة بعد قراءة تحليلية معمقة في

رسم للوح من العاج للإلهة عشيرا، عثيرات، إيلات. عُثر عليه في أوغاريت يعود للنصف الثاني من الألف الثاني ق.م.

هذا النص إلى وضع فرضية جديدة حوله، لعلنا نهتدي من خلالها إلى وصف حقيقة هذا النص، وهي أن هذا النص يمثل نص «عيد رأس السنة الكنعانية الأكبر»، ونرى أن هذا العيد كان يمثل في بداية رأس السنة الكنعانية، ولنقل بشكل أدق: السنة الأوغاريتية.

ويشبه هذا النص في بعض أوجهه نص الـ «أكيتو» البابلي الذي يتحدث في سيناريو شعائري محكم عن الأيام الاثني عشر لعيد رأس السنة البابلية رغم الخلافات الجوهرية بينهما، وخصوصًا فيما يخص الملك وعلاقته بالإله الذي يشكل أساس عيد الأكيتو؛ بينما يكتفي النص الكنعاني بحضور الملك والملكة والأعيان في الاحتفال دون أن يكونوا جزءًا منه.

أما الاستنتاج الثاني الذي نود أن نضعه هنا فيخص الإلهين «شهار» و«شاليم». فقد وجدنا أن هذين الإلهين المتلازمين لعبا دورًا كبيرًا في مثولوجيات الأمم الأخرى كما سنرى. أما حضورهما في المثولوجيا الكنعانية فما زال غامضًا، فهما يوصفان على التوالي بإلهي الخير والعطاء وهما إلهان جميلان خيِّران.

ويدل الإله شحر «سحر» على وقت السحر أو الشفق قبل الفجر، وأصبح يشار له بنجم الصباح (الزهرة قبل طلوع الشمس). أما الإله شالم «سالم» فهو إله التسليم أو الوداع، ويدل على النجم الذي يطلع قبل غروب الشمس في الغسق وهو (الزهرة قبل الغروب) ويسمى نجم المساء أو نجم العشاء.

وكان الأموريون يعبدون إلهين شبيهين بهما هما «عزيز» و«منعم» وهما أيضًا إلها «الخير والعز» و«الإنعام أو العطاء»، ونجد لهما تسمية إغريقية باسم «أزيزوس» «ومونيموس»، ويشار لهما أيضًا بنجمي الصباح والمساء. وكانا يسميان أيضًا في مدينة تدمر بـ «عزو» و «أرصو». ويرد اسم مدينة القدس (في فلسطين) في النصوص المصرية في عهد الأسرة الثانية عشرة بصيغة «أورشالم» أي «مدينة سالم» أو «نورشالم»، ونجد اسم شالم يندس في اسمي ولدي داوود «سليمان وأبشالم» وفي الأسماء الآشورية «شلمانصر». ولذلك المؤابي «شلمانو»، وكان اسم «العزى» و«شالم» مرتبطًا بقوة بمدينة القدس وضواحيها منذ الألف الثاني قبل الميلاد؛ حيث تجسد في نجم بيت لحم (انظر: أذزارد، ١٩٨٧م، ٢١٨-٢١٩).

ونرجِّح ارتباط اسم الإلهة «إيزيس» باسم «عزيز» و«عزو» و«العزى». خصوصًا أن الإلهة إيزيس ترتبط بالنجم الذي يظهر في السحر، وهي بذلك تتطابق مع الإله أو الإلهة «سحر» وكذلك نظيره أيزيس واختها «نفتيس» التي يرتبط اسمها بالنجم الذي يظهر في الغسق وهي بذلك تتطابق مع الإله «شالم» (انظر الماجدي ١٩٩٩: ٨٦-٨٧).

وقد قادتنا كل هذه الاستنتاجات إلى وضع فرضيتين هامتين حول الإلهين «سحر» و«شالم» هما:

(١) إن هذين الإلهين هما الجذر القديم للإله «أيروس» إله الحب الإغريقي والإله موت إله البيضة التي خرج منها العالم، وقد حصل هذا عندما رفعت مرتبة هذين الإلهين من الهامش الكنعاني إلى القمة الإغريقية، فهكذا نجد بأن الخليقة الإغريقية تتحدث عن وجود إلهين أوليَّين عتيقين هما: «أيريب» و«نيكس» ينفصلان عن السديم الهيولي الأكبر ويمثلان الظلام والظلمة؛ لكنهما ما يلبثان أن يفصلا فينزل أيريب ويحرر أخته «نيكس»

التي تتجوف فتصبح كرة كبيرة في الفلك، ثم ينفصل نصفاها كما بيضة تنشق نصفين ليخرج منها «أيروس» إله الحب وليرتفع النصف الأعلى ويشكل قبة الفضاء وينبسط النصف الأسفل ويشكل سطح الأرض. وهكذا تكتسب الأرض والفضاء واقعًا ماديًّا ويصير الحب قوة طبيعتهما الروحية، وصار أيروس هو الذي يؤمن تماسك الكون الناشئ، ومن أنحاء الفضاء على الأرض، وجماعهما، بدأت السلالات الإلهية (انظر: غريمال، ١٩٨٢م، ٢٢-٢٣).

أما الإله «موت» فيظهر في رواية كوزموغونية كتوأم للإله إيروس (الذي قد يسمى بوثوس أو الرغبة) مع «موت» في البيضة الكونية التي تفقس وتنقسم إلى قشرة عليا هي السماء «أوارنوس» ومادة سفلى هي الأرض «جيا».

ونحن نرجِّح أن «أيروس» و«موت» ما هما إلا «سحر» و«سالم» الكنعانيين؛ حيث يقابل اسم موت الغروب والأفول والغسق، بينما يقابل أيروس الظهور والشروق والحب والرغبة «سحر».

(٢) إن هذين الإلهين هما الجذر القديم للثالوث العربي الوثني القديم (اللات وعزى ومناة)، وهنَّ الغرانيق العلا، وبنات الله، كما كانت تسميهم قريش قبل الإسلام. فقد عرفنا أن الإله/الإلهة «سحر» ظهرت باسم «أيزيس» و«عزى». أما الإله/الإلهة «شالم» فتدل على الغروب وموت الشمس واختفائها، «والإلهة «مناة» في منشئها إلهة الموت والقدر عند البابليين العراقيين، وعرفت بنفس اسمها العربي عندهم «مناتو»، وعن البابليين عرفها الكنعانيون والآراميون والأنباط.

إلى أن وصلت عبادتها العرب الجاهليين فيما بعد فعرفوها بنفس الاسم أو ما يقاربه «منى»، وذكرت منى متوحدة مع الإله «حاد» إله قبيلة جاد في العهد القديم» (عبد الحكيم، ١٩٨٢م، ٦٤٤).

إن ربطنا بين «سالم» و«مناة» له ما يبرره؛ لأن كلمة «سالم» تعني التسليم والوداع والموت. كما أن العُزى ومَنَاة تشكلان وجهين لعملة واحدة؛ فالعزى إلهة الصباح ومناة إلهة الليل أو المساء وهما تعبيران عن إلهة واحدة هي إلهة «الزُهرة» التي كانت تمثلها الإلهة عشتار التي تلقب بـ «الإلهة» عند البابليين أما عند الكنعانيين فتلقب الإلهة «عشيرة» زوجة إيل بـ «إيلات» أو «اللات» أي الإلهة. وهكذا نجد أن هذا الثالوث يعبر عن معنيين؛ أحدهما شمسي تظهر فيه اللات كإلهة للشمس، والعزى وجهها المشرق ومناة وجهها المغرب.

والثاني نَجِمي تظهر فيه اللات كإلهة للزهرة، العزى ظهورها الصباحي كنجمة للصباح ومناة ظهورها الليل كنجمة للعشاء.

جدول ٢-١: تحولات إلهة الزُهرة بشكليها النهاري (نجمة الصباح) والليلي (نجمة المساء).

نوع الأساطير	نجمة الصباح		نجمة السماء	
	اسمها	مدلولها	اسمها	مدلولها
الكنعانية	شهار	السحر	شالم	الغسق
الأمورية	عزيز	الخير	منعم	العطاء
البابلية	عشتار	الحب	مناتو	الموت والحرب
المصرية	إيزيس	الحب والأمومة	نفتيس	سيدة الدار (الشفق)
الإغريقية	إيروس	الحب	موت	البيضة الكونية الأولى
التدمرية	عزُّو	النهار	أرصو	الأرض (العالم الأسفل)
العربية	العُزَّى	الحب، النهار، النار	مناة (منى)	الموت والقدر

وهكذا تتفق الإيقاعات المصرية «إيزيس ونفتيس» مع الكنعانية «اللات، مناة» و«سحر، سالم» مع العربية «اللات، العزى، مناة»، وبذلك نكون قد أزحنا الغموض في شخصية الإلهات العربيات الثلاث وفتحنا لغز أسمائهن وأصولهن الكنعانية القديمة (انظر: جدول ٢-١).

النقطة الثالثة التي نود الإشارة إليها هي ظهور الرقم ٧ في عدة صيغ (سبع تلاوات لنشيد حفظ السابوع، مساكن الإلهة ذات الأركان السبعة، ولادة السابوع الإلهي، السنوات السبع العجاف والسبع السمان ... إلخ)، وبرغم أن الرقم ٧ رقم مقدس عند السومريين بشكل خاص؛ إلا أن ما يستوقفنا فيه هنا هو السنين السبع العجاف والسبع السمان، فقد عكست البيئة الكنعانية نظامًا دوريًّا سبعيًّا للخصوبة والجفاف.

وكان تعاقب السنين من الجفاف والجراد نقمة مروعة يحرص الكنعانيون على تجنبها بأي ثمن، وسوف نرى أن موضوع الإلهة الميتة والحيَّة ليس موسميًّا أو سنويًّا؛ ولكنه يحدث مرة كل سبع سنوات فهو يتصل بدورات من سبع سنين مخصبة وأخرى مجدبة (انظر: جوردن، ١٩٧٤م، ١٦٠).

لكن الأسطورة تظهر أحيانًا رقم ٨، ونتفق مع جوردن أن نصف القرن الواحد أي «خمسين سنة» فيها سبع دورات سبعية (٧ × ٧) تتكون من ٤٩ سنة، أما السنة المتبقية فتكون ثامنة بالنسبة للدورة الأخيرة هكذا يحتوي القرن الواحد على سنتين مجربتين إضافيتين بعد كل سبع دورات. وتشير هذه الملاحظة إلى دقة مراقبة البيئة والمناخ عند الكنعانيين.

(ج) أساطير مرحلة الضعف الجنسي

تستمر قوة إيل بالهبوط وتصل إلى مرحلة الضعف الجنسي، ويبدو أن الإله إيل في هذه المرحلة يختار العزلة في مقامه المائي عند النهرين، وتبتعد عنه زوجته «عشيرة»؛ حيث تختار منزلًا مستقلًّا، ربما كان على ضفة البحر أو النهر ولا تتصل بإيل إلا في حالات خاصة، حيث تذهب إليه بين الحين والآخر فقد أصبح إيل شيخًا لا نفع من الاتصال الجنسي معه. ويتعزز هذه الاستنتاج مع قصة أسطورة حيثية من أصل كنعاني تروي زيارة إله الطقس الحيثي «تيشوب»، وهو الإله المناظر للإله الكنعاني بعل، إلى الإله إيل الذي تسميه الأسطورة الحيثية «إيل كونيرثا» في منزله، ولا يجده هناك فتستقبله عشيرة في مخدعها وتراوده عن نفسه؛ إلا أنه يقاوم إغراءها ويشكوها إلى زوجها ويسرد على مسامعه اتهام زوجته له بأنه أصبح عاجزًا عن التصرف تجاهها، فيغضب إيل ويطلب منه أن يستجيب لرغباتها الشبقة ثم يعمل على إذلاله وتحطيم عزته (انظر: أذزارد، ١٩٨٧م، ١٦٦).

وربما كان من بعض إيحاءات هذه الأسطورة تعاظم دور الابن «بعل» وبدء سيادته وحلوله مكان الأب «إيل»، وهو ما سنراه بوضوح في أساطير المرحلة القادمة.

(د) أساطير غياب إيل

لعل أهم ما يميز هذه المرحلة اختفاء إيل المتمثل باختطافه إلى العالم مؤقتًا. فقد حدد بلوتارك مكان إقامة إيل «في جزيرة» أو «الجدبة، التي هي خلف الأوقيانوس الكروني»، وفي بعض أساطيره، أن حيتان البراري أسرته واحتجزته في إحدى الجزر القريبة من الجزائر الإنكليزية (انظر: عبد الحكيم، ١٩٧٨م، ٤٧).

وربما كانت هذه الأساطير تمهد لاختفائه الكلي في العالم الأسفل، أي موته. وهنا نكون بانتظار ظهور الإله الابن الذي يتحول إلى ملك الآلهة «بعل».

وهكذا نرى أن إيل في مكانته وقوته من مقره الأول في السماء حتى مقره عند النهرين ثم في البحر ثم غيابه في البحر نهائيًّا.

(هـ) أساطير جيل إيل

أما الآلهة المجايلة لإيل فقد أتينا على ذكر أساطيرها، فقد تحدثنا عن الآلهة الذكور (سيتون، داجون، أطلس، بتيل)، وتحدثنا عن الآلهة الإناث (عشيرة، عشتروت، ريا، بعلتيس، أنوبرت)، كذلك فقد قفزنا إلى الآلهة المجايلة لإيل من الإله «أوسوس»، وهما الإلهان دامور وملكارت.

(٣-٣) أساطير بعل

(أ) تطور شخصية بعل

قبل الدخول في دورة الأساطير البعلية علينا معرفة هذا الإله بشكل دقيق؛ لأنه يشكل جوهر العبادة الكنعانية.

كان لقب «بل» الرافدَيني يطلق على ملك الآلهة «مردوخ»، وكان يعني «السيد». ولا نعرف ما إذا كان الأموريون هم الذين ابتكروا هذا اللقب أم أنه وجد قبلهم عند السومريين، لكن هذا اللقب سرعان ما انتشر عند الكنعانيين وأصبح يطلق على إله الطقس الشبيه في صفاته بالإله «مرودوخ»؛ ولكنه أصبح يُلفظ «بعل». وكان يعني الرب، المالك، السيد، الزوج ... إلخ، وتدريجيًّا أصبح «بعل» لقبًا لكل إله. وكان بعل يلقب بعدة ألقاب في النصوص الأوغاريتية منها:

(١) **ألين:** أي العظَمة والقوة: وقد ورد لفظ «ألين قردم» أي أقوى الأبطال.

(٢) **راكب الغمام (السحاب):** وهو لقب مألوف رافدينيًّا.

(٣) **ذيل:** الأمير وقد ورد بصيغة «ذيل بعل أرض»، أمير وسيد الأرض، ومنها جاء بعل ذبوب أي سيد الذباب أو صائد الذباب.

(٤) **علي:** المرتفع ويقصد به السحاب. ورد في ملحمة كرت، ومنه جاء لقبا «عليون» و«عاليان».

(٥) **جمر:** وكان يرد بصيغة «جمر هدد» و«جمر علي».

(٦) **هدد:** بمعنى الطقس أو المطر، وهو لا علاقة له بالإله السومري «أدد».

(٧) **ابن داغون:** يرد أحيانًا بهذا النسب، حيث ينسب إلى الإله داغون إله الغيوم والحبوب والأسماك الذي يناظر الإله إيل، ولكي يتم التفريق بين عبادة إيل الخيرة، وعبادة بعل المدنسة بشكل خاص عند الأوغاريتيين.

لقد حصل خلط كبير في شخصية الإله بعل سببه جهل الكثير من الباحثين وعدم دقتهم في تناول شخصيته، ولعل أهم أشكال هذا الخلط دمجه المبكر مع الإله «هدد»، وهو الإله الآرامي، والذي لم يحصل إلا في عصور متأخرة جدًّا، وربطه بالثور أو الأسد وهو ما نتحفظ عليه تمامًا.

ولكي نراعي الدقة ذهبنا إلى آثار أوغاريت الأقدم والأعرق فوجدنا عدم ارتباط اسم بعل مع هدد (ربما يرد لقب هدد نادرًا لتقريب صورة بعل)؛ ولكنه لا يلازمه مطلقًا. ثم إن المنحوتات المعدنية القديمة لبعل في أوغاريت هي الفيصل في هذا الموضوع، فقد ظهرت أقدم هذه المنحوتات مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد (انظر الشكل ٢-٢٤)، حيث يظهر بعل على قدميه يمد يديه إلى الأمام أو يمد يدًا ويُسدل أخرى، أما غطاء الرأس فيظهر بسيطًا مثل حز في الرأس مع أنف منقاريٍّ، أو أن غطاء الرأس مخروطيٌّ مع وجه صغير وجسد نحيل.

شكل ٢-٢٤: صور تماثيل مختلفة للإله بعل.

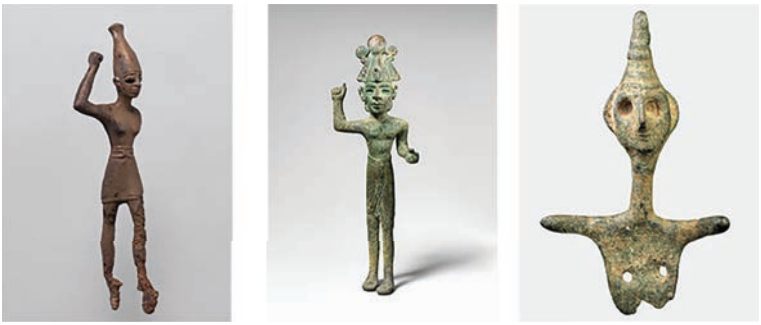

شكل ٢-٢٥: تماثيل مختلفة للإله بعل.

وفي حدود منتصف الألف الثاني قبل الميلاد (حوالي ١٥٠٠ق.م.) لا يظهر مع بعل أي حيوان كالثور أو الأسد، بل نشاهد الشكل العنيف القاسي لبعل (وهو ما يناسب صفاته)، ويسمى عادة «بعلو الجبار» حيث يظهر بخوذة مدببة أو مخروطية، ويبدو قصيرًا. ويقف غالبًا وهو يمد يده اليسرى ويرفع يده اليمنى. ويبدو وجه الإله بعل شيطانيًّا بعيون غائرة أو جاحظة مشوهة وفم مفغور.

شكل ٢-٢٦: رسم تماثيل الإله بعل من رأس شمرا (أوغاريت).

شكل ٢-٢٧: صورة نصب الإله بعل وتخطيطه، وهو يحمل باليد اليمنى الهراوة وباليسرى الرمح المورق ويقف على العالم الأسفل (من أوغاريت، متحف اللوفر بباريس).

ثم يستقر شكل الإله بعل على ذلك الكائن الذي يعتمر قبعة مخروطية تتشابه أحيانًا مع غطاء الرأس المصري بسبب الصلات الثقافية بين مصر وكنعان، وفي الغالب تبدو مستقلة مخروطية تميل إلى أن تكون مدببة، وما زال الإله راجلًا دون أن يعتلي على حيوان. أما ما يمسكه في اليد اليمنى فمفقود، وكذلك في اليد اليسرى المدودة ... وتكاد هذه الحركة (رفع اليمنى ومد اليسرى) هي التي تسيطر على شكل البعل من الآن فصاعدًا (شكل ٢-٢٤).

ونرى الصورة الشائعة جدًّا عن بعل (الكنعاني/الأوغاريتي) في نصب اكتشف في رأس شمرا (أوغاريت)؛ حيث يظهر الإله بعل وهو يحمل باليد اليمنى هراوة وباليسرى الرمح المورق، حيث يظهر قسمُه الأسفل كرمح نابت على الأرض أما الأعلى فيظهر كغصن

تمثال الإله الحيثي تيشوب

رسم تمثال الإله حدد يمسك صاعقة مثلثة الشعاب

رسم تمثال الإله حدد يمسك صاعقتين مزدوجتين من أرسلان طاش

شكل ٢-٢٨: إله العاصفة مع الثور وشوكة الصاعقة.

مورق، ولا نميل إلى الخلط بين الرمح المورق ورمز الصاعقة (البرق) الذي اعتاد أن يظهر به هدد وليس بعل.

أما القبعة المخروطية الشكل فيظهر لها قرنان يرمزان إلى الألوهية، وربما الخصب. ويتدلى شعر الإله من تحت الخوذة على شكل جديلتين معقوفتين. ويظهر شعر لحيته كثيفًا فوق صدره. ويظهر بعل بتنورةٍ قصيرة مخططة تحمل خنجرًا تصل نهايته عند رأس تمثال صغير لا يعرف مغزاه، ويقف بعل على أرض تشير تلولها المخططة على أنها العالم الأسفل. ونرى أن هذا النصب يمثل الصورة المثالية لبعل الكنعاني قبل اختلاطه بأشكال أخرى.

منذ بدايات الألف الأول قبل الميلاد طرأ تغيير جوهري على شخصية بعل الكنعانية عندما بدأت بالاختلاط بآلهة الطقس والعاصفة المشابهة له، وخصوصًا الإله الآرامي هدد (حدد)، الذي اندمج معه وشكل الإله «بعل حدد» الذي ركب ثورًا وأمسك صاعقة شوكية

إله العاصفة الآشوري أدد　　إله العاصفة الحيثي تيشوب　　إله العاصفة الحوري تاهوندا

شكل ٢-٢٩: آلهة العاصفة والطقس المحيطون بإله الطقس الكنعاني بعل.

مفردة أو مزدوجة. وفي الشكل نلاحظ إله العاصفة يتشوب وهو يقف على ثور، ويمسك شوكة مفردة قصيرة، ويرفع بيمناه فأسًا، ونرى فوقه قرص الشمس المجنحة. كذلك نرى الإله حدد الآرامي يمسك شوكة مفردة طويلة، ويقف على ثور، ثم نراه يمسك شوكتين مزدوجتين في أرسلان طاس شمال سوريا. هذه الصور الثلاثة ليست للإله بعل بل لآلهة مجاورة تشبه بعلًا ستختلط صورتها مع بعل لاحقًا.

ولكي نوضح الصورة أكثر نرى في (الشكل ٢-٢٩) آلهة الطقس الأخرى: الآشوري «أدد» وهو يحمل صاعقتين مزدوجتين وله صور كثيرة يركب على الثور. إله العاصفة الحيثي «تيشوب» الذي يحمل صاعقة مفردة، وكذلك إله العاصفة الحوري «تاهوندا»، ثم إله العاصفة الآرامي «هدد»، وكل هذه الصور امتازت بظهور الشوكة المفردة أو المزدوجة في اليد اليسرى، والتي لا علاقة لها بالرمح أو الرمح المورق في يد بعل. ثم ظهور الفأس في اليد اليمنى والتي لا علاقة لها بالهراوة في يد بعل.

وعندما تظهر هذه الآلهة ممتطية الثور فإن بعل يبقى دون حيوان يرافقه أو يركب عليه. وهذه فروق آثرنا توضيحها بالصور بسبب الخلط الكبير الذي تسببه النظرة العامة، والتي تطمس ملامح بعل بملامح غيره من الآلهة القريبين منه عند الأقوام الأخرى مما يسبب لبسًا خطيرًا في دراستنا له.

في المرحلة الهيلنستية ثم الرومانية تغيرت المسألة باتجاه جديد تمامًا؛ فقد دمجت شخصية بعل الكنعانية أو بعل حدد الكنعانية الآرامية مع الإله «زوس» الإغريقي و«جوبتر» الروماني. وهكذا تحول الإله «بعل بقاع» وهو «بعلبك» (شكل ٢-٣٠)، حيث يظهر بغطاء رأس مركب يحتوي على طبقتين من القرون حلزونية وجانبية حادة ويرفع يده اليمنى إلى الأعلى، ثم بعلبك بشكل الثور الذي اكتشفه رزنفال وسماه الرومان جوبتر كابتولان، أو الإله الصالح الأعظم ثم جوبتر هليوبوليتانوس الذي يحتوي في جسده مشاهد آلهة كثيرة.

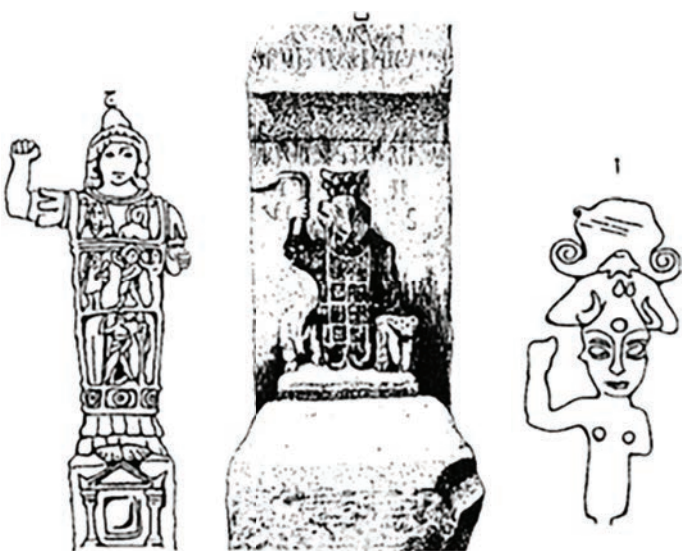

شكل ٢-٣٠: الإله بعل بقاع (بعلبك). (أ) جزء من تمثال برونزي وجد في بعلبك (متحف اللوفر في باريس)، (ب) تمثال حجري في دير القلعة في بعلبك واسمه «جوبيتر كابتوليان»، أو الإله الصالح الأعظم (جوبتر أوبتموس ماكسموس)، (ج) تمثال برونزي في بعلبك يمثل جوبتر هليوبوليتانوس (متحف اللوفر، باريس).

(ب) دورة أساطير بعل

من أجل تتبع منطقي لأساطير بعل سنقوم برسم مخطط فرضي يناسب أساطير بعل ويحصيها بشكل متسلسل:

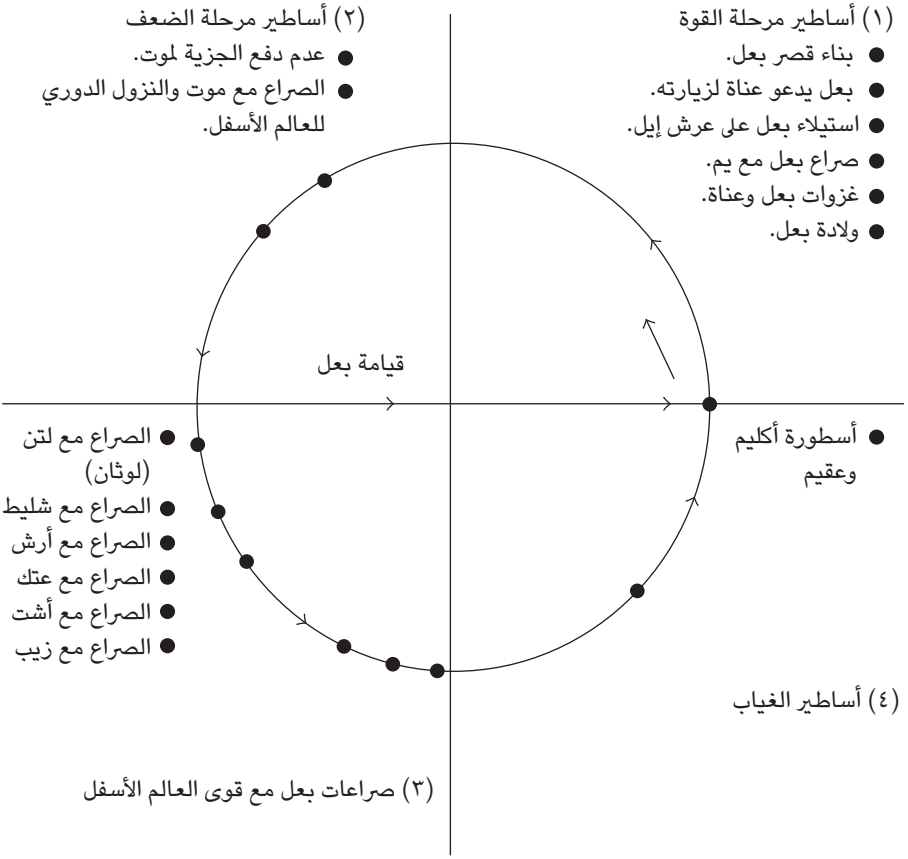

مخطط (٦): الدورة المثولوجية للإله بعل.

(١) أساطير مرحلة القوة

لا نملك أسطورة محددة عن ولادة الإله بعل؛ ولكننا بشكل عام نعرف أن هذا الإله ولد من تزاوج الإله إيل مع عشيرة، وقد وصفته إحدى النصوص: الثور إيل أب بعل. وهكذا يكون بعل عجلًا في صباه وثورًا في نضجه. وإذا كانت بعض النصوص تصف بعلًا بأنه ابن داجون (دجن) فمرد ذلك هو المساواة بين «إيل وداجون»، أو جعل بعل «الشرير» من غير نسل إيل «الطيب». ويظهر بعل الكنعاني/الأوغاريتي واقفًا على العالم الأسفل وبيده رموز قوته، وهما الرمح المورق والهراوة والخنجر في حزامه.

ويظهر الإله بعل برفقة الثور في بعض المنحوتات الكنعانية؛ لكنه يظهر واقفًا على رموز العالم الأسفل في أوغاريت، ورغم ذلك كان بعل يقوم بمعاشرة البقرة جنسيًّا وينجب منها البعول، وهذا يشير إلى قدرته الجنسية وأثرها على إخصاب النباتات والحيوانات والإنسان.

(أ) بعل الفتى

انتزع بعل لقب الثور من أبيه إيل بعد أن احتل عرشه، وهناك ما يشير إلى أن بعلًا خطط للهجوم على إيل وانتزع منه العرش، إلا أن إيل خطط هجومًا مضادًا وكسب إلى جانبه إله البحر «يم» الذي سمح ببناء قصر له واعترف به من أبنائه.

هكذا يشب بعل ويدخل هو وأخته «عناة» المعارك ويكسبانها؛ حيث تذكر إحدى الأساطير أن الإلهة عشيرة كانت منهمكة بإعداد أحد الطقوس الدينية حيث تدير رأس مغزلها وتتعرى لترمي بثيابها المتساقطة إلى البحر، ثم ترتب صفًّا من الآنية على النافذة وتبتهل إلى الإله «إيل» الغائب عنها. وعندما يطول انتظارها تتوجه إليه، وفي وقت لاحق يفاجئانها «بعل وعناة» بحضورهما إليها فيسقط المغزل من يدها وتصاب بنوبة صرع خوفًا من الأخبار السيئة؛ لكنها تستعيد وعيها عندما ترى الذهب والفضة مقدمان إليها من بعل عناة، وعندها تهلل فرحًا (انظر: أذزارد، ١٩٨٧م، ١٦٥).

ومعروف أن اسم بعل مأخوذ من كلمة «بل» التي كان يلقب بها الإله البابلي «مردوخ» وتعني «السيد» أو «الزوج»، وأصبح «بعل» مناظرًا للإله مردوخ في صفاته، حيث أصبح إله طقس كنعانيًّا، وهو يذكرنا بجذر مردوخ الطقسي، وهو الإله إنليل السومري إله الهواء والطقس.

(ب) أسطورة صراع «بعل» و«يم»

وهي كما عرفنا سابقًا جزء من أسطورة الخليقة الكنعانية، وتضعنا هذه الأسطورة بصيغتها الكنعانية الحالية أمام حال لا مناصَ من قبوله، وهو تحول الإلهة «يمو» إلى الإله «يم» إله البحر، وظهور تقارب بينه وبين الإله «إيل» وعداوة مع الإله «بعل». وهكذا يطلب «يم» من «إيل» السماح له ببناء قصر له، ويحصل على موافقة إيل بعد تردد، ثم يقوم «يم» بإرسال رسله إلى الآلهة المجتمعة برئاسة «إيل» ليحضروا له بعلًا ويوافق مجلس الآلهة على تسليم «بعل» الذي يثور ويزمجر ويهم بإشهار أسلحته:

«إيل فحل أبيه يجيب:
بعل عبدك يا يم،
بعل عبدك إلى الأبد،
ابن داجون رفيقك
سوف يحمل تكريمك كالآلهة،
نعم يحمل قرابينك كأبناء القداسة.
ولماذا يجد بعل الخيانة لجبن أبي الآلهة المبجل المخرف، مع ذلك يندفع في سورة من غضب.
و«يمسك سكينًا» في يده سكين جزار في يمينه؛
ليذبح الرسل» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٦٨).

ثم تقوم الإلهتان عناة وعشترتي بمنعه من ذلك، حيث ينقطع النص لنلمح في اللوح الآخر الإلهين الحصانين الماهرين «كوثر وخاسيس» وهما يصنعان الأسلحة السحرية للإله بعل، وهي «همدم» وربما كان النير أو اللجام الذي يستعمل لصيد أو كبح فرس البحر المجنح، والسلاح الآخر هو «يجرش» التي هي عصا الضربة الأولى على الكتف، ثم السلاح الثالث وهو «أيمر» وهو عصا الضربة الثانية بين العينين؛ حيث يتهاوى العدو صريعًا، ثم يوصف لنا الصراع بين بعل ويم، حيث يستخدم بعل هذه الأسلحة الثلاثة:

«تنقض العصا من يد بعل،
كالصقر من أصابعه،
فتضرب منكبي الأمير يم

بين يدي النهر القاضي ...
فتنقض من يد بعل،
كالصقر من أصابعه،
فتضرب رأس الأمير يم
بين عيني النهر القاضي،
فيترنح ويسقط على الأرض» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٧٠).

وهكذا يقتل بعل يم ويقوم عشترتي بتعنيف بعل لأنه قتل يم. وينتزع منه ملكية الآلهة التي كاد يأخذها من إيل ويحرمه منها، وقد كان «يم» مقربًا من «إيل»؛ حيث تصفه النصوص بـ «حبيب إيل»؛ حيث كان يعده إيل لمواجهة طموحات ابنه الشاب «بعل». وبذلك يكون انتصار بعل خذلانًا لإيل وتنحيًّا منه للوكية بعل. وهذا يعني أنه لم يتم قتل «إيل» كما فعل هو مع أبيه؛ بل كان هناك تنازل عن العرش ثم تشعرنا النصوص أن إيل قد غاب نهائيًّا في الجزر النائية أو في العالم الأسفل. ربما!

وقد نوهنا أكثر من مرة أن هذه الأسطورة وأسطورة بناء بيت بعل تشكلان جزءًا من ملحمة الخليقة الكنعانية المفقودة، والتي شُوهت وحصلنا على بعض ألواحها التي تبدو مستقلة عن الخليقة الكنعانية التي فصلناها في بداية هذا الفصل.

بعل يدعو عناة لزيارته (الكشف عن سر الطبيعة)

رغم أن عناة ترافق سيرة بعل بأكملها؛ فهي أخته وزوجته وعشيقته، لكن عناة كانت تظهر مزاجًا حادًّا وعنيفًا، ورغم أنها تمثل الزواج الشرعي وتسمى «عناة الخطابة» حيث تمثل عشتروت أو عشتارت المعاشرة الجنسية الإباحية رغم كل هذه الصفات، لكن عناة تحتفظ إلى النهاية بقوتها الخاصة الماحقة.

ونرى أن اسم عناة مشتق من اسم «إنانا» حيث تم تحويل حرف الخاء حيث يشتركان في مخرج صوتي واحد، ثم تم تأنيثها بإضافة «ت» فأصبحت عنانات، التي اختصرت فتحولت إلى «عناة»، وأنانا إلهة الحب والجنس السومرية الشبقة، التي كانت تظهر أيضًا صفات حربية قاسية في وجهها الآخر كما عناة. ولا نرى في تفسير معنى اسم عناة عبريًّا «عنوة» بمعنى العناية والتبصر، أو الغاية والهدف، وآراميًّا بمعنى الشأن والمهمة والعمل، وعربيًّا بمعنى العناية دلالة على عنايتها بحبيبها وأخيها بعل، كما يذهب

إلى ذلك أذزارد، لا نرى في كل هذه المرجعيات دقةً؛ لأن الجذر السومري للاسم هو الأبعد وهو الأقوى؛ بل هو الدال على «ملكة السماء»، وهو ما يتطابق مع صفات «عناة».

لقد كانت أسطورة عناة وبعل تتجلى في تلك الألواح التي تتحدث عن عناة كربَّة للصيد والحرب (مثل أرتميس أو ديانا عند الإغريق والرومان)، فقد كانت رائحة الصيد تملأ أجواء وأبواب بيت عناة، وهكذا تنطلق بداية النص من عزم على إبادة أهل المشرق وأهل المغرب لسبب نجهله، وهي تشبه في سلوكها هذا الإلهة المصرية «سخمت» في أسطورتها عن إبادة البشر.

وتؤدي عناة معركتين من معاركها ببسالة وقسوة، فتبدأ بالمعركة الأولى التي تمتاز بدمويتها:

«من تحتها «طارت» رءوس كالعُقبان.
ومن فوقها «طارت» أيدٍ كالجراد.
تنزل حتى الركب في دماء الأبطال
عاليًا حتى العنق في دماء الكتائب» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٧٣).

ثم تبدأ المعركة الثانية التي تمتاز بالإضافة إلى دمويتها بأسلوب الشجار ورمي الأثاث.

«تحارب بعنف
وتعترك مع أبناء المدينتين
وتقذف بالكراسي على الجيوش
والمواطئ على الكتائب» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٧٤).

وهناك من يرى أن معنى اسم عناة هو «سيدة الجبل»، وربما كان هذا قريبًا من الصواب أيضًا (شكل ٢-٣١). بعدها تحقق عناة النصر وتبسط كبدها بالسرور، ويمتلئ قلبها بالحبور؛ لأن في يدها الانتصار. ثم تقوم عناة بغسل يدها في دماء الجنود، وأصابعها في دماء الكتائب، غير أن بركات السلام تعقب ذلك فتستنبط من الطبيعة ماءً وتغتسل بالندى من السماء، بالدهن من الأرض، وبالمطر من راكب السحب (بعل). وكل هذه العلامات تشير إلى خصوبة الطبيعة ووفرة الصيد.

وفي هذه الأثناء يبعث «بعل» برسالة إلى «عناة» يخبرها فيها بأن تكف عن القتال وتجنح نحو السلام، ويعدها بأن يكشف لها سر الطبيعة ويُعلمها فنونها إن هي حضرت إلى مسكنه الجبلي:

«إليَّ ... دعي أقدامك تسابق.
إليَّ ... دعي أرجلك تسرع؛
لأن عندي كلمة أخبرك بها،
كلمة الشجرة وهمس الحجر،
وصوت السماوات للأرض،
والأعماق للنجوم.
إنني أفهم البرق الذي لا تعرفه السموات،
والكلمة التي لا يعرفها الرجال،
ولا كذلك تفهمها جماهير الأرض.
تعالَي وسوف أكشفها لك
في وسط جبلي، الإله صفون
في المحراب، في جبل ميراثي،
في المكان الطيب على تل القوة» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٧٥-١٧٦).

شكل ٢-٣١: الإلهة عناة في بزتها المحاربة كصيادةٍ، حيث تشبه ملابسها ملابس بعل وخوذته، وهي تقف على جبل، تخطيط: فاروق كاظم.

حاول العلماء تفسير عناة بأكثر من رأي «فمنهم من فسرها على أن القتلى هم رسل وأتباع إله الموت والجفاف، وبعضهم الآخر، وعلى رأسهم الأستاذ «دومر»، الذي رأى في حمام الدم هذا طقسًا من طقوس الولادة الجديدة، وتعبر عن ظاهرة التضحية بالبشر التي كانت تقوم بها النساء بشكل أساسي في عصور أقدم، ولا يبتعد الأستاذ «غرابي» في تفسيره للحادثة عما سبق؛ إذ إن المذبحة التي قامت بها عناة حسب رأيه لا يمكن أن تكون بلا سبب ولمجرد إرضاء نزعة بواسطة فعل طائش من طقوس العبادة التي كانت تقام سنويًّا في نهاية فصل الخصب لتجديد دماء الحياة» (أذزارد، ١٩٨٧م، ٢٣١).

ونحن نرجح الرأي الأخير، فهذا هو الوجه المحارب والقاسي من وجوه الإلهة الأنثى تظهره عندما يختل توازن الطبيعة ويسود الشر أو الجدب؛ لأن الحياة المعبر عنها بالدم تمثل الخصب رمزيًّا.

وتمضي الأسطورة عندما تستقبل عناة رسولَي بعل «جوبان» و«أوجار» اللذَين يُبلغانها برغبة بعل في لقائها؛ لكنها ترتاب أولًا ثم تبدأ بذكر انتصاراتها على أعداء بعل ومؤازرتها له ضد «يم، النهر، التنين، الأفعوان الأعوج، الوحش ذي الرءوس السبعة، إيل زبوب» الذين سنذكر أساطيرهم مع بعل لاحقًا. ثم تقبل دعوة بعل وتتوجه حالًا إلى جبل صفون، وهو مقر بعل، وتصل إلى هذا الجبل ويكرمها بعل بثور مشوي وذبح سمين، فتستنبط الماء وتغتسل بندى السماء ودهن الأرض، الندى الذي تصبه السماء والمطر الذي تصبه النجوم، ويتقاطر حيوان الصيد لسعادتها لأنها سيدة الخصب والصيد.

ثم يكشف لها بعل «سر الطبيعة» وهذا يتفق مع بداية الأسطورة ويفسرها أيضًا، فبعد أن عمدت عناة الطبيعة المجدية بالدم الحي الذي هو شكل الحياة، أي بعمل شعائري مباشرة يعتمد على الأضاحي البشرية يدعوها «بعل» إلى الكشف عن سر الطبيعة سلمًا، وعن قوتها المخصبة الأبدية، وربما كان ذلك عن طريق الجنس الذي يشكل نمطًا معرفيًّا طبيعيًّا في العالم القديم. ولكن بعل يطلب منها في مقابل ذلك أن تتوسط له عند أبيها «إيل» ليبني بعل قصره الذي يريد، فهو ما زال يسكن جبل صفون ولكنه يحتاج إلى بناء قصر له يتناسب مع مكانته ويساويه مع بقية الآلهة.

(ج) بناء قصر بعل

تستجيب عناة لطلب بعل وتؤكد له أنها ستفعل ذلك وستذكر «إيل» بأن لكل الآلهة قصورًا، ولذلك يجب بناء قصر للإله بعل وإذا رفض إيل ذلك فإن عناة ستهدده بأن تدوسه كالشاة على الأرض وستجعل شعره الأشمط يقطر دمًا وتخضب لحيته بالدم.

وتذهب عناة إلى مسكن أبيها عند النهرين الكونيَّين ومنبعهما الغَوريَّين وتطلب منه ذلك؛ لكن إيل لا يستجيب لها فتهدده بعنف فيختبئ في أقصى غرفه الداخلية خوفًا من ابنته الوحشية ويكرر عليها السؤال، فتجيبه ومن ورائها عشيرة وأبناؤها ليضموا صوتهم إلى صوتها:

«وأجابت عناة العذراء:
إن كلمتك يا إيل حكيمة،
وحكمتك إلى الأبد.
الحياة السعيدة كلمتك،
ملكنا عليان بعل،
قاضينا الذي لا أحد فوقه.
هناك تصبح عشيرة وأبناؤها،
الآلهة والجماعة من أقربائها.
بعل ليس له بيت كالآلهة،
ولا بلاط كأبناء عشيرة» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٨٠).

وفي النهاية يذعن إيل لمطالب الإلهة ويأذن ببناء قصر بعل ... وإذا عدنا إلى أسطورة الخليقة البابلية فإننا نرى أن مردوخ بعد انتصاره على تيامت يتوج ملكًا على الآلهة، ويطالب مباشرة ببناء قصر له يكون منزل سعادته وفي داخله يؤسس مكان العبادة والحجرة المقدسة حتى يتاح له تأكيد ملوكيته، واستقبال الآلهة، وأن يكون اسم القصر هذا هو اسم بابل نفسه، الذي يعني «باب الآلهة» أو «حي الآلهة» (انظر: لابات، ١٩٨٨م، ٥٩).

وهكذا ينقل الآلهة أوامر إيل إلى الإله الصانع «كوثر وخاسيس» ليقوم ببناء القصر لبعل.

ويمكننا (لأغراض الدرس والتحليل) تقسيم مراحل بناء قصر بعل إلى المراحل التالية:

(١) جميع المواد الأولية والأثاث: حيث نشاهد مجموعة من آلهة البناء تقوم بجمع هذه المواد، مثل الذهب والفضة واللازورد وشجر الأرز والموائد والآنية والكراسي ... وغير ذلك. وهنا نشاهد الطبيعة هي التي تأتيه بهذه المواد:

«حتى تأتيك الجبال بالفضة الكثيرة،
والتلال بأحسن الذهب،

وتبني بيتًا من الفضة والذهب؛
بيتًا من اللازورد» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٨٢).

(٢) حفلة ما قبل البناء التي يحضرها «كوثر وخاسيس» مع الإله بعل، حيث تذبح الماشية وتصب الكئوس، وبعد شرب النبيذ والعشاء يأمر بعل إله البناء ببناء القصر في الحال وسط مرتفعات صفوان، على أن تكون مساحة المكان ألف فدان، والقصر عشرة آلاف هكتار «وتذكر نصوص أوغاريت أن جبل صفون هو مقر الإله بعل، وقد بنى له الإله كوثار قصرًا فوقه، ومن علياء سكناه كان يدير شئون العالم، وهناك وارته الثرى أخته عناة عندما تمكن منه الإله «موت» وأرداه قتيلًا، ويرى كثير من الباحثين في جبل الأقرع، الذي يبعد حوالي ٥٠ كم شمال أوغاريت عند مصب نهر العاصي جبل صفون، المقصودَ في الأساطير» (أذزارد: ١٩٨٧م، ١٨٥).

وقد تحول اسم هذا الجبل عند الحيثيين إلى جبل «حازي»، وتدور عليه أسطورة إله الطقس الحيثي «أوللي كومي»، وتحول «حازي» إلى «كاتيوس» في المرحلة الهيلنستية، ودارت عليه أسطورة إله العاصفة «زيوس كاسيوس»، واستمر كذلك في المرحلة الرومانية ثم احتفظ بقدسيته في الديانة المسيحية حتى العصور الوسطى.

ويظهر جبل صفون كإله مقدس تقوم له الذبائح ويذرف الدموع على الملك المريض. كذلك يظهر اسم بعل مرتبطًا به باسم «بعل صفون» الذي وصلت عبادته إلى مصر.

ونرى أن العبريين اتخذوا لإلههم القومي «يهوه» جبلًا يقترب اسمه من صفون هو «جبل صهيون» ومعروف أن يهوه شكل من أشكال بعل، أو إله من آلهة الطقس والعاصفة في بلاد الشام.

(٣) بناء القصر والخلاف على نافذته: يبدأ الإله كوثر ببناء القصر، ويبنيه كوثر على طراز القصر ذي النافذة؛ ولكن بعل يرفض ذلك خوفًا من قيام الإله المقتول «يم» ودخوله من النافذة، وخوفًا من تعريض بنات بعل (بدراي، طلاي، أرضاي) لأجنبي قد يطمع فيهن؛ ولكن كوثر يقول لبعل بأنه سيعود ويصنع نافذة لقصره، وبعد الانتهاء من القصر توقد النار فيه لمدة سبعة أيام دون أن تُطفأ، وبعد انطفاء النار تطلى جدران القصر بالذهب والفضة.

(٤) حفل ما بعد البناء: وبعد الانتهاء من بناء القصر يدعو بعل أصدقاءه من الآلهة لمأدبة عظيمة احتفالًا بالحادث، ويتحول العجول والشياه والماعز والذبائح السمينة والعجول الحولية تكريمًا لضيوفه، ويَحضر أبناء عشيرة السبعون، وكذلك آلهة الحيوانات والأشياء المشخصة. ويسقيهم بعل النبيذ:

«سقى «بعل» الكباشي من الآلهة نبيذًا
وسقى الشاة من الآلهة نبيذًا،
وسقى العجول من الآلهة نبيذًا،
وسقى الكراسي من الآلهة نبيذًا،
وسقى العروش من الإلهات نبيذًا،
وسقى الجرار من الإلهات نبيذًا» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٨٤).

(٥) بعل يستولي على تسعين مدينة: بعد انتهاء الحفل يهيمن بعل على الأرض ويستولي على ٩٠ مدينة. وهو ما يجعله يزداد ثقة بنفسه وأمانًا من حوله، فيأمر كوثر بفتح نافذة في القصر فيذكره كوثر بأن رأيه كان هذا منذ البداية، ولعل وظيفة النافذة هنا والإطار وسط القصر مرتبطان بوظيفة بعل الطقسية السماوية، حيث يفتح بعل طاقات السماء، وكانت تجري طقوس حقيقية في معبد لأجل ذلك.

(٢) أساطير مرحلة الضعف

(أ) أسطورة صراع «بعل» و«موت»

تبدأ هذه الأسطورة من حيث انتهت أسطورة بناء القصر، فبعد أن فتح بعل النافذة والإطار تَظهر النُّذُر الكارثية بسقوط المطر وظهور الرعد والعواصف. وكأن سطوع قصر بعل يغيظ أعداءه فيقومون بالاستيلاء على الغابة وسفوح الجبال، ويظهر صوت الإله «موت» إله العالم الأسفل وهو يصرخ: «أنا وحدي الذي سيحكم الآلهة؛ بل ويقود الآلهة والناس ويسيطر على شعوب الأرض». ويخاف بعل من تهديد «موت» ويرسل رسولَيْه «جوبان» و«أوجار» إلى «موت» للتفاوض معه ويحذرهما من أن يبتلعهما موت أحياء.

وموت هذا هو إله الموت الكنعاني، والذي نرى أن اسمه مشتق من اسم «تيامت» وأنه مع اسم «يم» وجهان لاسم تيامت، فبينما يمثل اسم «يم» الماء والحياة يمثل «موت» الجفاف والموت.

ويدعى المكان الذي يسكن فيه «موت» في العالم الأسفل «حمري»، والتي ظهرت فيما بعد في الدين العبري تحت اسم «محمروت» أي «نار الجمر»، وتقابلها في العربية «جهنم الحمراء».

وتصور تماثيل موت بأنه يرتدي تنورة قصيرة ذات نطاق علق عليه سيف، وينتعل حذاءً معكوفًا من الأمام، ويحلي جيدَه عقدٌ ويحمل، بيسراه رُمحًا برأس إلى الأعلى، ويحمل بيمناه صولجانًا يشبه صولجان الإله المصري «أوزيريس». ويعتمر الإله موت قبعة سنبلية الشكل (تشبه الريشة، أو تشبه تاج مصر السفلي)، وينهض فوقه شكل يشبه شجرة رمزية (شكل ٢-٣١).

ولا نعرف السبب الرئيسي الذي جعل موت يهدد بعلًا، ولكن هناك إشارات تقول إن بعل بعد استقراره في قصره المحتفى به مع زوجته عناة وبناته الثلاث ينطلق صوته من نافذة قصره مجلجلًا مدويًّا يهز أركان العالم ويبث الرعب في قلوب أعدائه، وعند ذاك يعلن بعل بأنه لن يدفع من الآن فصاعدًا الجزية إلى الإله «موت»، ويقوم بإرسال هذه الرسالة إلى الإله «موت» عبر رسولَيْه «جوبان وأوجار»؛ ولكنه يحذرهما بأن موت يمكن أن يبتلعهما كما يبتلع الخروف. ويتضح نهم «موت» في جوابه للإله بعل عندما يقول بأن شهيته لا يمكن إشباعها، وأنه سوف يبتلعه كما يبتلع حبة الزيتون، ثم يفتح فاه من أقاصي الدنيا إلى أقاصي السماء، ويلعق بلسانه نجوم المساء (انظر: أذزارد، ١٩٨٧م، ٢٢٤).

ويترافق استدعاء موت لبعل مع انتصار بعل على «لوياثان» ذي الرءوس السبعة، وتفسير ذلك أن موت الإله الأكبر للعالم الأسفل شعر بأن آلهة العالم الأسفل، مثل لوياثان، سينقرضون إذا ظل بعل ينتصر عليهم بهذه الطريقة، وأنه لا بد من وضع حد له وإنزاله هو نفسه إلى العالم الأسفل. ونستغرب من الموافقة النهائية لبعل واستجابته دون مقاومة لطلب موت:

«لقد خشيه عليان بعل،
لقد خافه راكب السحاب،
وعاد الكلام إلى الإله موت،
ونقلت إلى البطل حبيب إيل
رسالة عليان بعل،
جواب المحارب الشديد:
يا أيها الإله موت
إنني عبدك، بل لك إلى الأبد» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٨٦).

شكل ٢-٣٢: الإله موت بقلنسوته السنبليَّة المقرَّنة وهراوته ورمحه وخنجره.

وهكذا ينزل بعل إلى العالم الأسفل ومعه سحبه ورياحه وأمطاره وسبعة من خدمه وثمانية خنازير وثلاث زوجات؛ ولكنه قبل أن يصل إلى أرض العالم الأسفل يضاجع عجلة وينجب منها عجلًا ... ثم ينقطع النص ونرى بعل ملقًى على أرض «حمري»، أي العالم الأسفل الكنعاني.

يحمل الرسولان الخبر إلى الأب «إيل» فينزل من عرشه ويجلس على موطئ القدمين، ثم على الأرض ويصب رماد الحداد على رأسه، ويتشح بثوب خاص للحداد، ويهيم حزنًا وسط الجبال والغابة.

أما عناة، أخته وحبيبته وزوجته، فتهيم حزنًا حتى تعثر على جثة بعل القتيل، وتقيم مراسيم التعازي والحداد، وتخدش وجهها وذراعيها بمرارة ولوعة، ثم تساعدها إلهة الشمس «شبش» لتنقل جثمان أخيها إلى جبل صفون لتدفنه مع الأضاحي تكريمًا له، ثم تتقدم عناة إلى مسكن إيل وعشيرة وتصرخ بسخرية ومرارة: «لتفرح عشيرة وابنها وأقاربها؛ فقد مات بعل وهلك سيد الأرض».

وهكذا يفرغ مكان بعل ولا بد من اختيار إله بديل مكانه، فيقع الاختيار على «عثتر» أحد أبناء عشيرة ليكون خليفة بعل على عرشه، فيصعد إلى جبال صفون ويجلس على عرش بعل فلا تصل قدماه إلى موطئ القدمين، ولا يصل رأسه إلى قمته فلا يستطيع ملأ الفراغ الذي أحدثه غياب بعل.

تطلب عناة من «موت» أن يعيد «بعلًا» فيسخر منها ويُعرض عنها فتصعد روح الانتقام فيها وتنقض فجأة عليه، وبسرعة خاطفة تشطره بسيفها وتحرقه بنارها وتطحنه برحاها، ثم تنثر رماد جثته على الحقل وتزرعه، ويكون جسد موت بمثابة سماد الأرض الذي يبث الحياة في الأرض ويكون مقدمة لبعث بعل.

يتخيل إيل حُلمًا يتضمن عودة بعل إلى الحياة وعودة خصوبة الأرض، وكأن هذا الحلم هو نبوءة لبعث بعل وعودة خصوبة الأرض. ثم ينقطع النص ويظهر الإله بعل بعد ذلك وهو يخوض معارك عدة ضد بعض الآلهة في محاولة لاستعادة عرشه.

وبعد مرور سبعة أعوام يظهر «موت» مزمجرًا بعد أن استرد أنفاسه والتأمت جراحه التي سببتها له عناة فيطالب بعل بالمنازلة:

«بسببك يا بعل رأيت العار.
بسببك رأيت البعثرة بالسيف.
بسببك رأيت الاحتراق بالنار.
بسببك رأيت الطحن في الرحى.
وسرعان ما يشتبك موت وبعل في صراع مميت.
إنهما يشتبكان كأفراس النهر.
موت قوي وبعل قوي.
إنهما يتناطحان كالجاموس.
موت قوي وبعل قوي.
إنهما يعضان كالأفاعي.

موت قوي وبعل قوي.
إنهما يركلان كالمتسابقين.
موت بأسفل وبعل بأسفل» (جوردن، ١٩٧٤م، ١٩٠).

وبعد أن يستنفد الإلهان قوتيهما تشرق الشمس وتظهر الإلهة «شبش» وتتدخل بينهما وتخبر موت موبخة إياه بأن إيل سينتزع منه دائم عرشه، ويكسر صولجان حكمه إذا استمر في قتال بعل، فيترك موت قتال بعل، ويستعيد بعل عرشه وتعود، سبع سنوات من الخير والوفرة والخصوبة.

ويبدو أن الكنعانيين قد توصلوا من خلال مراقبتهم للحياة الزراعية في أرضهم أن دور الخصب كان يدوم سبع سنوات فربطوها بموت «موت» وعجزه عن مجابهة بعل، وبعد انقضاء هذه المدة يعود القتال بين بعل وموت من جديد، وينتصر موت على بعل الذي يختفي في العالم السفلي، فتنحبس الأمطار وتجف الأرض ويموت البشر والحيوان ويسود القحط ويحل الجفاف والجدب مدة من الزمن تطول أحيانًا أو تقصر، وهكذا يتناوب الدَّوْران اللذان يسود في كل واحد منهما بعل أو موت (انظر: هبو، ١٩٩٩م، ٢٣٥).

(٣) صراع بعل مع قوى العالم الأسفل

يخوض الإله بعل صراعات أخرى مع قوى العالم الأسفل التي تحاول جره نهائيًّا إلى الموت؛ لكنه ينتصر عليها، وقد أحصينا سبعة صراعات أساسية مذكورة في سبع أساطير كنعانية ينتصر بعل في ستة منها؛ لكنه يموت في الأسطورة السابعة في صراعه مع «أكليم وعقيم»؛ ولذلك وضعناها ضمن أساطير الغياب التي تنذر باختفاء بعل من الوجود. ولا شك أن هذه الأساطير هي وجوه أخرى من أسطورة صراع بعل مع موت؛ ولكنها تختلف قليلًا، فهي تشبه الأساطير البابلية الخاصة بالصراع مع مردوخ، مثل إيرا وزو واللابو ... وغيرهم، وهي أساطير توضح الغياب المؤقت لمردوخ في العالم الأسفل.

كذلك هذه الأساطير تفسير الغياب المؤقت لبعل من على وجه الأرض، وربما كانت تبرر فترات الجفاف القصيرة أو الانحباس المؤقت والقصير للمطر أثناء فترات الخصوبة والوفرة.

(أ) صراع بعل مع لتن (لوثان)

هناك إشارات سريعة لصراع بعل مع تنين مائي له سبعة رءوس يعتقد أنه «لتن» أو «لوثان»، وهو مقابل التنين العبري الذي يرد في أسفار العهد القديم «لوياثان» (مزمور ١٤: ٧٤) «أنت رضضت رءوس لوياثان»، والمقصود به هنا الإله «يهوه» وهو المقابل العبري للإله بعل الكنعاني.

> «وفي أحد النصوص تتحدث الإلهة عناة عن انتصار بعل على النهر والتنين ذي السبعة رءوس، كما يحدثنا الإله «موت» عن انتصاره على تنين مشابه يرد ذكره في أسفار العهد القديم باسم لوياثان» (أذزارد، ١٩٨٧م، ١٨٩).

والتنين المائي ذو الرءوس السبعة مشهور في العالم القديم، فهو يرتبط قديمًا بالإلهة «تيامت» البابلية، وبـ «هيدرا» ذات الرءوس السبعة التي قتلها هرقل وغيرها.

وفي كل الأحوال نلمح صراعًا مع «لتن» وانتصار بعل عليه، سواء أكان «لتن» هذا تابعًا لـ «يم»، أو «موت»، أو تنينًا من تنانين العالم الأسفل.

(ب) صراع بعل مع شليط

توصف شليط بأنها الأفعى ذات الرءوس السبعة، ويحتمل أنها تنين آخر مائي يشبه «لتن».

(ج) صراع بعل مع أرش

يحتمل أن تكون هذه الإلهة هي «أرشكيجال» نفسها، إلهة العالم الأسفل السومرية والبابلية الشهيرة، وتعني «سيدة الأرض الكبيرة»؛ حيث «أرش» معناها «الأرض الكبيرة»، والمقصود بها «العالم الأسفل»، وهي حاكمة هذا العالم واسمها يرتبط بالموت. وهي زوجة إله العالم الأسفل «نرجال» إله الأمراض والأوبئة.

وربما حشرتها الأساطير الكنعانية كإلهة شريرة للعالم الأسفل وجعلتها تصارع «بعلًا».

(د) صراع بعل مع عتك

يوصف «عتك» بأنه «عجل إيل» ولا نعرف شيئًا عن هذا الكائن؛ لكنه بالتأكيد خاض صراعًا مع بعل وانتصر بعل عليه، ويمكن أن يناظر هذا الإلهُ «عجل بعل»، وهو إله القمر، وربما كان في مصلحته السفلى قبل البزوغ.

(هـ) صراع بعل مع إيل زبوب

هناك إشارة في أسطورة بناء بيت بعل تشير إلى أن عناة وقفت مع بعل في القضاء على «إيل زبوب» وتدمير بيته، وواضح أن هذا الإله يشبه «بعل زبوب»، فكلاهما إله الذباب والأمراض، ويمكن أن يناظر هذا الإله «نرجال» الذي كان الذباب رمزًا له كناية عن المرض.

(و) صراع بعل مع أشت

عرفنا أن الإله «أشت» هو إله النار القديم، ولا شك أن «إشت» هو الاسم المؤنث لهذا، وهي بذلك تكون إلهة النار التي دفنتها الذاكرة الكنعانية في العالم الأسفل وأصبحت تدل على «النار كلبة الآلهة» كما تصفها النصوص. وهو وصف دقيق؛ فلهب النار يبدو وكأنه نباح كلب بسبب تقطعه واتصاله.

(ز) صراع بعل مع الإله زيب

توصف زيب بأنها النار الملتهبة ابنة إيل، وهي ترافق الإلهة أشت لتوحُّد وظيفتهما، وربما دلًّا على نار الصيف الملتهبة التي تسبب الجفاف وهو يصارع الخصوبة (بعل).

(٤) أسطورة الغياب

ربما كانت أشهر هذه الأساطير هي صراع بعل مع المواشي المتوحشة «أكليم» و«عقيم»، حيث يقترح الإله إيل خلق مواشي متوحشة من وصيفتي الإله «يرح» إله القمر والإلهة عشيرة «زوجة إيل»، وهما «تاليش» و«دمجي»، وبعد أن تولد الوصيفتان الماشية المتوحشة «أقليم» و«عتيم» التي تشبه الثيران والجواميس ذات القرون يقرر الإله بعل الذهاب

لاصطيادها؛ لكنه يصطدم بها فتصرعه ويسقط في الأوحال وتنتابه الحمى التي تهد جسده لمدة سبعة أو ثمانية أعوام (لنتذكر صراع بعل مع موت)، ويبدو أن هذا العقاب قد حصل بسبب أن الإله بعلًا ارتكب خطيئة ما (لأنه يحمل دم أخيه في رقبته مثل الثوب الذي يرتديه، مثل ثوب دم عشيرته)، ونرى بعدها يعثر على الإله المفقود وتقام له الطقوس والتعاويذ على الماء، وتفسر هذه الأسطورة من منظور آخر غياب بعل وجفاف الأرض.

ونرى أن هذه الأسطورة هي الأقرب إلى أسطورة أدونيس حيث يقتل الخنزير الإله أدونيس. ويمكن أن تكون هذه الأسطورة هي جذر أسطورة أدونيس لأنها الأقدم، حيث يستبدل بعل بأدونيس، خصوصًا أن اسم كليهما يعني «السيد». لكن أسطورة بعل تجسد صراع الإله الرسمي الكبير، أما أسطورة أدونيس فتجسد صراع الإله الشعبي. وهو ما يذكرنا أيضًا بأسطورة مردوخ الرسمي في مقابل تموز الشعبي في وادي الرافدين أو أسطورة رع الرسمي في مقابل أوزيريس الشعبي في وادي النيل.

البعول (البعليم)

لا شك أن نظرة متفحصة لشجرة الآلهة تعطينا صورة كاملة وواضحة لأشكال، وربما لأبناء، بعل الذين اتخذوا لهم ما يناسبهم من المدن والصفات والمياه والمنار والكواكب والحرب، وهناك بنات لبعل أيضًا. ولا نريد هنا أن نتوسع في دراسة كل منهم، إلا أننا سنمرُّ سريعًا على بعضهم.

من خلال بعول المدن والأماكن نتعرف على «بعل بقاع، بعل كرم اللوز، بعل دوليخ، بعل صفون، بعل لبنان، بعل صهور، بعل دمشق ... إلخ»، وبعل دوليخ هو إله مدينة دوليخ الواقعة في شمال سوريا (١٠٠كم عن حلب)، وهي الآن ضمن الأراضي التركية، وكان له لقبان الأول عربي هو «عزيز» والذي يطابقه مع الإله الصحراوي «عزيزو»، والثاني روماني هو «جوبيتر دوليخينوس». وكان بعل دوليخ يمثل إلهًا حوريًّا حيثيًّا للعاصفة والخصب، ثم أصبح إلهًا للجنود، ثم أصبح إلهًا سماويًّا يشير إلى النصر والسلام، وكان يرتدي عادة لباسًا عسكريًّا رومانيًّا، ويقف على ثور حاملًا صاعقة وفأسًا مزدوجة، وكانت له رفيقة أنثى تُعبد معه (شكل ٢-٣٣).

شكل ٢-٣٣: بعل دوليخ (جوبتر دوليخينوس).

ومن بعول الصفات نتعرف على بعل أدير (بعل القدير) الذي كان أحد آلهة جبيل منذ القرن الخامس ق.م. ونراه في شمال أفريقيا كإله حرب.

أما بعل مرقد فهو «بعل الرقص» الذي كان له معبد في دير القلعة ببيروت ونبع يشفي من الأمراض. وربما كان له علاقة بإله الرقص المصري «بيس» واسمه الآخر «ملك المآدب والولائم»، أي إن هيكله كان للقصف والمرح والمتعة، وشيد له الرومان معبد جوبيتر «المشتري بعل مرقد»، وكانت زوجته الملكة جونون وهي هيرا إلهة الأسرة والزواج، وتقابل تانيت عند الفينيقيين الغربيين وعشتروت عند الفينيقيين الشرقيين. وتذكره النقوش

اليونانية واللاتينية على شكل «بلمركوس»، أي إن ماركوس أو ماركس تقابل مرقد التي تعني مرقص.

أما من بعول المياه فنشاهد عليان أو عاليان الذي يوصف بأنه ابن الإله بعل ويختص بالينابيع.

ومن آلهة الكواكب نتعرف على الإله «عجل بعل» ويسمى «أغلبيل» وهو إله القمر، الذي يظهر على شكل عجل صغير ذي قرنين يحتويان على علامة الألوهية، وفي أذنيه قرطان دائريان (شكل ٢-٣٤).

شكل ٢-٣٤: الإله عجل بعل في صورة العجل ذي القرنين.

ولبعل عدة بنات منهن الثالوث «أرصاي، بدراي، طلاي»، وهن آلهة «الأرض، البدر، الندى» وثالوث آخر ... إلخ.

وهكذا نرى هذا السيل الكبير من الآلهة التي كانت تسمى باسم بعل «والسؤال الذي ما زال قائمًا هو: هل أسماء بعل الكثيرة والمختلفة تشير إلى آلهة عدة متباينة؟ أم أنها

تصف ظواهر الإله الواحد في كل موقع أو مدينة، والاعتقاد السائد حتى اليوم أن اسم بعل كان يطلق على كل إله باستثناء «بل»، الرافدي، ولم يتحول إلى اسم علم إطلاقًا» (أذزارد، ١٩٨٧م، ١٨٢).

ولا نتفق مع هذا الرأي؛ لأن كُتاب العهد القديم هم الذين كرسوا تعميم بعل هذا، فهو إله محدد قائم بذاته ساد في الديانة الكنعانية منذ بداياتها المبكرة، رغم أنه ظهر بعد إيل، أما كثرة ذكره مع آلهة أخرى فهي أشكال متعددة له حسب الأماكن والمدن والصفات والحالات كما أوضحناه أعلاه وفي شجرة الآلهة الكنعانية.

(٤) أسطورة عناة

تحدثنا عن الإلهة «عناة» عندما سردنا أسطورة بعل، ونرى أن اسم «عناة» مشتق من اسم «إنانا» وهي إلهة الحب والجمال السومرية وملكة السماء، ولكن شخصية عناة تختلف عن إنانا، فبينما تميل عناة نحو القسوة والقوة تنحو إنانا نحو الرقة والخصب والعذوبة. ويبدو أن التأنيث السامي، بإضافة حرف التاء، هو الذي حول اسم إنانا إلى «إنانات» الذي تحول تدريجيًّا إلى «إنات» و«عنات»، ومع ذلك فإن عناة تظهر في النصوص الأوغاريتية بصفتها المزدوجة كإلهة حب وإلهة حرب. أما أهم ألقابها فهي:

(١) بتلت: أي البتول أن العذراء.
(٢) رحم: العذراء الرحيمة والحنونة.
(٣) عت أم: أي «عناة أمي» أو عناة الأم.
(٤) عت نر: أي «عناة نوري» وعناة نورنا.
(٥) عت نتن: أي عناة العاطية أو المانحة.
(٦) عت كبر: عناة الكبيرة.
(٧) يكون عت: عناة قوية كالوجود.
(٨) عناة هرتي: عناة السعيدة (لقب مصري).
(٩) عناة تحمي.
(١٠) عناة المنتصرة.
(١١) يمامة الشعوب.

وتظهر الإلهة عناة في أقدم منحوتاتها الأوغاريتية من الفضة بصفة امرأة ذات شعر قصير وأنف منقاري يشبه أنف بعل في أقدم منحوتاته، ويدين تمتدان إلى الأمام. كذلك تظهر وهي مسلحة بأسلحتها المختلفة، وتظهر جالسة على العرش.

وإذا تتبعنا جذور عناة فسنجدها بالدرجة الأساس سومرية ثم مصرية تمثلها «نوت» إلهة السماء «نيت» الإلهة القواسة لمدينة سايس، وهي إلهة خالقة أيضًا، ونرجح أن كليهما جاءا من «إنانا» ملكة السماء السومرية. ونرى أنهم تظافروا في تشكيل الإلهة الكنعانية «عناة». هناك إمكانية كبيرة لأن يكون اسم «عناة» قد تحول إلى «إنات». ونرى أن كلمة «أنثى» العربية مشتقة من هذا التحوير، وأن اسم «إنات» قد جرت عليه بعض التحويرات اللفظية فتحول إلى أسماء ثلاثة لآلهة معروفة في العصور اللاحقة وهي:

(١) **أناهيت:** وهي الإلهة التي شاعت عبادتها بصيغ مختلفة في إيران والعراق والشام، ففي إيران سميت «أناهيت» زوجة الإله أهورامزدا إله النور الأكبر. وفي العراق، ظهرت بصيغ مختلفة تدل عليها مدينة «عانة» الحالية في العراق والتي كان اسمها باللغة السومرية «أناثا Anatha»، أنات Anat، -An-At، أ-نا-أت (انظر: علي، ١٩٨٠م، ٨٢).

ويقال إن اسم «أناهيت» أطلق على اسم مدينة واحدة كانت تضم عانة وهيت، فلما انتهت عبادة أناهيت انقسمت المدينة إلى مدينتين هما «عانة» و«هيت» العراقيتين.

كذلك تظهر أناهيت عند الآراميين تحت اسم «أنحت» و«أنهت» وهي زوجة ورفيقة الإله حدد. ويمكن أن تكون هذه الإلهة قد نشأت مباشرة من اسم «إنانا».

(٢) **تأنيت:** وهي الإلهة التي شاعت عبادتها في شمال أفريقيا عند البربر أولًا ثم عند البونبيني، وكانت رفيقة الإله بعل حمون، وقد ظهر رمزها الشهير في بعض المدن الفينيقية الشرقية مثل بيروت. وتظهر صفاتها مشابهة لصفات الإلهة «عناة» مع ميل أمومي أكثر.

(٣) **أثينا:** وهي إلهة الحكمة وسيدة عاصمة الإغريق التي نرى أن أصولها المثولوجية هي أصول مشرقية تمتد إلى «عناة» التي تمتد بأصولها إلى «أنانا».

ويرى مارتن برنال في كتابه «أثينة السوداء» أن هناك علاقة كبيرة بين أثينا والإلهتين المصريتين «نت» و«نيت»، وهما إلهتان عذراوان للحرب والنسيج والحكمة. كانت عقيدة الإلهة نيت متمركزة في مدينة سايس في غرب الدلتا، وقد كان اسم «سايس» هو الاسم المدني للمدينة، بينما كان اسمها الديني هو «حت نت» أي معبد أو بيت نت، والذي تحور

إلى آث-نت، ثم اختفت التاء في العصور المتأخرة في كل من اللغتين الإغريقية والمصرية (انظر: برنال، ١٩٩٧م، ١٤١-١٤٢).

ونرى أن الإلهة أثينا اشتقت من «عناة»، وهو ما كان يشير إليه المؤرخون السوريون القدامى وما تشير له التشابهات الواضحة بين تماثيل «عناة» وأثينا من خوذة الراس إلى الأسلحة، وحتى ملامح الوجه (انظر: المخطط (٧))، وبذلك يمكننا وضع المخطط التالي لاشتقاق هذه المنظومة من الأسماء المتداخلة والمتشابهة.

إن المعنى الراسخ لكلمة «عناة» هو «سيدة الجبل». ونرى أن الإلهة عناة ازدهرت في المرحلة الأوغاريتية ثم طبقت مع بداية الألف الأول قبل الميلاد مع عشتروت التي حلت محلها، مثلما حل أدونيس محل بعل تدريجيًّا. وفي جبيل كانت عناة قد سميت مبكرًا بـ «بعلات» ربة جبيل وأخذت ملامح إيزيس أو حاتحور المصريتين (شكل ٢-٣٥).

(٥) أسطورة أدونيس

مع ظهور الفينيقيين الواضح في بداية الألف الأول قبل الميلاد، وصعود المدن اللبنانية الساحلية كانت أسطورة بعل تتوارى في السهول والوديان، وتنشأ محلها أسطورة أدونيس ذات الإيقاع المحلي والمتاخم لمناخَي الرافدين والنيل.

كان الكنعانيون يسمون إله مدينة جبيل «آدون» ومعناه «السيد» أو «الرب» وهو يطابق في معنى اسمه ذات الإيقاع المحلي والمتاخم لمناخي الرافدين والنيل.

وأدون هو إله رافدَيني الأصل يمثله دموزي السومري وتموز البابلي، وهما إلها المراعي والخصب والجمال، وقد ارتبطا بعلاقة عشق مع إلهتين؛ هما: إنانا مع دموزي، وعشتار مع تموز، وكان هذا الثنائي العاشق أصل أساطير الحب في العالم القديم.

كذلك يرتبط أدون بعلاقة متناظرة مع أوزيريس الإله المصري وزوجته إيزيس، وقد رحلت عبادة أدونيس إلى مصر وكان له معبد في مدينة فاروس «الإسكندرية» القديمة، وبالمقابل امتد أثر أسطورة أوزوريس إلى مدينة جبيل وكان له ولزوجته معبد فيها.

لكن أدون انتقل في الألف الأول قبل الميلاد إلى بلاد الإغريق ثم الرومان وأصبح يسمى «أدونيس»، أما حبيبته عشتروت (والأصح عستروت أو عشترتا) فقد قوبلت بالإلهة أفروديت اليونانية (فينوس الرومانية) (شكل ٢-٣٧).

وما زلنا نفتقد الأسطورة الأصلية الكنعانية أو الفينيقية للإله أدون؛ ولكن الرواية الرومانية لها هي التي بين أيدينا، وهي على لسان الشاعر الروماني أوفيد في «مسخ الكائنات. الكتاب العاشر».

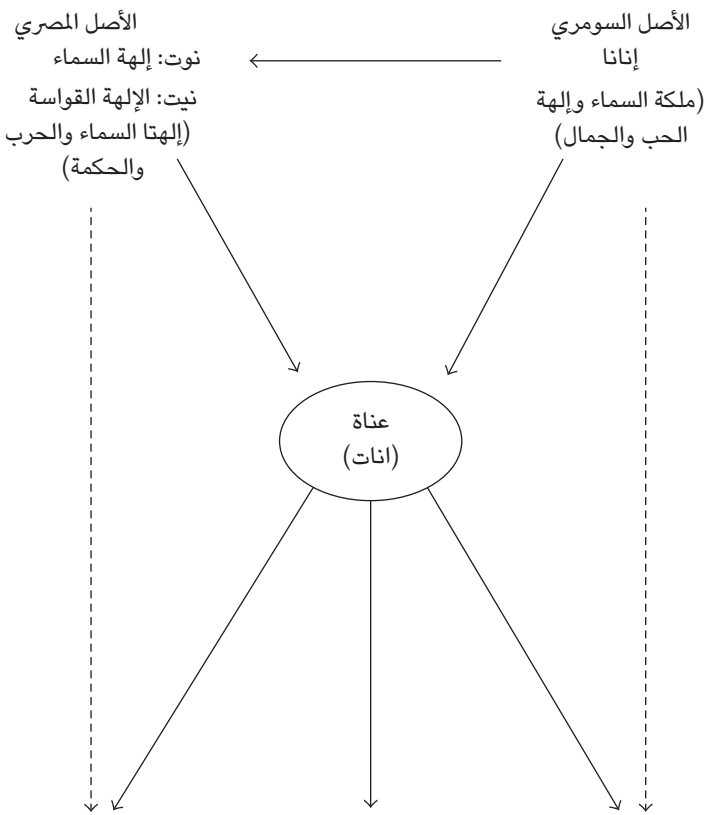

مخطط (٧): جذور وغصون الإلهة عناة.

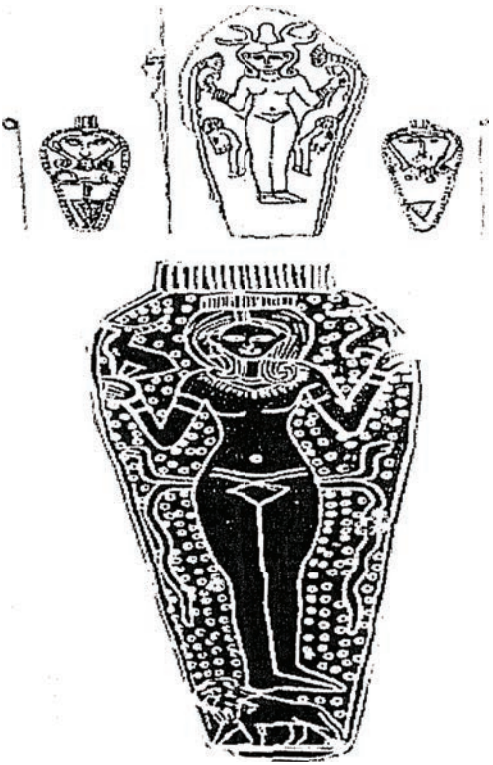

شكل ٢-٣٥: الإلهة عناة في صورها الخصيبة (١) مصورة على أقراطٍ ذهبيةٍ وحولها رموز الخصب. (٢) تمسك الجداء وحولها الأفاعي وتقف على أسد.

ويبدو أن عبادة أدونيس في سوريا ولبنان كانت متأخرة نسبيًّا؛ لكننا نعثر على ما يشير إليه إغريقيًّا في القرن الخامس قبل الميلاد.

وتتحدث الوثائق عن الاحتفالات السنوية التي كانت تقام من أجله، حيث يكثر فيها البكاء والنحيب في كل من أثينا والإسكندرية في عصر البطالمة (بطليموس الثاني)، ثم في جبيل وأنطاكيا حوالي القرن الثاني للميلاد، وقد وصلت عبادته إلى روما حوالي القرن الأول قبل الميلاد.

وسنقوم بتلخيص أسطورة أدونيس كما وردت عند أوفيد (انظر: أوفيد، ١٩٧١م، ٢٩٦–٣٠٣).

شكل ٢-٣٦: تمثال أدونيس.

ولادة أدونيس

كانت مورا (مورها) فتاة جميلة جدًّا تفاخرت ذات يوم مع الإلهة فينوس بنعومة شعرها فحقدت عليها فينوس وحكمت عليها بأن تقع في حب آثم لوالدها، فوجهت ملاك الحب كيوبيد ليرشقها بسهام الحب وهي نائمة، فرشقها وإذا بها تتعلق بحب والدها.

وبدأ الخطاب يتقاطرون عليها لكن «مورا» كانت ترفضهم جميعًا، وكان حب أبيها ينمو بين جنباتها حتى أسرَّت به ذات يوم إلى مربيتها التي دبرت لها حيلة لتلتقي بأبيها وتمارس معه الحب.

شكل ٢-٣٧: تمثال الإلهة فينوس في لبنان (منطقة المشنقة) قرب وادي نهر أدونيس (نهر إبراهيم) وتظهر مقنعة الرأس كئيبة الوجه تسند رأسها إلى شمالها المحتجبة بردائها (عن: اليسوعي، ١٩٨٢م).

وانتظرت حتى ثمل الأب فدخلت المربية عليه وأخبرته بأن هناك جارية من جواريه تريد أن تعاشره فوافق الأب، ودخلت عليه ابنته «مورا» واضعة وشاحًا على وجهها حتى لا تسمح لأبيها بالتعرف عليها، وهكذا مارست الحب معه. وبعد وقت حملت من هذا الحب المدنس جنينًا، ثم عاودت ممارسة الحب عدة مرات مع أبيها حتى كشفها ذات يوم فنهض من فراشه وأمسك بيده السيف يريد قتلها؛ لكنها هربت في الظلام وخرجت من القصر هائمة على وجهها.

ولما يقرب شهور حملها التسعة ظلت هاربة في القِفار، ولما اقترب موعد ولادتها تضرعت للآلهة بأن تصبح بين الحياة والموت وتتحول إلى شجرة.

وكان لها ما أرادت فإذا بالأرض تتجمع حول قدميها وأصابعها تمتد وتتحول إلى جذور رفيعة تحفر الأرض وتتحول ساقها إلى ساق شجرة وارفة، ثم تتحول أيديها إلى أغصان متشعبة وعظامها إلى خشب ودمها إلى عصارة نباتية ويتحول جلدها إلى لحاء، وهكذا تحولت إلى شجرة الـ «مر» التي تستخدم كبخور في أعياد أدونيس.

وعندما دنت ساعة ولادتها انشق لحاء الشجرة وخرج الوليد من جذعها، وأسرعت الحوريات بالتقاطه وغسله بدموع أمه ووضعه فوق العشب، وكان الطفل جميلًا جدًّا يشبه الإلهة (شكل ٢-٣٨).

شكل ٢-٣٨: مورا (أم أدونيس) ممسوخة إلى شجرة المر وهي تلد أدونيس من جذعها (عن: أوفيد، ١٩٧١م).

(ب) خلاف فينوس وبرسفونة على أدونيس

كانت فينوس تراقب مشهد ولادة أدونيس، فتعلق فؤادها به لجماله فهبطت من السماء وأخذت الطفل ووضعته في صندوق وأرادت أن تخفيه عن عيون الناس والآلهة، فهبطت به إلى العالم الأسفل وطلبت من أختها «برسفونة» ملكة الجحيم وإلهة العالم السفلي الاحتفاظ به والعناية بتربيته.

كبر أدونيس في أحضان برسفونة فتعلقت به هي الأخرى، وتخاصمت الأختان ورفعتا شكواهما إلى رب الأرباب «زوس» أو «جوبيتر» حتى يحكم بينهما، فأمر بأن ينقسم عام أدونيس إلى ثلاثة أقسام (كل قسم في أربعة أشهر)؛ فيكون الثلث الأول مع فينوس، والثلث الثاني مع برسفونة، والثلث الأخير يترك لأدونيس يقضيه بحريته مع إحداهما، فاختار أدونيس أن يقضيه مع فينوس في العالم الأرضي.

(ج) فينوس وأدونيس

كان أدونيس يقضي ثلث العام مع فينوس، وكانت هواية أدونيس هي الصيد وكان يصيد دون مبالاة بشيء؛ ولكن فينوس كانت تراقبه من مركبتها السماوية فتعلقت به حبًّا وكانت تحاول إغواءه؛ لكنه لم يكن يبالي بها، فاشتعل حبها له حتى استطاعت أن تجره إلى حب جسدي شهواني عنيف، وكانت تحذره من الحيوانات التي يصطادها وحكت له ذات يوم قصة أتلانتا التي غلبها في العَدْو هيبومينيس فتزوجته؛ لكنهما ارتكبا خطأً كبيرًا عندما مارسا الحب في أحد المعابد ودنسا محرابه فتحولا إلى أسدين يسكنان الغابة.

لكن أدونيس لم يبالِ بهذه التحذيرات، فخرج له خنزير بري كانت كلاب الصيد تعدو خلفه، فرشقه أدونيس برمحه لكن الخنزير اقتلع الرمح وتعقب أدونيس وعض فخذه قريبًا من خصيتيه بنابه فتلوى أدونيس محتضرًا على الرمال وحيدًا (شكل ٢-٣٩).

(٥) دم أدونيس

سمعت فينوس أنين أدونيس وكانت فوق عربتها التي تقودها البجعات المجنحات نحو قبرص (حيث قصرها في بافوس) فأدارت طيورها البيضاء نحو جبيل في لبنان، وعندما وصلت إلى هناك شقت ثوبها ولطمت وجهها وجرَّت شعرها وهالها منظر دماء أدونيس، فقررت أن تحول دم أدونيس إلى حمرة تجتاح الزهور البيضاء (نكاية بما فعلته أختها

شكل ٢-٣٩: فينوس تغوي أدونيس، ويظهر كيوبيد (إله الحب) وهو يغرز سهم الحب في جسد فينوس (عن: أوفيد، ١٩٧١م).

برسفونة التي حولت مورا إلى شجرة عطرة) وهكذا صبت فينوس على دم أدونيس رحيق زهرة عطِرة، فغلى الدم وتصاعدت منه فقاعات صافية ثم انبثقت من بين الدماء زهرة بلون الدم تشبه زهرة الرمان، وهي زهرة شقائق النعمان.

ولتحليل هذه الأسطورة الرومانية الرواية وإرجاعها إلى الأصل الكنعاني سنقوم بمجموعة من المقارنات التي تعيننا على تلمس ذلك، والتي ستهم في تعميق شخصية أدونيس ومعرفة أغواره.

شكل ٢-٤٠: مصرع أدونيس واضطراب الطبيعة (عن: أوفيد، ١٩٧١م).

- **أدونيس وعلاقته بالسماء:** لا يمكننا المرور عابرين على اسم والدة أدونيس «مورا» أو «مورها»؛ فهذا الاسم يذكرنا باسم «مورا» وهو الاسم الذي كان يطلق على أرض فلسطين، وهو في رأينا اسم له علاقة كبيرة بالأموريين، الذين كان إلههم «مارتو» هو الإله القومي لهم. إضافة إلى أن اسم «مر» كان يدل على إله السماء القديم عند الأموريين. ويؤكد هذا أيضًا أن أم أدونيس تحولت إلى شجرة الـ «مر».

  فأدونيس والحالة هذه يبدو لنا وكأنه ابن السماء، وهي صفة تنسحب أيضًا على بعل وإيل قبله.

- **أدونيس وعلاقته بالشمس:** نرى أن «أدون» هو تصحيف عميق لكلمة «أتون» التي تعني الشمس، وأصلها إله الشمس السومري «أوتو» صديق دموزي (الإله الراعي)، وهو إله الشمس المصري الذي رفعه إخناتون لمستوى التوحيد المطلق «أتون».

  وهناك ما يشير إلى علاقة أدونيس بالشمس في ظهوره واختفائه كل ستة أشهر؛ حيث يبدو خلال فصلي الربيع والصيف قويًّا ساطعًا ويختفي أو يقل ضوءُه خلال فصلي الخريف والشتاء، وهو ما يفسر الظهور الدوري لأدونيس كل ستة أشهر، فإذا كان بعل يفسر دورة خصب الأرض السبعية فإن أدونيس يفسر دورة الفصول الأربعة.

وهناك من يرى أن «ظهور أدونيس في الستة أشهر الأولى كظهور الشمس قوية على نصف الكرة الشمالي، حيث المنطقة التي عُبد فيها أدونيس، أما اختفاؤه فيعني انتقال الشمس إلى نصف الكرة الجنوبي، واتسامها بالضعف والاختفاء وراء الغيوم في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، وهكذا تكون دورة الشمس بين شمال وجنوب، أو بين قوة وضعف، وما ينتج عن ذلك من تعاقب الفصول» (جمعة، ١٩٨١م، ٥٥-٥٦).

- **أدونيس وعلاقته بالنباتات:** يمثل أدونيس من وجهة نظر الكثير من الباحثين روح النبات؛ فقد ولدته أمه شجرة المر، وكان يتغذى قبلها على عصارة النباتات. ودورة حياته تمثل دورة حياة النبات؛ عندما يكون بذورًا في باطن الأرض، ثم يظهر في الربيع وحتى يأتي الخريف فيذبل وتتساقط بذوره على الأرض ... وهكذا. وكان الناس يعبدون أدونيس ويفرحون بولادته ويبكون لمماته حبًّا في النباتات، وخصوصًا القمح الذي يشكل مصدر طعامهم الأول.

كذلك تشير شقائق النعمان إلى اتحاد دم أو روح أدونيس مع النباتات، وتحوله إلى لون أحمر، وتذكر الأسطورة أن دماء أدونيس قد سالت إلى نبع أفقا؛ حيث ينبع هناك نهر إبراهيم الذي كان يسمى «نهر أدونيس» حيث تختلط دماء أدونيس بمياه النهر فتتحول مياه النهر إلى حمراء (وهي إشارة إلى الظهور الموسمي للطمي الأحمر بعد ذوبان الثلوج) (انظر: جمعة، ١٩٨١م، ٥٥).

- **جذور أدونيس التموزيَّة والأوزيريَّة:** وقد أشرنا إلى هذا الأمر مرارًا؛ حيث اكتسب أدونيس أسطورته من أسطورة تموز وعشتار (السومرية الأصل: دموزي وإنانا)؛ إذ يغيب تموز في العالم الأسفل وتبحث عنه عشتار عندما تنزل إلى هذا العالم فتقتلها أختها أرشكيجال، ثم تقضي الإلهة بأن يبقى تموز ستة أشهر على وجه الأرض وستة أشهر تحت الأرض، حيث تنوح عشتار على حبيبها عندما يغيب:

«ترفع صوتها في النواح إذا فارق الدنيا
ترفع صوتها في النواح قائلة: وا ولداه!
ترفع صوتها في النواح إذا فارق الدنيا قائلة: أواه يا داموا!
ترفع صوتها في النواح لتقول: يا ساحري، يا كاهني!
هناك حيث أرسلت شجرة الأرز المشرقة جذورها في المكان الفسيح في «عيانا»
في التلال والوهاد، ترفع صوتها في النواح.

وهي تنوح نوحها على الحشيشة التي لا تنمو في تربتها، تنوح نوحها على القمح الذي لا ينبت في سنابله» (فريزر، ١٩٧٩م، ٢٠-٢١).

وتشكل أسطورة أوزيريس وإيزيس المصرية جذرًا آخر من جذور أسطورة أدونيس كما علمنا.

- **أدونيس وعلاقته بعمون ومؤاب:** تذكرنا أسطورة أدونيس بقصة لوط في العهد القديم، حيث تلد ابنتا لوط من أبيهما (بعد أن أسكرتاه) ابنين هما بنعمي ومؤاب، وهما على التوالي أبو العمونيين وأبو المؤابيين. وفي قراءتنا للمثولوجيا الأردنية القديمة نرى أن الإلهين ملكون وبعل هما إلها عمون ومؤاب، وهما صورتان من صور الإله أدونيس، ويشترك بنعمي ومؤاب مع أدونيس بأصلهم الخاطئ، حيث ضاجع أبو مورا ابنته وأنجب بذرة خاطئة هي أدونيس، وكذلك فعل لوط مع ابنتيه.
- **أدونيس وعلاقته بالإله «أدد»:** كان الإله أدد يسمى أيضًا «أد» أو «أدد»، وهو إله المطر والصواعق السومري والذي له علاقة بالخصب والزراعة، ويمكن أن يكون هذا الاسم قد تحول إلى «أدون»، وهو بذلك يلتقي مع البعل في أن البعل هو المقابل الكنعاني للإله الآرامي أدد أو حدد الذي التحم به فيما بعد وأصبح يعرف بـ «بعل حدد».

  والجدير بالذكر أن هناك منحوتات وتماثيل كثيرة في لبنان جسدت أسطورة أدونيس أو بعض مشاهد منها تلك النقوش التي عثر عليها في «غينة» وفي «المشنقة» قرب وادي نهر أدونيس أو نهر إبراهيم. ففي آثار غينة نشاهد نقشًا بارزًا لبطل يصارع حيوانًا يُعتقد أنه أدونيس يصارعُ الخنزير، وهناك نقش لامرأة حزينة بالقرب منه (شكل ٢-٤١، ٢-٤٢).
- **أدونيس وعلاقته بالإله «هاي-تاو Hay-Tau»:** في مدينة جبيل «ببلوس» عثر على أسطوانات أو أختام تختم بها صفحات الكتابة في العصر التيني المصري حوالي (٣٠٠٠ق.م.) وعلى هذه الأختام الأسطوانية صور مصرية الطراز للإلهة جبيل، وهي إلهة بملامح إيزيس-حاتحور، وقد جعلت على رأسها قرني بقرة وجلست إلى جوار إله يدعى هاي-تاو، وهو الذي دعاه الإغريق فيما بعد أدونيس (انظر: بنت بطوطة، د.ت، ٩٢).

وقد استحال هذا الإله إلى شجرة صنوبر كما في أسطورة أوزيريس الذي ليس جثمانه بمعجزة جذع شجرة الأثل، ونرجح أنه يكون اسم هاي-تاو شكلًا مذكرًا من

اسم حاتحور أو هاتحور، وربما كان مقطع تاو Tau يشير إلى إله الكتابة تاؤوس الذي هو تحوت المصري، الذي وُصف بإله القمر، والذي ربما لاقى مصيرًا يشبه مصير أدونيس.

- **أدونيس وعلاقته بالإلهة «أشمون»:** وهو إله الطب الذي يشبه إسكلابيوس الإغريقي، وله علاقة بروح الأعشاب والنباتات الأرضية وخصوصًا الأشجار.

وكان لتشبيه أدونيس بأشمون وما رآه الإغريق من تحويله إلى أدونيس صدًى بعيد الأثر ملفت النظر فيما تخلف من كتابات جنائزية من عصر بيبي الأول من فراعنة الأسرة السادسة، فإن بيبي في ناووسه الخشبي قد قارن نفسه بالإله هاي-تاو أي أوزيريس (انظر: بنت بطوطة، د.ت، ٩٢-٩٣). وتمثل علاقة أشمون بأدونيس مظهرًا من العلاقة المشتركة بينهما وبين النباتات.

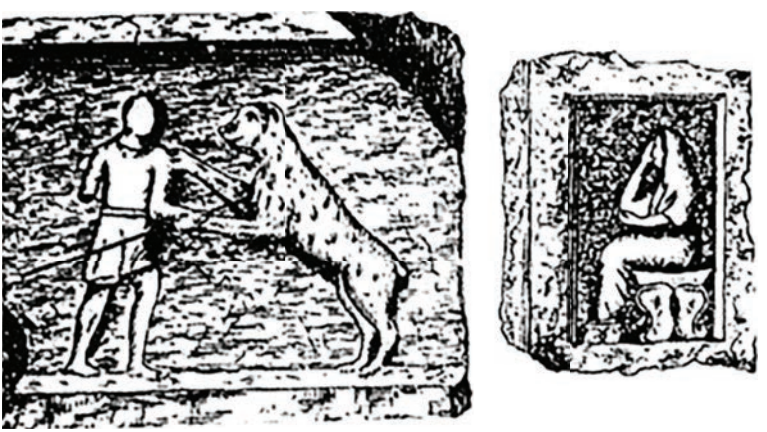

شكل ٢-٤١: نقش غينة تمثل أدونيس يصارع الخنزير وفينوس الحزينة.

(٦) أسطورة أشمون

تناظر شخصية الإله أشمون وتتماهى مع شخصية الإله «ملكارت»، فهو إله النار، وهو إله صيدا أو صيدون.

شكل ٢-٤٢: وكذلك نقوش المشنقة التي توضح بطلًا في أوضاع مستعدة للقتال، ونقش امرأة حزينة أيضًا.

وعُبد هذا الإله في قرطاج وبُني له فيها معبد يقع على قمة بيرسا، وباتت أسماء العلم التي تضم لفظة أشمون كثيرة الاستعمال، وفي قرطاج، كما في صيدون، ماثل هذا الإله أسكولاب (انظر: ميادان، ١٩٨١م، ٦٥).

وتشير الآثار إلى أن بيروت كانت المكان الأول لعبادة الإله أشمون، ثم انتقل إلى صيدا ومنها إلى قبرص وسردينيا وأفريقيا وقرطاج، وكان اسمه في صور «ياسومون» وهو إله الطب والشفاء، ويشير لهذا مقطعُ «ياسو» أو «آسو» في اسمه، والذي يشير إلى الطب، وهو ذات المقطع الذي في أسكولاب إله الطب اليوناني، حيث كان إله الطب السومري اسمه «ننازو» أو «نناسو» أي سيد الأطباء، وربما كان اسم «ياسمين» للدلالة على هذه الزهرة العطرة له علاقة بكونها عشبة طبية.

وقد ظهرت التفسيرات القديمة التي حاولت تفسير اسم أشمون غير دقيقة، تلك التي قام بها فيلون «مسكيوس على اعتبار أن اسمه يعني الثامن «شامون» معتمدين على أساس أن أسكولاب هو الابن الثامن للإله إيل من صديقه، وهو أمرٌ غير دقيق» (انظر: أذزارد ١٩٧٨: ١٧٤).

وتتدخل أسطورة وشخصية أشمون مع شخصيتَي أدونيس وبعل. ويذكر المؤرخ دمسقيوس (من القرن الرابع الميلادي) مقارنة بين أسطورتي أدونيس وإسكلابيوس (إله بيروت) ويقول: «ليس أدونيس مصريًّا ولا يونانيًّا بل فينيقيًّا، وإنه يسمى إيسمونوس وإنه ابن صاديقوس، وربما كان اسم أدونيس غطاءً أو لقبًا وُضع فوق اسم أشمون على نحو يخفي لقب «بعل» وهو الاسم الحقيقي الذي يسمى به الإله الأعظم، وأما ارتباط مولده بشجرة فهو تصور طبيعي في بلد ذي غابات» (انظر: عصفور، ١٩٨١م، ١٥).

وإذا كان الإله «هاي-تاو» الذي ذكرناه سابقًا يشكل صلة للعلاقة بين أدونيس وأشمون وتحوت (إله الكتابة والمعرفة في مصر) من الممكن تمامًا أن يكون اشتقاق الإله الإغريقي إسكلابيوس (شكل ٢-٤٣) المناظر لتحوت منطقيًّا؛ وبذلك يتطابق مع أشمون خصوصًا أن الاثنين يبدأ اسمهما بـ «أش» التي هي النار، والتي لها علاقة بالطب.

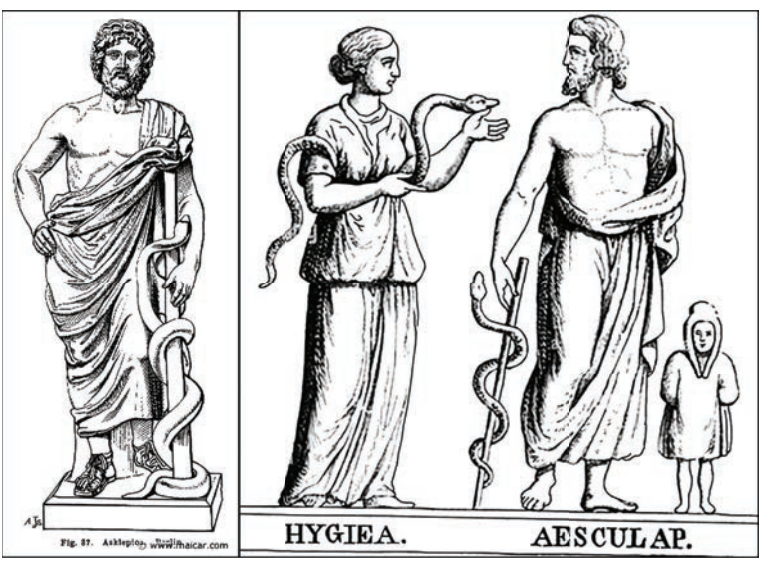

شكل ٢-٤٣: الإله إسكلابيوس إله الطب مع ابنته هيجيا، ومع رمز الطب الأفعواني.

(أ) الإله رشف، تمثال برونزي عثر عليه في مجدّو (١٥٠٠-١٢٠٠) ق.م. تخطيط فاروق كاظم.

(ب) الإله ميكال (ربما كان رشف) الذي يمسك بيده اليمنى علامة الحياة (عنخ) ويضع على رأسه غطاءً مزودًا بقرني غزال، عن (Gray 1964: 52).

شكل ٢-٤٤

وربما وقع الإله رشف بالمكانة ذاتها، فهو إله النار والحرب من ناحية، وهو إله الأوبئة وأحد آلهة العالم الأسفل، ومعنى اسمه «الوباء» أو «النار»، ويلفظ بأشكال متعددة (رشف، رشف، روشفن، روشفون)، ويظهر كاسم مكان في العهد السلوقي على شكل أرسوف، ويوصف على أنه «رشف الطيور» و«رشف التيوس» (انظر: أذزارد ١٩٨٧م، ٢١٤)، ويظهر في تمثال برونزي من مجدو وهو يمسك هراوة أو سيفًا بيده اليمنى ودرعًا باليسرى. (شكل ٢-٤٤)

أما الأسطورة التي تروى عن أشمون فتقول إن أشمون كان شابًّا فتيًّا يحب الصيد، وبينما هو في رحلة صيد وقعت بحُبه الإلهة «أسترونه»، وهي إحدى مظاهر الإلهة عشتار، وبدأت تلاحقه بلهفة دون هوادة، مما اضطره لأن يخصي نفسه فيموت أثر ذلك، ولكن الإلهة تمكنت من إعادته إلى الحياة بحرارة الدفء الإلهي وجعلت منه إلهًا، ومن هنا جاءت تسمية أشمون حيث أن كلمة «إش» تعني النار (أذزارد: ١٩٧٨م، ١٧٤).

وجوهر هذه الأسطورة لا يختلف عن أسطورة أدونيس. وفي رأينا أن آلهة الخصب والزراعة تتماهى دائمًا مع وظيفة الطب والشفاء والنار، ونجد في الأساطير السومرية أصدق الأمثلة على ذلك؛ فشخصية دموزي «أصل أدونيس» ترتبط دائمًا بشخصية نذكشزيدا إله الطب السومري، وإلهات الزراعة (باو، كولا، ننتي ننسينا ... إلخ) كلهن إلهات طب وشفاء ... وهكذا.

وكان لأشمون معبد كبير في قرطاج على قمة بيرسا، استبدل في العهد الروماني بمعبد إله الطب «إسكلابيوس».

(٧) أسطورة شدرافا

وهو إله الطب والشفاء أيضًا، ويتماهى مع ملكارت وأشمون، وقد فسر اسم شدروفا أو شدرافا بمعنى «شد الشافي» وكلمة شد أو شيدو أو شدو هو الإله الحامي، وهو إله شفاء متخصص بالشفاء من لسعات الثعابين والعقارب والحشرات. ولذلك كانت المنحوتات تصور شدرافا مع الثعابين والعقارب، ويعتقد أن له علاقة بالإلهة «سديد».

ربما كانت له علاقة كبيرة مع كائنات تدعى «رفائيم» أو «رفوم» التي لها علاقة بالشفاء والإخصاب، وهي كائنات أو عفاريت عملاقة؛ ولذلك جاء أول ذكر لهذا الإله مع عمريت (في القرن الخامس قبل الميلاد). وأهم المدن التي عُبد فيها هي صور وصيدا وإيليس ومعد وقرطاج.

ونرجح أن أسطورة شدرافا لا تختلف في جوهرها عن أسطورة أدونيس أو أشمون؛ ولكننا لا نملك نصًّا صريحًا عن هذه الأسطورة، ويظهر الإله شدرافا (شدوفا) في نقوش أنصاب عمريت على الساحل السوري بهيئة قريبة من هيئة الإله «بعل»؛ ولكنه يحمل، في أحد النصبين، بيده اليمنى سلاحًا غير واضح المعالم، أما في النصب الآخر فيحمل ما يشبه البلطة أو الفأس على شكل مرآة مثلومة. في حين حمل بيده اليسرى في النصب الأول حيوانًا صغيرًا، ربما كان جديًا أو أرنبًا أو شبل أسد، ويعتمر الإله في النصبين بغطاء رأس مخروطي له ذيل اتضح طوله في أحدهما، ويقف على أسد يظهر في أحدهما واقفًا على تلول العالم الأسفل الرمزية. ويظهر الشمس والقمر وفوقهما جناح الأفق أعلى رأس شدرافا في أحد النصبين. ونرى أن ظهور الأسد له علاقة بالألوهة المؤنثة التي ربما كانت لعناة بشكل عام؛ ولكنها هنا مأخوذة من رفيقة شدرافا وهي الإلهة «سديد» التي تظهر هي الأخرى واقفة على أسد في أحد منقوشاتها متخذة شكل عناة وهي تمسك البردي واللوتس (ربما الريحاني).

شكل ٢-٤٥: الإله شدرافا (شدُّوفا) منقوشًا على نصبين من عمريت وهو يعتلي الأسد، حوالي القرن السادس قبل الميلاد (متحف اللوفر، باريس. متحف طرسوس).

(٨) أسطورة حرون

كانت كلمة «حر» و«حور» التي اشتق منها اسم الإله حرون مرتبطة بالشمس، وكذلك تعني كلمة «حور» حفرة أو جوف، وكان العرب يشيرون إلى كوكب المشتري بهذه الكلمة. وكان الطائر الصغير القصير الذنب المائل إلى الخضرة والذي كان يرتبط بالشمس يسمى «حُر». وكان الإله المصري «حور» أو «حورس» ملك الآلهة المصرية وابن إيزيس وأزوريس ووريث «رع» وهو إله الشمس وكان الصقر رمزه الأعظم.

شكل ٢-٤٦: الإلهة سديد تعتلي أسدًا وتمسك البردي واللوتس في يديها.

والإله الكنعاني «حورون» يرتبط بالقوة والحرب والشمس، ويعتقد أن اسمي «حوران» و«حران» لهما علاقة بهذا الإله. وهناك من يرى أنه إله العهود والمواثيق لأنه «لا ينطق إلا بالحق»، كما تروي بعض النصوص ذلك.

وكذلك ظهر هذا الإله مرتبطًا بالإله «رشف» والإله «شلمان أو شاليم» والإلهة «عناة»، ويشبه في صفاته صفات الإلهين السومريين «نرجال» و«ننورتا»، وهما إلها العالم الأسفل والعاصفة.

وفي مصر ظهر الإله «حورون» مصوَّرًا على شكل عقاب كإلهٍ أمام الفرعون رمسيس الثاني فوق أحد تماثيله المكتشفة في عاصمته «ممفيس» في الدلتا، وكان تمثال أبو الهول الكبير في الجيزة من عصر السلالة الثامنة عشر يُعبَد على أنه الإله «حورون» (انظر: أذزارد ١٩٨٧م، ٢١٠).

ونرى أن مدينتي حوران (جنوب سوريا) وحَران (شمال سوريا) لهما علاقة بعبادة قديمة كانت قائمة للإله «حورون» فيهما.

ويعبتر «حورون» إلهًا رئيسيًّا في مدينة يمينا «حورون يبن» في القرن الثالث ق.م. كما اقترن اسمه مع هرقل «ملقارت» في نص مدون باللغة اليونانية فوق مسلة عثر عليها في جزيرة «دلوس». وتسميه النصوص الأدبية المندائية بـ «عبقري حوران وظل الوجود» (انظر: المرجع السابق، ٢١١).

وظهر الإله «حورون» على مسلة شيحان في مؤاب (في منطقة رجم العبد) حوالي القرن الثاني عشر أو الثالث عشر؛ بصفة إله محارب يمسك رمحًا بيديه، ويأتزر بتنورة المحاربين، ويعتمر بكبوس ظهر منه الذيل المعقوف المدلى خلف ظهره وهو يشبه كبوس الإله بعل، ويظهر إلى جانبه صورة الإله حورس وقد اتخذ شكل العُقاب (رمزه الشمسي)، وهكذا تترسخ الصفات الشمسية والسفلية والحربية لهذا الإله وتضعف عنده الصفات الخصيبة.

ولذلك نرجح أن تكون أسطورته مختلفة كليًّا عن منظومة أسطورة أدونيس التي شملت أشمون ورشف وشدرافا. ونعتقد أنها أقرب لأسطورة إله شمسي أو سفلي.

(٩) أسطورة شبش

لم تحظ الشمس بأهمية دينية أو مثولوجية في بلاد كنعان؛ ولذلك ظلت هامشية، وقد مثلتها خير تمثيل الإلهة شبش Shapash، وربما كان بعل أو حورون يأخذان صفات الإلهين الشمسيين.

لكن النزعة الشمسية في الديانة الكنعانية ظهرت في نهاياتها، وتحديدًا في المرحلة الهيلنستية، فصارت الشمس تغمر بصفاتها حتى الثالوث الإلهي (بعل حدد، أترغاتس، سيمسو)، وصارت بعلبك مدينة الشمس، وظهرت مظاهر أخرى مع طغيان الديانة الرومانية.

لقد كانت عبادة الطبيعة المخصبة المباشرة هي الأساس في الديانة المصرية ذات الطابع الشمسي، أو من الديانة الأكدية ذات الطابع الشمسي أيضًا؛ بل ظلت أمينة لبيته أو إيقاعه الخصيب.

ويظهر دور الإلهة «شبش» في صراع بعل مع موت عندما تعثر على جثة بعل، وعندما تهدد بعنف «موت» حين يعود لصراعه مع بعل.

شكل ٢-٤٧: الإله حورون من منطقة رجم العبر، جبل شيحان في مؤات حوالي القرن ١٢-١٣ق.م.

(١٠) أسطورة يرح (القمر)

كان القمر أوفر حظًّا من الشمس في حضوره الأسطوري (على قلته). ومن الطريف أن يأخذ القمر شكلين مختلفين عند الكنعانيين؛ أولهما أنثوي، والآخر ذكري.

كان الشكل الأنثوي للقمر هو الإلهة «نيكال» التي هي من أصل رافديني معروف، فهي إلهة القمر السومرية التي يرد اسمها على شكل «نتكال»، أي السيدة العظيمة، ويرد اسمها كثيرًا في قوائم الأضاحي في أوغاريت. «ويُعتقد أن الإلهة كانت تتمتع بطقوس شعبية لائقة في أوغاريت، ومن المحتمل أن مركز عبادتها الأساس كان في حران، التي

كانت إحدى مراكز عبادة إله القمر الرافديني «سن» الرئيسية، وانتقلت عبادتها من هناك في وقت مبكر إلى سورية» (أذزارد، ١٩٨٧م، ٢٤٨).

أما الشكل الذكري للقمر فهو الإله «يرح» ويسمى أيضًا «ياريش»، وسنرى كيف يكون الإله «يرح» مصدر العبادة القمرية في جزيرة العرب واليمن من خلال الإله «ورخ». وهناك أسطورة زواج يرح من نيكال توصف فيها الإلهة العروس على أنها ابنة إله يلقب بـ «ملك ثمار الصيف»، وتحضر حفل الزواج الإلهات المسئولات عن الحمل والولادة «كوثرات»، ويهتم القسم الأول بخطبة العريس وطقوس عقد القران وحفل الزواج حسب التقاليد الكنعانية القديمة. أما القسم الثاني من الأسطورة فيخص مرحلة ما بعد الزواج، وكيف أن الإلهات كوثرات يتهيأن لاستقبال الطفل الجديد من هذا الزواج، الذي هو ثمرة مباركة تنبئ بخصب الأرض والطبيعة أيضا.

وهكذا تصبح أسطورة القمر أسطورة هامشية على متن الفاعلية الخصبة التي يشكل أساسها إيل وبعل وعناة بالدرجة الأساس. وهو أيضًا ما يعكس عدم اهتمام الكنعانيين بالشمس والقمر والكواكب بشكل عام في أساطيرهم وحياتهم؛ لعدم أهميتها المباشرة قياسًا إلى دورات الخصب والجفاف والمطر والري.

(١١) أسطورة حمون

لا نملك نصًّا صريحًا يشرح لنا بدقة أسطورة حمون وتانيت في شمال أفريقيا، رغم وجود إشارات كثيرة إلى وجود مثل هذه الأسطورة؛ لكننا نستطيع أن نخمن أنها مزيج من أسطورة بعل وعناة وأسطورة ملكارت؛ وذلك بسبب من الطبيعة النارية للإله حمون.

كان الإله حمون، أو «بعل حمون» إلهًا كنعانيًّا/فينيقيًّا انتقلت عبادته مبكرًا إلى شمال أفريقيا، وساعد على ترسيخ وجوده اتخاذ صفاته مع صفات الإله المصري «آمون» الذي كان له معبد كبير ومشهور في واحة سيوة الغربية باتجاه الصحراء الليبية «وقد اقترح الأستاذ ستاركي تفسيرًا لمعنى الاسم «سيد المباخر» معتمدًا في تفسيره على وجود عدد كبير من الأنصاب في قرطاجة عليها مشاهد تقدمه البخور» (أذزارد، ١٩٨٧م، ٢٠٢).

ويبدو أن الإله بعل حمون عُبد من قِبل البربر كإله قومي خالق، وكانت أنصابه في قرطاج قبل القرن الخامس قبل الميلاد تذكره لوحده، ثم تغيرت العقيدة الدينية القرطاجية واستبدلت ملكارت وعشتار ببعل حمون وتانيت، وأصبح يحتل المرتبة الثانية بعد تانيت.

والتجسيد البشري لبعل حمون يأتي من قرطاجة حيث جسد على شكل إنسان جالس على عرشه وبجواره تمثال لأبي الهول المجنح ويمسك رمحًا بيده اليمنى (شكل ٢-٤٨). وكان قرص الشمس المجنح الذي تظهر بقاياه في النقش البارز يظهر كرمز له بالإضافة إلى القرنين في مقدمة رأسه في أحيان كثيرة؛ ولذلك كان يسمى أحيانًا «بعل قرنيم»، وكانت تقدم له الأضاحي البشرية.

شكل ٢-٤٨: بعل حمون منحوتًا على لوحةٍ من سوسة، رسم: فاروق كاظم.

وكان حمون في شمال أفريقيا ينبع من علاقته المقربة مع «آمون» المصري «وربما كان ذلك لأن الإله آمون كان له معبد ذائع الصيت بالنسبة للساحل الأفريقي الشمالي

بأسره، وهو المعبود الموجود في واحة سيوة، ومما يزيد في تأكيد هذا التشبيه أن الإله بعل حمون كان يُمثَّل بقرني الكبش وملتحيًا مثل الإله آمون المصري» (عصفور، ١٩٨١م، ١٤٧).

وقد عبد البربر هذا الإله قبل مجيء الفينيقيين إلى شمال أفريقيا.

كان «حمون» سيد البانثيون البوني ومطابقًا للإلهين «زوس» و«أبولو» والإله «ساتون» في الحقبة الرومانية حيث عرف بهذا الاسم.

وقد تعني كلمة «بعل» سيد الألواح النقشية، وربما اشتقت كلمة حمون من كلمة حمامين التي تدل على الألواح النقشية كما ترى ذلك ميادان (انظر: ميادان، ١٩٨١م، ٦٤).

ولكننا نرى العكس؛ حيث يمكن أن تكون كلمة الألواح النقشية مشتقة من «حمون» لارتباط هذه الألواح به بصورة مركزة.

ثم تحول اللقب إلى «إيل» الذي لقب أيضًا بـ «سيد الألواح النقشية».

وارتبط «حمون» بالأضاحي البشرية، وخصوصًا الأطفال الذكور والإناث، للتقرب منه وكف غضبه، وقد عرف حمون في الفترة الرومانية باسم «ساتورن» وكانت تقدم له الألواح النقشية. وأحيانًا الذبائح البشرية سرًّا.

(١٢) أسطورة تانيت

تطرقنا سابقًا إلى الجذور القديمة التي شكلت اسم تانيت وشخصيتها، ونرى أن الإلهة عناة هي أصل تانيت، فقد جلبتها الهجرات الكنعانية المبكرة جدًّا (ربما في الألف الثاني قبل الميلاد) إلى شمال أفريقيا. وتحور الاسم عندما تداوله المهاجرون الذين صاروا فيما بعد بربر شمال أفريقيا. حيث يرد اسم «أناتا» في أسماء الآلهة الكنعانية، ولأن البربر يؤنثون الاسم بتاء متقدمة، فإن الاسم يتحول إلى تاناتا أو تانيت.

ولكننا نرجح رسوخ الاسم في شمال أفريقيا بتأثير مصري أيضًا؛ حيث عُبدت في الواحات الغربية، ثم في مدينة «سايس» ذات المناخ الصحراوي الإلهة «نيت»، وهي الإلهة التي ورد ذكرها في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات على فخار نقادة، واعتبرت في الدولة القديمة ابنة رع. وقد شبهها الإغريق بمعبودتهم «أثينا» ذات الصلة بعناة أيضًا. وكان ظهور رمزٍ مبكرًا منقوشٍ على الصخور الليبية موحيًا بالعبادة المبكرة للإلهة الأنثى دون أن نعرف لفظ اسمها الدقيق.

شكل ٢-٤٩: الإله آمون وتجسيده الحيواني على شكل كبش يحمل الشمس بين قرنيه، ويمثل هذا الإله، بشكله هذا، الإله الليبي والبربري القديم «بعل حامون».

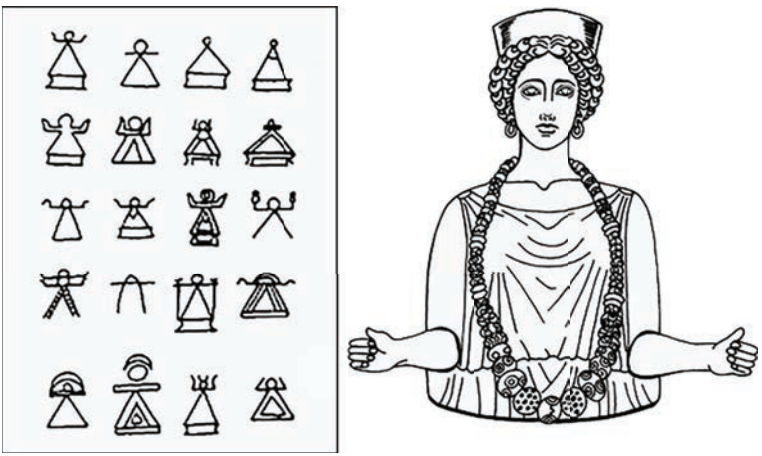

شكل ٢-٥٠: تانيت قرطاج ورموزها.

وهكذا اجتمعت كل هذه المرجعيات لتشكيل شخصية تانيت ورمزها واسمها ... وأصبحت الإلهة الأم الخالقة.

أما الصفة السماوية لتانيت فنعتقد أنها أتت من «نوت» إلهة السماء المصرية (القريبة من اسمها)، إضافة إلى الجذر السومري البعيد لملكة السماء إنانا، التي نرى أنها أصل كل هذه الألوهة المؤنثة.

وتظهر السماء في اسم تانيت مع حرف «ن» الذي يدل على السماء «آن». هكذا إذن ترسخت شخصية تانيت في شمال أفريقيا عبر البربر أولًا، ثم عبر البونيين. وقد عبَّر البربر والقرطاجيون عن تقديسهم لهذه الإلهة، فقد عثر على تمثال مجسم يجسدها مثل سيدة تحمل طفلًا بين ذراعيها وعلى حِضنها (شكل ٥٤)، فهي إلهة الأمومة والخصوبة عندهم، وكان قرينها الدائم هو الإله بعل حمون.

تانيت القرطاجية

سميت تانيت القرطاجية بـ «تانيت بانيبال» أي «تانيت المواجهة لبعل»، أو (تانيت وجه بعل). وكانت تُعبد عندهم منذ القرن السادس والخامس ق.م.

وبرغم أنها كانت قرينة الإله بعل حمون، إلا أنها كانت تقترن أحيانًا مع الإله «أشمون» إله الشفاء، وهو إسكولاب الإغريقي، ويجاور معبدها معبده في قرطاج عند خليج بيرزة.

وإضافة إلى أن الإلهة تانيت كانت إلهة أم؛ لكنها كانت «في تصور العابدين عذراء، رغم أنها إلهة من إلهات الخصب، ومن رموزها ثمر الرمان، والتين، وسنابل القمح، والسمكة، وتلعب دورًا كإلهة من إلهات السماء، وتتميز عن عشتار — نجم الزهرة — بأن مجال عملها كان على الكواكب — الأقمار — وقد استمرت عبادتها حتى القرن الثالث الميلادي في شمال أفريقيا وإسبانيا، وبنى لها القيصر «سبتموس سفيروس»، الذي هو من أصل أفريقي، معبدًا في روما» (أذزارد، ١٩٨٧م، ٢٠٨).

وظلت عبادة تانيت صامدة قوية في قرطاج حتى بعد سقوطها، فعندما رحل «غراكشوس» سنة ١٢٢ق.م. إلى قرطاج ونزل في خرائبها حاول أن يسميها «جونون»، وهو الاسم الروماني المقابل لتانيت، والذي كان يستعمل في الشرق الفينيقي الذي خضع للرومان أيضًا. ويشير إلى زوجة بعل (وبشكل خاص بعل مرقد إله الرقص). وجونون (جونو) هو اسم إلهة الأسرة والزواج عند الرومان وزوجة كبير الآلهة «جوبيتر»، وتقابل الإلهة هيرا الإغريقية زوجة «زوس».

وفي حدود القرن الثالث الميلادي لاقى معبد الإلهة «جونون-كايلتس» (وهي تانيت اليونانية) شهرة عالمية، ونافست كاهناتُها كاهنات معبد دلفي في استكشاف الغيب، وتكاثر عبادها من الرومان، وأُكرم تمثالها في الكابيتول. وبقي معبدها الملجأ الأخير للدين الوثني الرسمي ولم يُهدم إلا في سنة ٤٢٦م (انظر: ميادان، ١٩٨١م، ١٢٥).

وقد أظهرت التنقيبات في إسبانيا تمثالًا يعتقد أنه لـ «تانيت» الأيبيرية (الإسبانية) تشبه سيدة ألشي Lady of Elche وتزين بأغطية رأس براقة وحلي أيبيرية قديمة.

(٤) المبحث الرابع

الكائنات الأسطورية غير الإلهية (الشياطين والكائنات الخرافية)

ظهرت الكائنات الأسطورية الأولى، أو القديمة في بداية شجرة الآلهة، ومنذ أول اتصال للسماء مع الأرض فقد ظهر عماليق الجبال وعماليق الحضارة وعماليق الممالك، وظهر أيضًا الشياطين وكان على رأسهم «تيفون» الذي كان يقاتل ملكارت بشكل خاص.

ثم ظهرت أنواع أخرى من هذه الكائنات الأسطورية مع ظهور الإلهين إيل وبعل، وكانت لها بعض الصفات الإلهية الشريرة أو الخيرة؛ ولكنها لا ترقى إلى مستوى الآلهة، ويمكننا فرز هذا الكائنات إلى ثلاثة أنواع هي:

(٤-١) أبناء إيليم

وينسبون إلى الإله إيل، وعندما يحجم إيل عن التدخل كان يكلف أبناء إيليم أن يحملوا غيوم الشقاء، وكان الموت بيَدِ أبناء إيليم، وكان الموت الذي يحملونه يسمى «الموت الأبيض» و«الموت الأحمر»، وحين يصل إلى الأرض يكسر شوكة المجد والكبرياء؛ لأن روح الحي يمكن أن تكون مركزَ بعض الشياطين حيث يتمجدون بالكبرياء (انظر: ميديكو، ١٩٨٠م، ١٢٦).

(٤-٢) الكروبيم

وهم قوى طبيعية تأتمر بواسطة بعل، ويسمَّون الأبالسة الذين يمكن أن يتغلبوا على البلاد الأجنبية بواسطة «الأيدي الخفية»، ويسحقون كل شيء تحت أقدامهم. وكانوا كثيري العدد

ويحاربون كالجيوش، وزعيمهم المباشر كان يسمى «حارس الأموات» و«دليل المتوفَّين»، وهو سفير بعل، وكان البعض يدعونه إلى المائدة ويتذللون إليه ويقدمون إليه الذبائح كما لو كان إلهًا. وشكله قاسٍ يمكن أن يتبدل بعدة أشكال، ولا تؤثر فيه اللعنة، وإذا ما أسدى النصح لأحد فيجب أن يعمل بعكس نصيحته؛ لأنه كاذب. ولحارس الأموات ودليل المتوفين طقس خاص به يمتاز بخاصية المكر المؤدي إلى تدنيس المقدسات، وهو يفرح للخزي، ويضحك ممن يتخبط في سبيل التخلص منه (انظر: ميديكو، ١٩٨٠م، ٨٧).

وكان الكروبيم أبالسة يقال إنهم أبناء الإله إيل والإلهة ريا إلهة الأرض، ومنهم الإله «موت» الذي هو بمرتبة إله.

وهناك أسماء كثيرة لبعضهم مثل «الذي يُعمي البصيرة» و«الذي يجعل الشفاء مستحيلًا» و«الذي يسحق بعملية تدمير مظهره» ... إلخ، وكان هؤلاء الأبالسة يظهرون بشكل طبيعي في العالم الآخر، حيث تكون مهمتهم السهر على الأموات وتعليمهم عادات الحياة بعد الموت.

وكان فعل الموت الذي يقوم به الأبالسة يسمى «التطهير بالتدمير»، أي إن الفناء هو نوع من تطهير الإنسان أو الوجود من هذا الإنسان؛ حيث يذهب الإنسان ليستريح قرب الأرض أُمِّه الكبرى.

وقد ذكرت ملحمة الملك الكبير (اللآلئ) مثل هذا الفعل:

> «والآن هذا هو كلام إبليس مُعمي البصيرة، حامل علة الموت، الطاغية سأحاربه، السير الأعظم.
> سأطرح جانبًا الشكاوى وأقاتله — إنه إعلان من فمي — حتى النهاية وبتدمير مطهر سأكسره» (ميديكو، ١٩٨٠م، ١١٣).

(٤-٣) الرفائيم

وهم كائنات طيبة تمثل جنس العمالقة في عصر جيل إيل، وكان اسمها الكنعاني «رفوم» والعبري «رفائيم». ولهذه الكائنات علاقة بأمور الشفاء من الأمراض، وخصوصًا أمراض العقم، وقد تشير مفردة رفائيم إلى مجموع سكان العالم الأسفل.

وخلاصة أسطورة الرفائيم، التي تدور حول حفل تتويج ملكي إلهي، هي: أن الإله إيل يوجه دعوة إلى الرفائيم ليحضروا حفلة في الهيكل؛ لكنهم يتباطئون، فيلح عليهم

فيسرجون خيولهم ويسيرون حتى يصلوا البيدر في مزرعة إيل، فيرحب بهم دانيال ويقدم لهم فاكهة.

وفي الهيكل ينحرون عجلًا ويقدمون شرابًا، ويعلن إيل أن البعل سيتوج ويجلس على العرش ملكًا، ويصادفون إلهين هما «رفأ-بعل» و«حيلي» فيشكرهما إيل لحضورهما حفلة «سكب الزيت» على رأس بعل والتي تتوج بعلًا ملكًا.

وفي آخر الأسطورة يظهر شخص (ربما كان إلهًا) يخاطب قائلًا معلنا اكتمال بناء بيته، وأن عناة ستقبل شفتيه وتقوده إلى الهيكل؛ حيث يجد هناك من يسبح بذكر إيل وحمده، وتغادره عناة بعد هذا وتطير إلى السماء، ونحن نرجح أن هذا الفتى هو «بعل» نفسه، وأن والده «إيل» هو الذي خاطبه.

ثم يقوم سدنة الهيكل بنحر الذبائح وسفح الخمور، ويستمر الحفل لسبعة أيام. لكننا لا نعرف ما الذي حصل بعد ذلك (انظر: فريحة، ١٩٨٠م، ٣٣٧–٣٤٦).

هذه الأسطورة الناقصة للرفائيم لا تتفق مع كونها جزءًا من قصة دانيال؛ بل هي أسطورة بعل وبناء بيته وتتويجه ملكًا؛ لكن الرفائيم فيها أصحاب حضور قوي، ويفهم من النص أنهم أشبه بخُدَّام الإله إيل؛ يحضرون له حفلاته وولائمه وأنهم يعملون على إنجاح هذه الحفلات وضبطها.

(٤-٤) أقنعة الشياطين

انتشرت في قرطاج بشكل خاص صناعة الأقنعة التي استعملت لأغراض سحرية ودينية، في محاولة لطرد الأرواح الشريرة والتغلب عليها، ولذلك كانت هذه الأقنعة بمثابة الأشكال والمسوخ الشيطانية التي كان الإنسان يستعملها في طقوسه الخاصة بطرد الأرواح الشريرة، أو التي يحتفظ بها في مقبرته لأغراض ما بعد الموت وإضافة الأرواح الشريرة وطردها.

ويعتقد أن مثل هذه التقاليد أتت من التراث الزنجي الأفريقي، الذي كان يعتني باستعمال هذه الأقنعة.

وكان بعض هذه الأقنعة يحمل العلامة «×» الدالة على العالم الأسفل، والتي كانت توضع عادة على جبين التمثال كما في هذه الأشكال الخاصة بالأقنعة (شكل ٢-٥١).

لا نميل إلى الاعتقاد بأنها كانت جزءًا من مستلزمات عروض مسرحية مثلًا. كان قناع «دويمس» الشهير أكثر القنعة القرطاجية محلية دون ما يكون هناك ما يناظره شرقًا وغربًا (شكل ٢-٥٢).

شكل ٢-٥١: الأقنعة الشيطانية (عن: Moscati, 1968: 62, 74)

شكل ٢-٥٢: قناع دويمس القرطاجي، ويلاحظ وجود حلقات في الأنف والأذن (عن: الناظوري، ١٩٨١م، ٢١٩).

(٤-٥) الكائنات الخرافية

(١) **أبو الهول الكنعاني:** يظهر أبو الهول الكنعاني (وهو رجل بجسد أسد) متأثرًا بأبي الهول المصري إلى حد كبير؛ فقد وصلتنا من مدينة أرواد (في حدود القرن التاسع قبل الميلاد) نقش مرمري جميل مزين من الأعلى بنقش زخرفي رائع، ويظهر أبو الهول مجنحًا يلبس التاج المزدوج المصري، وفي أسفل اللوحة مذبح منخفض أو منضدة (انظر: عصفور، ١٩٨١م، ١٦٣) (شكل ٢-٥٣). وهناك نقش آخر لأبي الهول على تاج لولبي من الأعمدة الأيونية المبكرة، عثر عليه في قبرص، يظهر لنا شكلًا متناظرًا لأبي الهول تتوسطه شجرة الحياة.

شكل ٢-٥٣: أبو الهول الكنعاني على شاهدِه. عن (Harden 1962: 192).

(٢) **العنقاء أو الفينيق:** وقد تحدثنا عنها طويلًا في المبحث الأول، وقلنا: إنها طائر بجسد حيوان، قد يكون أسدًا، ولها علاقة بالنار والانبعاث من الرماد.

(٣) **الجن:** وهي عمومًا الكائنات المجنحة التي تظهر في المنحوتات والنقوش الكنعانية، ومنها الجن الذي يمسك سوطًا بيده اليسرى وكُرة بيده اليمنى، وله رأس طير وجسد بشري ومزوَّد بأجنحة. وكانت مثل هذه الكائنات تتكرر مرارًا في التراثين الآشوري والآرامي، وتدل على كائنات شبه إلهية.

شكل ٢-٥٤: نقش أبي الهول على عمود أيوني مبكر عُثر عليه في قبرص. عن (Harden 1962: 192).

أخذت شكلًا آخر؛ حيث لها رأس الطير وتمتلك أجنحة وجسدًا بشريًّا، وهي أشكال مختلفة لأبي الهول والعنقاء كما في الشكل أدناه:

شكل ٢-٥٥: العنقاء أو الفينيق، رسم: فاروق كاظم.

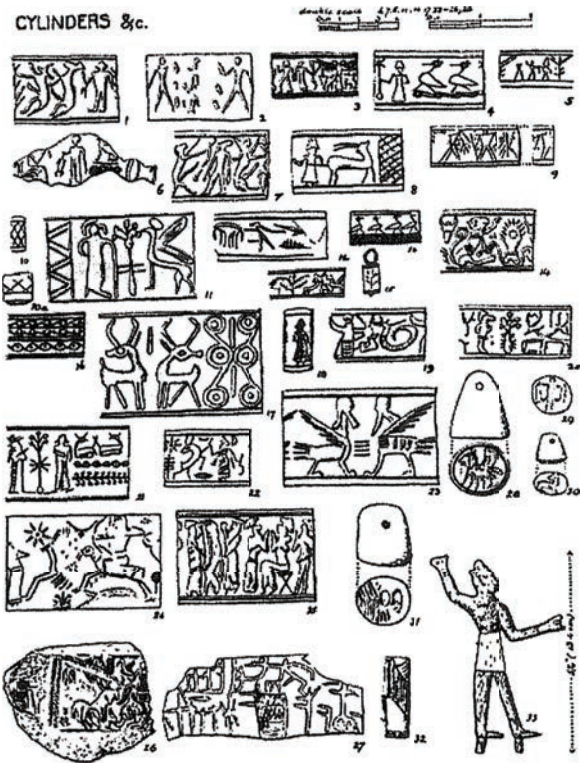

شكل ٢-٥٦: مجموعة من الأختام الكنعانية من جيزر. عن (Cook 1930).

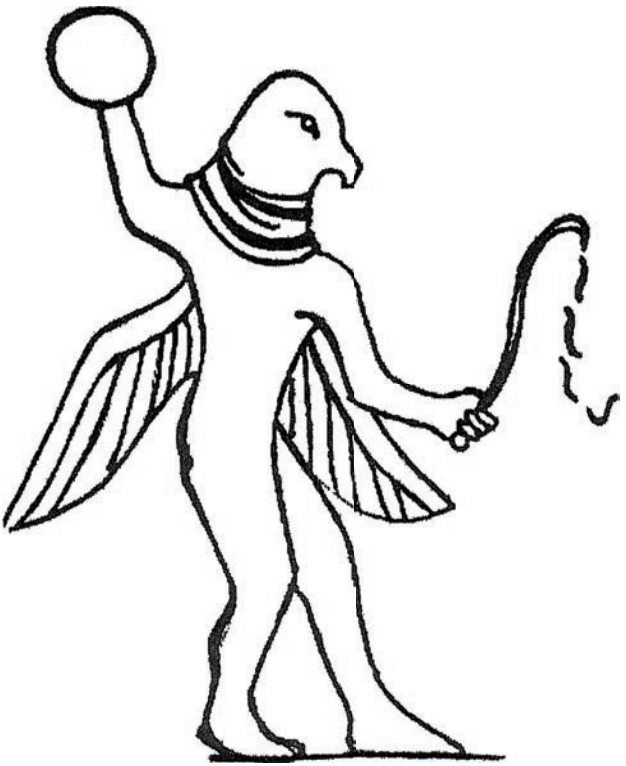

شكل ٢-٥٧: جن كنعاني، رسم: فاروق كاظم.

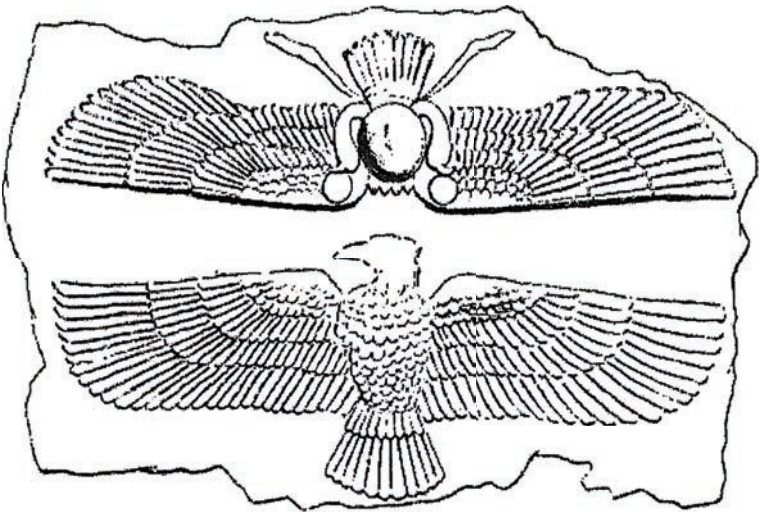

القرص المجنَّح والنسر الفينيقيان. عن (Cook 1930).

مشهد يوضح الكائنات الخرافية الكنعانية المختلفة وهي في حالة طقسية (عن:Gray 1964).

الفصل الثالث

القصص والملاحم الكنعانية

دراسة في الآباء والبشر المؤلهين والأبطال عند الكنعانيين

ربما لا تقع مادة هذا الفصل في صلب العقائد الروحية الكنعانية؛ ولكننا وجدنا أنها تكمل الفصل السابق وتضيء بعض الجوانب التي خلطت بين الآلهة والبشر، وتفرز في الوقت نفسه الأساطير عن القصص والملاحم؛ فقد تعودنا مصادفة العبارة الخاطئة «أسطورة كرت» أو «أسطورة إمهات» ... إلخ. وقد أمدتنا الكتب والروايات الشعبية بما يُحكى عن أبي الكنعانيين (كنعان)، وعن أبي الفينيقيين (فينيق)، وهذه كلها شوشت صورة المثولوجيا الكنعانية وزادتها غموضًا.

وقد وجدنا أن الطريق الأسلم لدراسة تحليلية في هذا المجال هو الذهاب لأبعد نقطة أي منذ خلق البشر، والتدرج في ذكر البشر الأسطوريين وتتبع جذورهم المثولوجية.

(١) قصص الجيل الأول من البشر (الآباء: آدم وسلالته)

ذكرنا مفصلًا في الفصل السابق أسطورة خلق الإنسان الكنعانية، وقد وضعنا الهيكل الفرضي لهذه الأسطورة التي نتمنى أن تكشفها الآثار ذات يوم، واعتمدنا في ذلك على الأسطورة العبرية التي نرى أنها نهلت من الأسطورة الكنعانية المفقودة.

ملك أوغاريتي يقدم آنية للإله إيل، نقش حجري من أوغاريت (رأس شمرا).

(١-١) آدم

لا نملك القصة الكنعانية الآثارية عن آدم، لكن ما في حوزتنا من أخبار متواترة هي خليط من الروايات الكنعانية والعبرية والعربية عن آدم توضح لنا بعض ما يشبع الفضول.

إن قصة آدم في الفردوس الإلهي وقصته مع حواء والأفعى، التي نرجح أن تكون «تيفون»، هي أمور لا نستطيع تأكيد ما إذا كانت كنعانية أم لا؛ رغم أن هناك ما يشير إلى وجود مؤثرات سومرية معروفة فيها، وهو ما يُقرب لنا صورة الصلة بين السومريين والكنعانيين الذين كانوا في أصولهم الأولى يقطنون مكانًا واحدًا هو جنوب العراق.

كذلك تبقى قصة السقوط من الفردوس إلى الأرض غامضة، رغم أن هناك ما يشير إلى أن آدم هبط إلى جبل حرمون الكنعاني (جبل الشيخ)، وأن ولديه (قابيل وهابيل) أقاما طويلًا شرقَي الفردوس في سهل البقاء، ويستدل على صحة هذا التقليد اليوم من قبور هابيل وقابيل وشيت المقامة في المحل المشار إليه (انظر: عبد الحكيم، ١٩٧٨م، ٦٦).

وإذا قمنا بتحليل اسم آدم فلا شك أن معنى اسمه هو مذكر الأدمة لإلهة قشرة الأرض، وفي اسمه ما يفيد وجود الدم وهو سر الحياة عند الأولين. كذلك نرى أن اسمه يمكن أن ينقسم إلى قسمين هما «آد + أم»، ويعني مقطع «أد» الإله، و«أم» يعني الريح، وهو إله الريح، والأصح «الكائن الذي فيه ريح الإله» أو روح الإله، وهذا يتطابق مع ما ورثناه من أن الله نفخ في صورة آدم من روحه أو نفسه.

ويروي فينون سانخونتين رواية تحمل مؤثرات مصرية وإغريقية عن خلق الإنسانَين الأولَين، وهما «يون = الدهر أو الزمن» و«بروتوجون = حواء البكر»، ومنهما جاءت ذرية فينيقيا وعددهم مائتان، فسمَّوهم النور والنار واللهب، وبعد ذلك أنجب هؤلاء الكنعانيون أولادًا ضخامَ الأجسام، طوال القامات، وسميت الجبال التي ملكوها بأسمائهم، وهي: قاسيون، ولبنان، والتيلبنان، وبراتي (انظر: عبد الحكيم، ١٩٧٨م، ٤٥).

ويؤكد سانخونتين من ناحية أخرى على أن «بوتوس = الهواء المتحرك» لقح نفسه فوق الخواء فأنتج «موت = البيضة المضيئة» التي جعلت مياه المطر تنهمر بالحرارة وظهر منها الشمس والقمر والكواكب والنجوم والزوابع والعواصف، وظهرت من هذه كائناتٌ تتحرك وهي غائبة عن الوعي، ثم ظهرت منها كائنات ناطقة تتأمل السماء، فيما الذكر والأنثى فوق اليابسة وتحت الماء.

لكن سانخونتين، ومعه فيلون، يؤكدان أن بوتوس هذا كان يمثل الرغبة التي تزاوجت مع «أوميشيل»، أي الظلام، ونتج عن ذلك العقلُ المحض «إر» والصورة الحية من العقل «أورا»؛ حيث نتج عن ذلك العقل الأول «أوتوس». وكل هذه الأفكار الغنوصية والهيلنستية تطلي تلك الروايات القديمة عن الخلق البشري.

(١-٢) قابيل وهابيل

هناك ما يُروى عن أن دمشق كانت أرض آدم، وأنها الأرض التي شهدت الجريمة الأولى: قتل قابيل لهابيل؛ حيث إن اسم دمشق يعني شراب الدم إشارة إلى إراقة دم هابيل عليها.

وينتشر بين سكان جبل قاسيون (شمال دمشق) الاعتقاد بأن هذه الجريمة وقعت أعلى قمة الجبل، وينسب القزويني لصخرة دمشق الكبيرة أنها كانت المكان الذي قدَّم

عليها قابيل وهابيل قربانهما، وحين لم يُقبل قربان قابيل قام بقتل هابيل وسال الدم على هذه الصخرة التي تجاورها مغارة تسمى «مغارة الدم» (انظر: المرجع السابق، ٦٦).

(١-٣) شيث

أما شيث الذي نرى أنه المقابل البشري للإله «سيتون» فهو الذي انحدر منه الجنس البشري بعد مقتل هابيل وفرار قابيل إلى منطقة بعلبك؛ حيث بنى فيها هذه المدينة وسكن فيها البشر والأشرار من نسله.

وربما اشتق اسم صيدا من شيت، رغم أن الإله صيد هو أساس الاشتقاق؛ لكن ذلك يدفعنا إلى المقاربة بين شيت وصيد واعتبارهما مرتبطين بالصيد البري والبحري.

وإذا اتخذنا من الرواية التوراتية مؤشرًا فسيكون نسل الأنبياء والرجال الصالحين القدماء منحدرًا من شيث، مثل (أنوش، قينان، مهلئيل، يارد، أخنوخ متوشالح، لامك، نوح)، وبالطبع فإننا لا نعرف الأسماء الكنعانية الدقيقة المقابلة لهذه الأسماء، والتي نرى أنها تشكل مع آدم وحواء وأبنائهما الجيل الأول من البشر، الذين نحتتهم الذاكرة الكنعانية من تراثها أو من تراث من سبقها ممن كان يعيش معها في مناطق نزوحها الأول.

(٢) قصص الجيل الثاني من البشر (البشر المؤلهين: بعد الطوفان)

لا نملك، لحد الآن، رواية كنعانية خاصة بأسطورة الطوفان، ونستغرب غيابها أو عدم ظهورها! في حين أن صلة الكنعانيين بالمياه قريبة.

إن ظهور جيل آخر من البشر بعد الطوفان أمر لا نلمسه بصراحة بعد خلق السماء والأرض مباشرة، أي إنهم يشبهون «آدم وسلالته»، وهذا غير جائز؛ لذلك نرجح أن يكون هؤلاء قد ظهروا بعد الطوفان (إن وجد عند الكنعانيين)؛ لأن أولهم، وهو كنعان، يتطابق مع سام أو ينحدر من حام وهما أبناء نوح بطل الطوفان.

لا بد أن نشير أولًا إلى مسالة نظرية في غاية الأهمية تفسر لنا علاقة الأسطورة بالدين من جهة، وبالتاريخ من جهة أخرى، حيث ينتج عن علاقتها بالدين مثولوجيا خالصة، أما عن علاقتها بالتاريخ فينتج نوع من المثولوجيا التاريخية.

المكان الطبيعي للأسطورة هو الدين، والآلهة محور الأساطير وجوهرها. وعندما تزحف الأسطورة نحو التاريخ فإنها تؤسطره، وينتج عن ذلك إما ملاحمُ ترفع الأبطال

والملوك إلى مكانة الآلهة وتنسبهم لها، أو مدنٌ تقوم الآلهة ببنائها فتكون مقرًّا أرضيًّا لهم.

ولأن التراث الكنعاني كان على صلة كبيرة مع التراثَين العبري والعربي؛ فإنه تحول في بطون التاريخ إلى فُولْكلور وملاحم تاريخية ذات طابع شعبي وديني. وهكذا أصبحت المقابلة بين الأصول الأسطورية والنتائج الفولكلورية الشعبية صعبة للغاية.

ولكننا رغم ذلك حاولنا أن نرصد مجموعة من التحولات التي خاضت فيها المثولوجيا مع التاريخ؛ فقد تحول شام إلى كنعان وطُرد من العائلة السامية؛ بل وأصبح ابن حام (وهذه مفارقة توراتية معروفة)، وأصبح فينيق (الذي ربما كان دامور مثولوجيًّا) ابن كنعان! في حين أنه اسم مرادف له.

وأصبح صيد ابن كنعان، وأصبحت صور ابنة صيد، وهكذا تحول الآلهة إلى ما يشبه الملوك أو الأجداد المؤسسين لكنعان ومدنها.

ونرى أن الأسطورة تكون راسخة ثابتة قوية عندما تكون جزءًا من الدين، أما عندما ينهار ذلك الدين أو يستبدل به دينٌ جديد فإن عناصر الأسطورة تنهار معه وتتخفى وتتوارى وراء التاريخ؛ بل وتتحول إلى حكايات وخرافات شعبية وتندس في الملاحم الشعبية والقصص الخرافية.

ولا شك أن التوراة أولًا، ثم كتب أخبار الرواة وكتب المؤرخين القدامى، هي المكان الذي شهد انهيار الأساطير القديمة ورحيلها نحو التاريخ.

(٢-١) كنعان

تُعتبر التوراة المصدر الرئيسي للمثولوجيا التاريخية الكنعانية، فقد لعبت التوراة دورًا رئيسيًّا في تحريف وتشويه سيرة الكنعانيين وتغيير حقيقتهم التاريخية، وصياغة حكايات أسطورية عنهم.

يذكر سفر التكوين أن كنعان هو أحد أبناء حام الأربعة (كوش، مصرايم، فوط، كنعان) (التكوين، ٦: ١٠).

وهذه هي المغالطة الأولى؛ حيث يستبعد كنعان من الساميين وينسب إلى الحاميين، ولأن اللغة الكنعانية تنتسب إلى اللغات السامية الغربية فلا مجال لوضع الكنعانيين ضمن النسب الحامي، الذي اتسم بسُمرة البشرة والسكن في شمال وشرق أفريقيا بشكل خاص.

ويبدو أن حُمرة البشرة الكنعانية أبعدهم عن الساميين (في نظر كتبة التوراة) وجعلها تنحشر مع البشرة الحامية السمراء.

ثم إن ربط الكنعانيين بمصر أمر يدعونا إلى الاستغراب والمزيد من التأمل في الوقت نفسه.

إننا نرى أن العلاقة المبكرة المتميزة التي ربطت بين بعض المدن الكنعانية الساحلية، مثل: جبيل، وبين مصر كانت سببَ هذا الربط؛ فقد ظهرت هذه العلاقة بوضوح منذ عهد الأسرات العتيقة والقديمة، أي من الأسرة الأولى وحتى السادسة بوضوح شديد. وكانت العلاقة اقتصادية ودينية، وقد اعتبر المصريون أن أوزيريس كان أخًا لكنعان. «وكان كنعان أول منْ سمي «فينقس»، فكانت أعياد قيامة الإله المصري أوزيريس تقام في مدينة جبيل الكنعانية أو اللبنانية، كما أن في مكان الإسكندرية القديمة، أو فاروس، كانت تقام أعياد وشعائر أدونيس الفينيقي، فقد جعلوا من كنعان أخًا لأوزيريس، دلالة على وحدة نسب الأمتين» (عبد الحكيم، ١٩٧٨م، ٤١).

ورغم أننا لا نملك في المثولوجيا المصرية أو الكنعانية ما يشير إلى ذلك؛ لكننا لا نستبعد وجود معابد متبادلة بينهما.

إن العلاقة بين الكنعانيين والمصريين أمرٌ مؤكد؛ ولكنه لا يصل إلى حد وحدة النسب؛ بل ربما كان هناك تأثر وتأثير ثقافي كبير بينهما، ويعزز ذلك الوجود المصري الطويل الأمد في المدن الكنعانية الساحلية، والبرية في فلسطين، والصراع الطويل الذي خاضه المصريون مع الحوريين والحيثيين لإخضاع بلاد الشام، وخاصة قسمها الكنعاني.

المغالطة الثانية هي في جعل الفلسطينيين والكريتيين يخرجون من أبناء مصرايم، حيث يقول سفر التكوين: «ومصرايم ولد لوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم وفتروسيم وكسلوجيم الذين خرج منهم فلشتيم وكفتوريم» (التكوين، ١٠: ١٣، ١٤).

وفلشتيم يشير إلى فلستو، أما كفتوريم فيشير إلى جزيرة كريت التي كان المصريون يسمونها «كفتور»، ومعروف أن الفلستو هم أقوام بحرية إيجية ساهمت في الهجوم على مصر، وبعد أن هُزمت اتجهت نحو السواحل الكنعانية، فاحتلت مدنه الجنوبية واستقرت فيها. أما جزيرة كريت فقد هاجر إليها الكنعانيون مبكرًا ونقلوا إليها ثقافتهم التي كانت السبب المباشر في ظهور الحضارة الكريتية، كما أن اسم كريت نفسه يمكن أن يكون كنعانيًّا؛ حيث كلمة «كريت» تعني «قرية أو مدينة»، ولا يعرف إلى اليوم من هم سكان كريت الأوائل، رغم أن الاعتقاد السائد أنهم من أصل آسيوي.

المغالطة الثالثة هي في اللعنة التي لحقت بكنعان بعد أن صُبَّت على حام؛ حيث يروي سفر التكوين أن نوحًا بعد الطوفان أصبح فلاحًا وغرس كرمًا وصنع من الكرم خمرًا، وشرب فسكر وتعرى داخل خيمته، ودخل عليه حام (أبو كنعان) فشاهده عاريًا ورأى

عورته فأخبر أخوَيه (سام ويافث)، فأخذ أخواه الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء لئلا يريا عورة أبيهما ووجههما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من غفوته وعلم ما فعل به ابنه الصغير حام قال: «ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبدا لهم.

ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام. وليكن كنعان عبدًا لهم» (التكوين، ٩: ٢٥–٢٧).

ونلاحظ هنا أنه بالرغم من أن حام هو الذي أخطأ لكن اللعنة تنصب على «ابنه المزعوم» كنعان. وهكذا نجد كنعان مهمشًا ملعونًا في التوراة لا لشيء إلا لأن العبريين احتلوا أرض الكنعانيين وأصبحوا أعداءً لهم، ولا بد من وصمهم دائمًا بالعار والخطيئة، وهو منهج سار عليه التوراتيون واليهود في علاقتهم مع مجاوريهم ومن حاربهم أو عاداهم.

وعندما نمعن النظر في مسلسل اللعنات الذي يبدأ من قابيل إلى حام إلى كنعان، فإننا نراه يستمر إلى إسماعيل، ونرى أن التوراتيين همشوا كل هؤلاء لأنهم أرادوا إبعاد كل ما هو خارج نسلهم بدءًا من آدم. وهكذا وصموهم بالخطيئة وعلقوا بهم دائمًا لعنات القتل (قابيل)، واللون (حام وكنعان)، والخطايا الجنسية (لوط وبنعمي ومؤاب)، وشكل الجسد (عيسو)، وضعة النسب (إسماعيل) ... إلخ (انظر: الماجدي، ١٩٩٧م، ٢٧٨–٢٨٧).

وحذت كتب التراث العربية حذو التوراة فحقرت الكنعانيين واعتبرتهم مع المصريين من نسل حام، وقام العرب بمساواة الكنعانيين مع البربر والنوبيين «فكان كنعان أَخًا لهم كما يقول النسابة العرب، فبعد اللعنة ولدت امرأةُ حام غلامًا لونه أسود، وسموه كوشًا، وولد لكوش الحبشة بن كوش، أما شقيقه الثانية الذي لحقته أيضًا لعنةُ أبيه هو ماريع بن حام، فقد ولد ثلاثة أولاد أو أجناس وهم كنعان وبربر والنوبة» (عبد الحكيم، ١٩٨٧م، ٤٠).

هكذا نُسج تاريخ الكنعانيين وفق مخيلة مثولوجية اندفعت — بقصد وبدون قصد — من منبع عدائي لهم ومن نظرة استعلائية، وقد تكون عنصرية، لها علاقة اللون الأسود أو الأحمر، وهو خطأ قاد إلى أخطاء أخرى كثيرة. ولذلك لا نستبعد أن يكون تكريس اسم «كنعانيون» له علاقة بمفهوم الـ «الشعب الواطئ»، أو الـ «الشعب الأحمر»، وهو ما تفضحه الكثير من الجمل والعبارات التوراتية الصريحة.

(٢-٢) فينيق

فينيق هو الاسم الذي أشاعه الإغريق للدلالة على الكنعانيين الذين كانوا يسكنون سواحل المتوسط الشرقية ويجوبون البحر وينشرون فيه حضارتهم.

وهناك مجموعة من الأفكار والمثولوجيات التاريخية التي رافقت ظهور وانتشار هذا الاسم ومصادره البعيدة والقريبة، وسنبدأ بأبعدها (انظر: مخطط (٨)).

(أ) طائر الشمس أو الطائر المحترق

هناك احتمال قوي أن يكون مصدر هذا الاسم من اسم الطائر الأسطوري المصري «بنو»، وهو الذي يوصف بأنه إله الشمس الذي ظهر على شكل «أتوم» في بداية الخليقة من البحر الأول «نون»، وعندما لم يجد له مكانًا صعد فوق حجر على هيئة مسلة «بن بن Bin bin» في مدينة أون (شكل ٣-١).

ويقترب شكل هذا الطير من شكل اللقلق أو أبو قردان أو مالك الحزين، يرمز للشمس، وربما كان هو مصدر فكرة ارتباط الشمس بالنسر عندما تحول بعد ذلك طائر «بنو» إلى النسر الذي يمثل طورًا أكثر إفصاحًا عن الشمس المحرقة وهو رمز الإله «حورس» إله الشمس الأقوى في مصر.

وتذكرنا هذه المرجعية المثولوجية بالفكرة الشائعة عن طائر اسمه طائر الفينيق الذي يمثل فكرة الانبعاث الدائم، حيث يحترق هذا الطائر ومن رماده ينبعث من جديد، ولعلنا نجد جذرًا لهذه الفكرة في دورة الشمس؛ حيث يظهر النسر في الأساطير المصرية وهو يحمل في كل فجر الشمس بقدميه من الشرق، ويغرب أو يموت مع غروبها لينبعث مرة أخرى صباح اليوم التالي وهو يبعث الشمس معه من جديد ... وهكذا.

لقد وحَّد المصريون الإله «بنو» بالإلهين «رع» و«أوزيريس»؛ بل إنهم عدوه في هليوبوليس كروح لأوزيريس، وهذا يعني أنه روح الخصب والشمس معًا.

واستطاع هيرودوت أن ينقل لنا صورة شائقة عن هذا الطائر عندما قال إنه يشبه العنقاء، وقال بأنه يظهر في مصر كل ٥٠٠ عام مرة واحدة، وأنه يولد أولًا في أعماق الصحراء، وما إن يولد حتى يطير مباشرة وهو يحمل جثمان أبيه ويقف بعد ذلك على مذبح معبد هيليوبوليس (معبد مدينة الشمس)؛ حيث يحترق بأعشاب المر، وتجري عملية الحرق هذه في احتفالات جنائزية ضخمة، يقوم فيها موكب من الناس والكهنة بدفنه بعد ذلك مصحوبًا بالعويل والبكاء (انظر: Larousse 1995: 46).

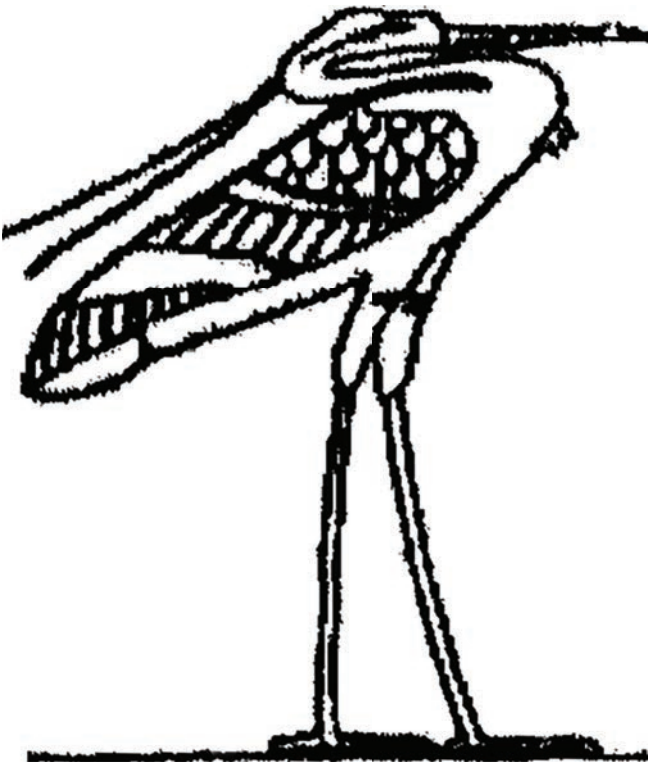

شكل ٣-١: الطائر الأسطوري المصري بنو.

وهذا يعني أن فكرة احتراق طائر الشمس، أو الفينيق أتت من مصر ودخلت في العقائد الفينيقية.

ولكن القديس هيرونيم يذكر لنا شيئًا مخالفًا؛ فيُرجع أصل هذا الطائر إلى الهند حيث يولد هذا الطائر هناك ويعيش لمدة ٥٠ عامًا، وبعد ذلك يجيء إلى فينيقيا ويبقى فيها لمدة ثلاثة أيام، ثم يعود إلى الهند، ويحصل له خلال وجوده في فينيقيا عبر هذه الأيام الثلاثة ما يلي:

اليوم الأول: يجمع الأعشاب الطيبة الموجودة في فينيقيا ليصنع منها عُشًّا يضعه على هيكل الأسرار في معبد الشمس (هليوبوليس) ربما في بعلبك بشكل خاص، ويضمخ طائر الفينيق هذا العش برائحة العنبر التي تخرج منه وينام فيه الليل كله.

اليوم الثاني: مع شروق الشمس تمس أشعة الشمس هذه الأعشاب والطيوب، فتحترق ويحترق معها طائر الفينيق، وتبقى في العش دودة وسط رماده.

اليوم الثالث: عندما تمس أشعة الشمس هذه الدودة تَنبُت لها أجنحة وتستعيد هيئة طائر الفينيق وتطير عائدة إلى البلاد الأصلية.

وتصير الدودة في الأساطير العبرية بيضة؛ حيث يعيش طائر الفينيق ألف سنة، وبعد انتهائها ينبعث في عشه لهبٌ فيحرقه، لكن بيضةً تبقى في العش يعاود منها الحياة، وأن هذه القيامة أعطيت لفينيق من عند الله؛ لأنه كان الطائر الوحيد الذي استنكر أكل حواء من الثمرة المحرمة (انظر: عبد الحكيم، ١٩٨٧م، ٦٠).

ولا نستبعد أن يكون «أبو الهول» ذكر «العنقاء» له علاقة بهذا الطير الشمسي الخالد.

(ب) النخلة والتمر (شجرة الفينيق) (فوانيكس)

كانت النخلة شجرة مقدسة عند عموم شعوب الشرق الأدنى السامية، وكانت تعتبر شجرة الحياة عند السومريين، وكان ثمرها يحظى باحترام وتقديس خاصَّين. ومن السومريين انتقل هذا التقديس إلى الشعوب السامية؛ حيث تفصح لوحة طينية عن ظهور رجل وامرأة (ربما كان آدم وحواء) وبينهما نخلة محملة بالتمر، وتظهر الأفعى خلف المرأة. وقد عد الباحثون هذه اللوحة أصل فكرة الخطيئة التوراتية في الجنة، واعتبروا النخلة شجرة الحياة أو شجرة المعرفة.

وتطابقت النخلة مع الإلهة عشتار، وكانت النخلة تسمى «فينيق»، التي تعني هنا «الدامي»، إذ إن شعوب البحر الأبيض عامة ارتبطت وربطت بين عمليات إخصاب النخيل، أو ما يعرف بـ «الطلوع»، أو التلقيح التي بدونها لا تطرح النخلة أو تثمر. فهناك علاقة بين النخيل وبين الموت ثم القيامة أو توالي الولادة والاستمرار (انظر: عبد الحكيم، ١٩٨٧م، ٥٩).

وهكذا رمزت النخلة أيضًا، مثلما رمز طائر الفينيق، إلى البعث المستمر.

إن ثمار شجرة الفينيق، التي هي النخلة، كانت تسمى أيضًا باسم يدل على الآلهة فقد كان ثمرها يشير إلى الإله «دامور» أو «تامور» أو «تامير»، وهو كما نرى: التمر، وقد عثر على آثار هذا الإله في جزر البحر المتوسط التي أسسها أو استوطنها أو استعمرها الفينيقيون، وقد سُكَّتْ بعض النقود التي تحمل شكل النخلة الوافرة الثمر للدلالة عليه.

وإذا ذهبنا إلى أعماق الآلهة القديمة لوجدنا أن هذا الإله موجود ضمن الآلهة الأمورية بصيغة «ذ.مرت»، وهو ابن الإله «دجون» إله الطقس الأموري، ويعني الإله الشديد القوي، وهو ما عبرت عنه بعض الكتابات الهيلنستية على أنه الإله «دماروس» الذي تطابق مع الإله «أمورو» وأنجب الإله ملكارت إله النار.

وإذا قارنا بين الآلهة الكنعانية والأمورية فإننا سنجد أن هذا الإله «ذمر»، الذي هو «دامور» يطابق من حيث الموقع إله صور «عوس» أو «عوص» أخا إله السماء «شاميم».

وينكشف لنا سر المطابقة عندما نعرف أن لون «عيسو» ابن إبراهيم كان لونه أحمر وذا شعر كثيف، وهو السبب الذي أقصاه لأجله التوراتيون عن النسل الرسمي لهم. وهكذا تكون النخلة وتمرها موحية بالاسم النباتي لفينيق، وهذا يعني أن فينيق والفينيقيين كان لهم طوطم مقدس نباتي هو النخلة والتمر، وحيواني هو العنقاء.

كان التمر هو الثمرة التي ينتج عنها الخمر بعد تخميرها، وبسبب طبيعتها المسكرة تنكشف أسرار النفس وأعماقها ويلهو بها الإنسان عن مشاكله وعن الموت والفناء، وعن طريق خمرة التمر كان المصريون يحنطون الجثث بتنقيعها في الخل، فهي قرينة الخلود ومضادة الموت. وهذا سبب علاقة الخمر بحام وكنعان في المثولوجيا التوراتية.

وهكذا نجد أنفسنا في مترادفات واحدة هي: النار والشمس وأبو الهول والعنقاء والاحتراق والبعث والخلود والنخلة والتمر والخمر. وهي كلها تجتمع في اسم فينيق الذي صار لزامًا علينا الاعتراف بشرقيته والعبور على اسمه الغربي الإغريقي.

ولكننا يجب أن نتساءل: لماذا أصبحت النخلة رمزًا فينيقيًّا في حين أن فينيقيا تخلو من النخيل؟ وقد تدفعنا الإجابة على هذا السؤال للبحث في أصل الفينيقيين الذين هم أجداد الكنعانيين الأوائل؛ وتعود بنا الإجابة هنا أيضًا إلى وادي الرافدَين ورمز النخلة أساسًا لهم؛ لأن النخل في جنوب وادي الرافدين كان لا حصر له، وهو دون بقاع الأرض كلها الأغزر في هذا المكان.

النخلة إذن رمز فينيقي يشير إلى الأصول العراقية القديمة للفينيقيين، أما ربطه بالشمس والنار وأبي الهول فأمور لاحقة فرضتها ظروف الفينيقيين الجديدة، بل فرضتها بالدرجة الأساس مسألة عدم وجود النخيل في فينيقيا وضرورة ربط هذا الرمز بمدلولات أخرى.

(ج) الشعب الأحمر (فوانوس)

كان اسم «فوانوس» الذي يعني في اللغة اليونانية القديمة «أحمر» هو الاسم الذي يشير إلى الشعب الذي ارتبط باللون الأحمر؛ سواء في بشرته، أو في المكان الذي أتى منه، أو في الصبغة التي كان ينتجها ويصدرها. وسنتناول ما يخص هذا الشعب الأحمر في نظر القدماء الذين أشاعوا عنه هذه التسمية.

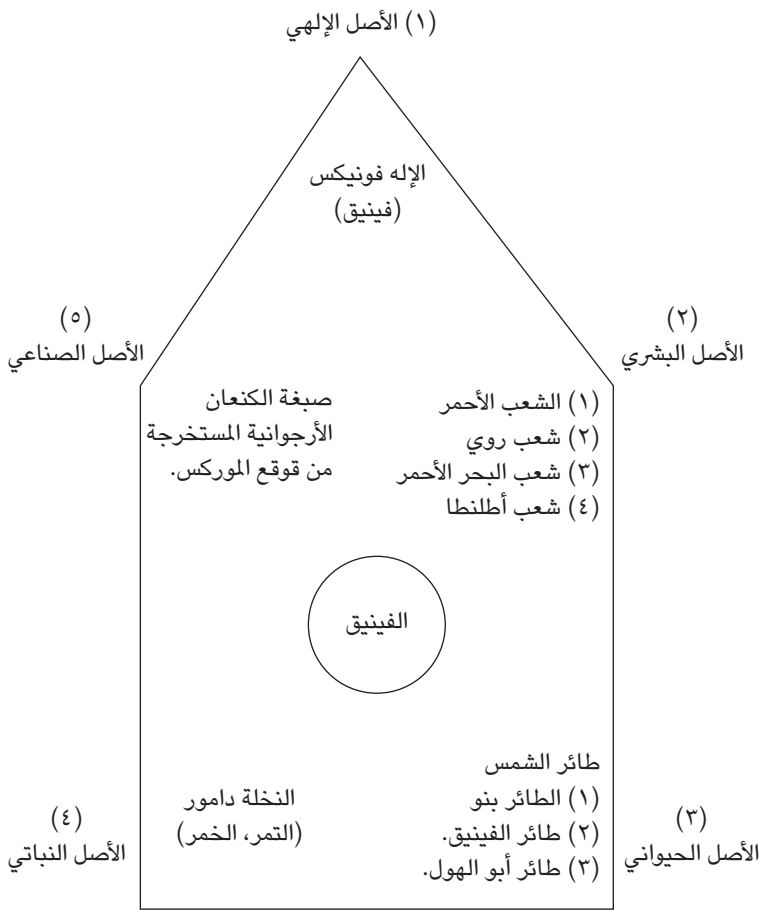

مخطط (٨): الأصول الخمسة لاشتقاق كلمة فينيق.

(أ) البشرة الحمراء (النحاسية)

كان الكهنة المصريون، فيما مضى، يصنفون البشر إلى أربعة أصناف على أساس لون بشرتهم، وهم:

(١) **روى:** الشعب الأحمر، ويضم شعبين مرتبطين حضاريًّا وهما: الشعب الكنعاني في بلاد الشام، والشعب المصري في بلاد وادي النيل.
(٢) **أمون:** الشعب الأصفر، وهو الشعب الآسيوي.
(٣) **هلاسيو:** الشعب الأسود، وهو الشعب الأفريقي الزنجي، وربما كان هذا الاسم أصل كلمة «خلاس» العربية، بمعنى المضرب باللون الأسود.
(٤) **تمحو:** الشعب الأبيض، وهو الشعب الليبي الذي كانت تمثله قبائل التمحو آنذاك.

وربما كان تقسيم الكهنة المصريين هذا هو الذي أوحى بالأصل المشترك بين الكنعانيين والمصريين وربطهما باللون الأحمر، وهذا التقسيم كما نرى يفتقر إلى سعة الاطلاع على شعوب الأرض القديمة آنذاك، وهو في حقيقة الأمر يقسم شعوب مصر وجيرانها أكثر مما يقسم شعوب الأرض.

لكن الإغريق القدماء رأوا في الشعب الكنعاني أو الفينيقي ما يدل على البشرة الحمراء أو النحاسية المختلفة عن لون بشرتهم البيضاء، فأطلقوا عليهم اسم «فوانوس» الذي كان أحد مصادر كلمة فينيقيا.

(ب) البحر الأحمر (الإرتيري)

ربما كان الاعتقاد القائل بأن الكنعانيين قد نزحوا من البحر الأحمر الذي كان يسمى «الإرتيري» والذي كان يتميز باحمرار لون مياهه بسبب تراب قاعه وضفافه الحمراء اللون والحاوية على أكاسيد الحديد الحمراء، ربما كان هذا الاعتقاد سببًا في إطلاق اسم «فوانوس»، الذي يعني «الأحمر»، على هذا الشعب القادم من هناك.

كان المؤرخ هيرودوت أول من رأى بأن الكنعانيين قد خرجوا من شواطئ «بحر إرتيرية» على أثر زلزال مدمر حصل هناك، فنزلوا على ضفاف الممرات المحاطة بالمستنقعات، ثم واصلوا السير إلى شواطئ البحر المتوسط (البحر الداخلي) وأسسوا صيدا.

وقد أيَّد سترابون هذه الفكرة وأضاف لها أن سكان الخليج العربي أخبروه بأن أصل الكنعانيين من شواطئ البحر الإرتيري التي ما زالت تحوي مدنًا بأسماء «صور، صيدا، آراد» وأن هياكلها تشبه هياكل الفينيقيين.

أما المؤرخ يوستينوس فلم ينفِ آراء هيرودوت ولم يرفض آراء سترابون عن بلاد الفينيقيين الأصلية؛ ولكنه قبل أن يجعل مقرهم على شواطئ البحر المتوسط حيث شيدوا مدنًا أسموها «صيدا»، قال بأنهم أقاموا أولًا على ضفاف «البحيرة الآشورية» دون أن يأتينا بأي معلومات عن تلك البحيرة التي ربما كانت بحيرة «برس» جوار بابل، أو هي «البحر الميت، الذي كان يسمى: بحر الأسفلت» الذي أطلق عليه يوستينوس اسم «بحيرة آشورية» (انظر: بنت بطوطة، د.ت، ٢٢).

(ج) القارة الأطلسية (أطلنطا)

وتسمى أيضًا القارة الكوكبية «أسترال Astral»، وهي القارة التي رأى أفلاطون في كتابه «كريتياس» بأنها القارة الغارقة في المحيط الأطلسي، وأن هذه القارة كانت قبل غرقها مسكونة بجنس الأطالسة الأحمر القوي، والذي قام بغزو مصر، قبل عصر «مينا»، وشواطئ إرتيريا وما وراء بلاد الكلدان، وأن فروع هذا الجنس العملاق، أو بعبارة أدق ما تبقى منه، قد يكون أصل هؤلاء الفينيقيين (بنت بطوطة، د.ت، ٤١-٤٢).

وقد ناقش المؤرخون المحدثون قضية هذه القارة المفقودة في بحوث وكتب كثيرة، وذهب بعضهم إلى أن هذه القارة كانت مسكونة بالجنس الأحمر ثم تعرضت إلى كارثة عظيمة أجبرت سكانها على الهجرة شرقًا باتجاه البحر المتوسط؛ حيث استقروا في مصر وبلاد الشام وهم «الكنعانيون والمصريون»، وغربًا باتجاه قارة أمريكا وهم الهنود الحُمر، في أميركا الشمالية وقبيلة الأزتيك في المكسيك، وانتشر بعضهم في جزر الباسفيك على شكل سلالات بولينزية كثيرة، وهؤلاء أصحاب حضارة معروفة. وقد يفسر هذا الرأي الصلات المشتركة بين حضارات أميركا والحضارة المصرية القديمة.

وهكذا يكون الشعب الأحمر وفقًا لهذه النظرية هو شعب القارة الأطلسية الغارقة أو المفقودة.

(د) الصبغة الحمراء (الأرجوان)

اشتهر الكنعانيون بإنتاج نوع من الأصباغ البحرية المنشأ ذات اللون الأحمر، وكانوا يصبغون بها الملابس التي تسمى الملابس الأرجوانية، واشتهروا بتجارة هذا النوع من الأصباغ والأقمشة، ومن المرجح أن تكون شهرتهم هذه المرتبطة بالأصباغ والأقمشة الأرجوانية سببًا إضافيًّا لنعتهم بكلمة «فونوس»، التي يرى البعض أنها ترجمة لكلمة «كنعان» التي تدل على هذه الصبغة الأرجوانية.

وكان الكنعانيون يحصلون على هذا اللون الأرجواني من حيوان بحري قشري يدعى «موركس Murex» الشائع الانتشار على شواطئهم.

وكانوا يصبغون أشرعة سفنهم بهذا اللون أيضًا، ويقال إن سفينة كليوبترا التي كانت تقود الأسطول البطلمي في معركة أكتيوم عام ٣١ق.م. كانت تحمل شراعًا أرجوانيًّا.

وتروي الأسطورة أن الإله «ملكارت»، ملك وإله صور، كان يتنزه مع الحورية تيروس «صور» على طول شاطئ البحر المتوسط، وكان معهما كلبهما الذي عض حيوانًا رخويًّا (محارًا أو أفعى بحر) فتلطخ فمه باللون الأحمر الأرجواني، فلاحظ ملكارت ذلك وصبغ عباءته بهذا اللون وقدمها لرفيقته.

ويرى العلماء أن هناك أنواعًا من الرخويات في البحر المتوسط تحمل غددًا تحت خياشيمها تمثل المادة الكيميائية الخام للصباغ الأرجواني، وقد تخرج هذه الحيوانات باتجاه المياه الضحلة والسواحل الصخرية لتتزاوج في أواخر الربيع، وهذه الحيوانات هي (انظر: مكغفرن، ١٩٩٢م، ٤).

Purpura hameostoma, Murex brandaris, Murex trunculus.

وقد تم وصف عمليات الصباغة لأول مرة في كتاب «التاريخ الطبيعي» (الكتاب التاسع، ج من ٦٠ إلى ٦٥، الفصول ٣–٤١). لبليني الأكبر من العهد الإمبراطوري الروماني؛ حيث وصف كيفية صيد تلك الرخويات باستعمال سلالة خادعة بعد بزوغ نجم الكلب، ثم تجتث وتقطع غدد هذه الرخويات وتوضع في قدر معدني ويضاف إليها الماء والملح وتبقى على النار مدة عشرة أيام، يتم خلالها، من حين لآخر، قشط المواد العضوية الطافية في ذلك المزيج، وكيفية فحصه للحصول على خواصه الصبغية (انظر: مكغفرن، ١٩٩٢م، ٥–٦).

وقد اكتشف الآثاريون في مدينة «ساربطة»، التي تقع في منتصف الطريق بين صور وصيدا، مجموعة من القدور الفخارية التي تحمل راسبًا أحمرَ منذ القرن الثالث عشر

قبل الميلاد، ووجد قربها ركام من الأصداف المسحوق من نوع موركس ترنكلوس. وقد أثبت التحليل الكيميائي لهذه الرواسب أنها تتكون من أرجوان حيوانات رخوية (انظر: مكغفرن، ١٩٩٢م، ٥-٦).

(هـ) الجد الأسطوري

فونكس أو «فينيق»، وهو إله مدينة صور القديم جدًّا، والذي يرجح أن يكون ابنًا من أبناء صيدون من زوجته صور، هو ومجموعة من الآلهة ذات الملامح البشرية، مثل: قدم، أوروبا، قيليق، فينيق، سور، تاس، سيبول، فينين، دريال ... إلخ.

ويعتقد أن فينيق وقدم أسَّسا مدينة طيبة في مصر، ثم قدما إلى سواحل لبنان وسكنا مدينة صور.

(٢-٣) صيدا (صيدون)

إذا كان كنعان ابنَ حام مثولوجيًّا، وإذا كان فينيق ابنَ كنعان فإن صيدا هي الابنة البكر لكنعان، وقد سميت مدينة صيدا على اسمها فكانت العاصمة الأولى للفينيقيين.

وترد صيدا في العهد القديم على أنها مدينة صيدون ابن كنعان البكر (التكوين،١٠: ١٥)، أما «صور» فهي مثولوجيًّا ابنة «صيدا» أو «صيدون».

وتعتبر صيدا وصور أقدم المدن الكنعانية «ومع ما كان من تناوب السيادة بين المدينتين العظيمتين (صيدا وصور) فإن بعض ملوك صور كانوا يحملون لقب ملك الصيداويين، ويغلب على الظن أنه كان معقودًا لأولئك الملوك لواء السيادة الفخرية على مدينة صيدا، ومن جهة أخرى فإن نقود صيدا تشير إلى صور باعتبارها ابنة صيدا، وقد أطلق هوميروس نفسه على الفينيقيين اسم «الصيداويين».» (بنت بطوطة، د.ت، ٥٠-٥١).

وأغلب الظن أن «صيد» هو إله كنعاني قديم ظهر في أسماء الأعلام الكنعانية على شكل «صيدياتون» بمعنى: الإله صيد يعطي، والاسم مشتق من جذر في اللغات السامية يظهر في الأوغاريتية على شكل «ص. و. د»، وفي الأكدية «صادو»، وفي العربية «صيد»، ومعناه كما هو في جذر الكلمة العربية «صَيْد». وقد عثر على معبد لهذا الإله في قرطاجة (انظر: أذزارد، ١٩٨٧م، ٢٢٠).

وهذا يعني أن الإله «صيد» هو إله الصيد عند الكنعانيين، ومعروف أن مدينة صيدا دُمرت ثلاث مرات تدميرًا كاملًا، المرة الأولى على يد الآشوريين عام ٦٧٨ق.م. عندما أحرقها أسرحدون، ثم على يد الفُرس في عصر أحشويرش الثالث (٣٤٦ق.م.)، ثم على يد الرومان عام ١٤ق.م. على يد أوكتافيوس أغسطس.

ونرى أن الإله الإغريقي «بوزيدون» مشتق من الإله «صيدون»؛ حيث «بوصيدون» تعني خادم صيدون، وهو إله نظير للإله صيدون، ومعروف أن بوزيدون ارتبط، مثل صيد أو صيدون، برعاية الصيد البحري والبري، وكان أهم عُبَّاده من البحارة ومدربي الخيول ومروضيها، وأهم الألعاب التي أقيمت له في اليونان هي «ألعاب البرزخ» كل أربع سنوات. وأن واحدًا من رموزه الدَّلافين وأداة صيد السمك ذات الأنياب الثلاثة، وقد عثر في جرش (في الأردن) على عصا بوزيدون هذه منقوشة على لوح يحيط بها اثنان من الدلافين (شكل ٣-٢).

شكل ٣-٢: الإله بوزيدون مع شوكته.

شوكة بوزيدون يحيط بها اثنان من الدلافين.

ونعود إلى ما سبق أن ذكرناه «وهو أن أصل بوزيدون من بوصيدون، وأصل هذا من صيد، وأصل هذا من سيتون الذي هو أخو إيل، مثلما كان بوزيدون أخا زوس. وهذا يعني أن بوزيدون أصله من صيدا مثلما كانت أثينا أصلها من عناة.»

(٢-٤) صور

ربما وضعت الأسطورة التي وردت على لسان فيلو الجبيلي ثم سانخونتين مدينة صور في بداية الخليقة؛ حيث تتبَّعا فيها مشهد الخليقة الأولى من «الهواء والرياح» حتى ظهور أنصاف الآلهة العماليق السبعة (انظر: المثولوجيا الكنعانية).

وقد يكون اسم صور مشتقًّا من اسم الإله «أوسوس»، الذي يعتبر إله الملاحة الأول الذي بنى مدينة صور ووضع فيها نظام العبادة والحضارة، وأول من قاد سفينة في البحر، وقد اختلط اسم هذا الإله بالإله ملكارت الذي يعني اسمه «ملك المدينة»، والذي قابله الإغريق بالإله «هرقل» وهو إله شمسي ناري.

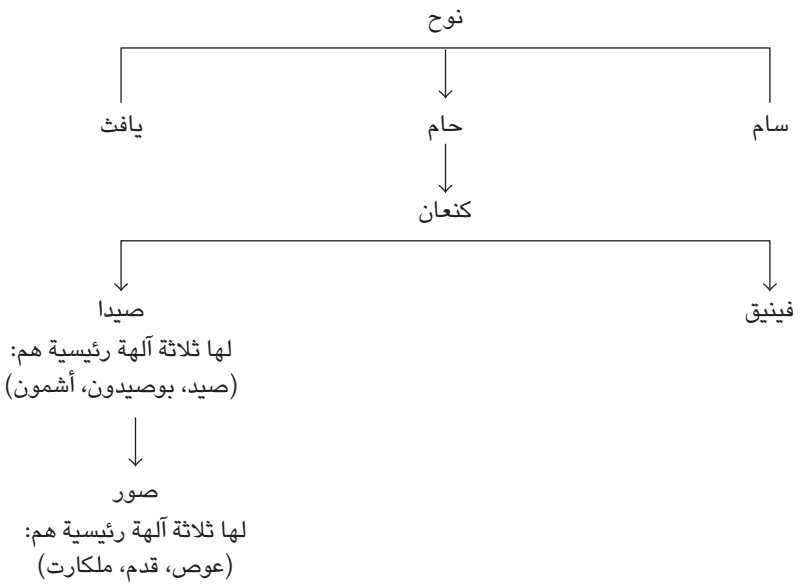

مخطط (٩): أنساب المثولوجيا التاريخية لكنعان.

وربما كان لاسم صور علاقة بكلمة «سار» التي تعني في السومرية الملك، السنة، المحيط الكوني. ثم صارت داله على إله كنعاني هو إله القمر وهو «شار» أو «سحر» أو «شهار».

ويرد اسم إله آخر هو الإله «عوس» كإله حامٍ لمدينة «صور»، ويرجح أنه نفسه الإله «أوسوس»، حيث تحكي الأساطير عنه وعن شقيقه الإله «شميم» أي إله السماء بأنهما أقاما هياكل لإلهي الريح والنار بعد أن شب حريق هائل في صور.

وكان لـ «عوس» ولدان هما «دامور» أي: النخيل والتمر، و«هرقل» الذي هو ملكارت، والذي أنجب ولدًا اسمه «سرد» أسس مدينة على جزيرة سردينيا. وكان ملكارت سيد الأرجوان والنار.

الرمز الثالث الذي ارتبط بـ «صور» هو قدموس وأخته أوروبا، اللذان نسجت أسطورتهما المحلية الإغريقية على ضوء أسطورة كنعانية قديمة، وربطت فيها بين كنعان والإغريق من خلال زواج أوروبا من زيوس وولادة الملك مينوس ملك كريت.

(٣) قصص عصر البطولة الكنعاني (الملاحم الأوغاريتية)

لكل أمة من الأمم القديمة عصر بطولة يظهر فيه مجموعة من الأفراد المتميزين الذين يحملون، دون غيرهم، مهمة صياغة الشعور الجماعي وبلوَرة شخصية الأمة أو الشعب الذي ينتمون له.

وقد وجدنا أن بعض الملاحم التي عثر عليها في أوغاريت يمكن أن تحقق هذا الغرض؛ فهي تروي حكايات ملوك وحكماء وأبطال ينحدرون من الآلهة ويقومون بأعمال جليلة.

وربما كانت أعمال بعضهم (مثل الملك الكبير) عبرةً من عبر التاريخ؛ لذلك جاءت قصص هؤلاء أقرب إلى الملاحم الصغيرة التي شاعت في حدود منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، والتي لا نجزم بوجودها في التاريخ؛ بل هي نسج بين الأسطورة والتاريخ، أو ما عبرنا عنه بالمثولوجيا التاريخية التي تميل نحو الملحمة أكثر من ميلها نحو الخرافة. وسنستعرض قصص أربعة من هؤلاء:

(٣-١) كرت

ما زالت ملحمة كرت ناقصة؛ إذ لم يُعثر على بدايتها ونهايتها، ولكنها تخبرنا في ثلاثة ألواح من أوغاريت عن قصة كرت (ملك خوبور) المفجوع بموت عائلته وأولاده ومرضه، فيظهر له إيل في المنام ليواسيه ويطلب منه الاغتسال وتقديم الأضاحي والقيام بحملة عسكرية على مملكة «آدوم»، على ألَّا يقبل من ملكها أي تنازلات أو إغراءات، ويصر على طلب يد ابنته «حورية» التي ستعوضه عائلته الأولى التي تبددت وتنجب له الأبناء. ويفعل كرت ذلك ويتزوج حورية وينجب «ثمانية أبناء» منهم ولدان هما «يصيب والحاء»، وبنات أصغرهن «ثتمانه» التي يعني اسمها «الثامنة» التي نالت حق البكورية، أي: «مساواتها مع يصيب». ويصاب كرت بعد سبع سنوات بالمرض ويكاد المرض ينهي أمره، فيعجب لذلك ولده يصيب؛ لأن كرت نصفه بشر ونصف إله ولا يناله الموت، وهو من الخالدين، يتدخل الإله إيل ويستدعي أولًا الإله «إلش» وهو الإله الصانع أو النجار الذي يستنزل المطر عن طريق تعاويذه ليقوم بدوره في شفاء كرت وإعادة الخصب والوفرة للملكة، وبعد أن يسأل الإله إيل الآلهة سبع مرات يتدخل هو فيشفي كرت؛ لكن ابنه «يصيب» يطلب من كرت أن يتنازل له عن العرش، فيغضب منه بشدة ويدعو الآلهة لمعاقبته ولا نعرف بقية القصة.

ولهذه القصة ما يوازيها في آداب وأحداث المنطقة، فهي تشبه في بدايتها قصة «أيوب» وفي نهايتها قصص محاولات الاستيلاء على العرش من قبل الأبناء عند الآلهة والملوك.

إذا حاولنا العثور على شخصية الملك كرت التاريخية فإننا سنخفق؛ لكن مكتشفات رأس الشمرا تقول إن كرت هو ابن إيل، وربما كان اسمه «كريت» وكان ملكًا على «سدوم»، وقد أمره أبوه إيل بالقيام بغزوة تقودها الإلهة «تيرا» أو «طيرة» لتأديب شعب زبولون، وبعد أن عاد كرت من حروبه اشترى زوجة أنجب منها طفلًا جميلًا (تعشتر كريما كانت ...) هو دانيال (انظر: عبد الحكيم، ١٩٧٨م، ٥٠).

(٣-٢) دانيال

عرفنا أن كرت أنجب أبناءً منهم دانيال، الذي تتحدث عنه حكايات فتقول إنه ما إن ولد حتى دوَّى صوته صارخًا بعبارة أنا أكره الأعداء، وقد كان طفلًا عجيبًا في قصة مولده، يروي عنه الدميري في كتابه «حياة الحيوان» قصة غريبة فحواها أن دانيال ولد في زمن ملك ظالم تنبأ له العرافون بأن طفلًا ولد في تلك الليلة سيفسد عليه ملكه، فأمر بقتل كل من ولد تلك الليلة لكن أم دانيال وضعته في حظيرة أسد ولبوة يلحسانه الليل كله حتى نجاه الله، ويبدو أن دانيال لما كبر أصبح حكيمًا وتبحر في فن العرافة، حتى أنه أورث الفن لابنته التي سميت «ملكة كل الأسرار» (انظر: عبد الحكيم، ١٩٧٨م، ٥٠).

(٣-٣) إقهات

لا نعرف فيما إذا كان دانيال الذي تحدثنا عنه هو نفسه دانيال والد إقهات الذي سنتحدث عنه في هذه الملحمة الصغيرة، رغم أننا نرجح أن يكون هو.

وتروي الملحمة أن الرجل الصالح الحكيم دانيال كان يخاف آلهته ويقدم لها الأضاحي، ويقيم الشعائر الخاصة بأسلافه الموتى، ويعمل على حماية والده ضد الأعداء ويحافظ عليه ويغسل ثيابه، ويشارك في ولائم بعل في معبد الإله بعل، وكان يقيم العدل بين الناس لأنه كان قاضيًا معروفًا؛ ولكنه كان يبتهل دائمًا إلى الآلهة لأن ترزقه بولد يخلفه، وبعد سبعة أيام من الابتهالات المتواصلة للإله بعل يرق له قلب هذا الإله ويتوسطه عند الإله إيل ليمنحه الخصب، ويتم له ذلك، فتلد زوجته ولدًا يسميه «إقهات». يقيم دانيال احتفالًا بهذه المناسبة لمدة سبعة أيام تحضره «كوثرات» إلهات الولادة والنسل إكرامًا لها. وذات يوم يرى دانيال الإله «كوثر» إله الفنون والحرف، يحمل قوسًا مدهشًا

ويقترب منه فيدعوه إلى بيته ويأمر زوجته «دينيتيا» لتعد وليمة فاخرة له يهدي في نهايتها الإله كوثر القوس إلى دانيال، فيقوم دانيال بإهداء هذا القوس إلى ولده اليافع «إقهات» ليتعلم به الصيد والقنص في البراري.

وعندما تشاهد الإلهة «عناة» هذا القوس بيد إقهات تحاول إغراءه بالفضة والذهب ليعطيه لها؛ لكنه يرفض بحزم ويعدد لها فضائل هذا القوس المصنوع من خشب أرز لبنان، وأوتار الثور البري، وقرون الماعز الجبلي، وأوتار ركب الثيران، ومن القصب، وينصحها بأن تجلب هذه المواد إلى الإله «كوثر» ليصنع لها مثل هذا القوس؛ لكنها تصر على امتلاك هذا القوس بالذات، وتعرض على إقهات بأن تمنحه الخلود مقابل ذلك فيرد عليها إقهات بحزم أيضًا ويقول لها بأنه لا يفضل الخلود ويود أن يعيش مثل الناس، ويتهمها بالخداع لأنها لا تستطيع ذلك أصلًا، ثم إنها لا تعرف استعمال القوس فلماذا تريد ذلك؟ فتسخر عناة منه وتذهب إلى والدها «إيل» وتهدده بأن تخضب شعره الأبيض بالدم إن لم ينتقم لها من إقهات، فيرضخ إيل لذلك ويُسَخِّر لها الكائن «يطفن» ليقتل إقهات. وتمسخ عناة يطفن وتحوله إلى عقاب وتخبئه في حزامها وتطير به مع سرب من الصقور فوق رأس إقهات، وينطلق يطفن كالبرق ليخطف روح إقهات، فتبكي عناة على ما فعلت؛ إذ لم تكن تقصد قتله؛ بل خطف قوسه الذي ينكسر هو الآخر ويختفي.

وهكذا تُجدب الأرض وتجف النباتات، ويحل القحط بسبب موت إقهات. وعندما يعلم دانيال ويرى الصقور وهي تحوم في السماء ينتابه البكاء والحزن، ويمزق ثيابه متضرعًا إلى السماء لتنجده بالمطر المحبوس في السماء. وهنا تشاهد ابنته «يوغات» والدها والعقبان تحوم حوله وهو ممزق الثياب فتجهش بالبكاء، ثم يمتطي حماره ويتجول في الحقول الميتة عطشًا ويمسك سنبلة بيده مداعبًا إياها ومتمنيًا على «إقهات» أن يجمع سنابل الحقل ويخزنها في المستودعات فيتقدم إليه الخدم يبكون نادبين، فيقسم دانيال أن ينتقم من القتلة شر انتقام.

ويقدم دانيال بالدعاء إلى بعل ليكسر أجنحة الصقور التي تحوم حوله، فيفعل، وتسقط الصقور عند قدميه ويبحث في بطونها عن رفات ابنه وعظامه ليدفنها في قبر يليق به، ويفشل أولًا، ثم يعثر على ما يريد في أحشاء الصقر «صمل» ويدفن رفات ولده، ويهدد بقية الصقور بأن بعلًا سيكسِر أجنحتها إن هي حامت فوق قبر ولده ثلاث مدن تقع قرب موقع الحادث، ثم يعود إلى قصره ويأمر بالحداد على ولده سبع سنوات.

وتقوم «بوغات» أخت «إقهات» بالدعاء إلى الآلهة لتأخذ بثأر أخيها، فتتبرج بالمساحيق وتعطر نفسها، وتلبس عدتها المحاربة وفوقها الملابس النسائية، وتذهب إلى مجموعة من

البدو ليدلوها على كائن اسمه «يطفن» قد يقوم بمساعدتها في ذلك، فتلتقي به دون أن تعلم أنه قاتل أخيها ودون أن يعلم هو أنها أخت القتيل، ويستضيفها في بيته ويشرب معها الخمر ويخبرها بأنه قاتل إقهات، فتعطيه المزيد من الخمر حتى تتمكن بوغات من قطع راس يطفن بالسيف الذي تخبئه تحت ثيابها. وهناك ما يشير في نهاية الملحمة إلى بعث إقهات (الذي ربما كان بعثًا رمزيًّا)، وعودة الاخضرار للمراعي والخصب للحقول والحياة.

ونرى أن هذه الملحمة تتشابه في بعض أوجهها مع:

(١) أسطورة «أوريون» الإغريقية، التي ربما أخذت من الملحمة الكنعانية، حيث تغضب ديانا على أوريون وتقتله ثم تحوله إلى نجم «أوريون» في السماء يختفي مع نهاية نيسان ليشرق في تموز، وخلال ذلك تنحبس الأمطار وتجنى الأرض. وهو ما أشار إليه ت. هـ. غستمر (انظر: أذزارد، ١٩٨٧م، ١٧٣).

ونرى أن الحادثتين تعودان إلى مرجع، حيث أسطورة إنانا مع الفلاح شوكليتودا الذي تحوله إلى نجم بعيد.

(٢) حكاية يوديث وهولوفيرن في العهد القديم في نهاية الملحمة.

(٣) ولادة إقهات المشابهة لولادة إسحاق وشمشون وصموئيل ويوحنا المعمدان في العهد القديم.

(٤) صبر دانيال المشابه لصبر كرت وصبر أيوب وبطل «حوارية العدالة الإلهية البابلية» ساحل كينا موبيب، وبطل حوارية «لأمجدن رب الحكمة» البابلية المسمى شوبش مشري شكان.

والحقيقة أن هذه التشابهات تأتي عن طريق البنى الأسطورية والملحمية المتداخلة التي سادت في منطقة واحدة هي الشرق الأدنى القديم.

لكن ما نود التأكيد عليه هو أننا وجدنا تسلسلًا مدهشًا لمجموعة من الأبطال شبه الأسطوريين القدماء في كنعان، فقد ولد الإله إيل ابنًا نصف إلهي هو «كرت» امتاز بالصبر والورع، والذي ولد ابنًا نصف إلهي هو «دانيال» امتاز بالصبر والحكمة، وهذا ولد ابنًا نصف إلهي هو «إقهات» الذي امتاز بالحيوية والشباب. وبذلك يكون تسلسلهم كما يلي:

إيل ← كرت ← دانيال ← إقهات

وربما أشار ذلك في بعض من الوجوه إلى أن هؤلاء المنحدرين من أصل إلهي يشكلون ما اصطلح عليه بـ «عصر البطولة الكنعاني»؛ حيث تنتج الأمة في عصورها الذهبية القديمة

سلالة شبه إلهية من الأبطال والحكماء والملوك يشكلون مادة عصرها البطولي، وهو ما حصل مع عصر البطولة السومري المكون من «مسكيكاشر ثم أنمركار ثم لوكال ثم جلجامش»، وعصر البطولة الإغريقي وغيرها.

ثم إن جيل الآلهة الأقدم من إيل كان قد أنجب أبطالًا عظامًا، مثل: قدم وفينيق وأوروبا ... إلخ، لكن إيل أنجب هذا الجيل من العصر البطولي الكنعاني.

(٢) الملك الكبير

وهي ملحمة كبيرة عثر على نصوصها الطينية في أوغاريت «رأس شمرا»، وقام بترجمتها ودراستها العالم ه. ي. ديل ميديكو، والتي نشرها كجزء من كتابه الشهير «التوراة الكنعانية»، وهو اسم أدبي مستعار يحتوي على التراث الكنعاني والفلسفي والديني والاجتماعي الذي كتبه الأوغاريتيون قبل ظهور الشعب العبري والديانة اليهودية، والتي تشكل الظهير الروحي للتوراة الحقيقية أو ما نسميه بـ «العهد القديم».

أما الجزء الخاص بملحمة «الملك الكبير» فهو نص كتبه كاهن أوغاريت الأكبر رئيس مقدمي القرابين والمطهرين المدعو «إيلي ميلكو» وقد كتبها بناء على أمر الملك الأوغاريتي «نقمد» خلَف الملك الكبير، وقد أطلق عليها إيلي ميلكو اسم «اللآلئ» ليشير إلى «المرأة ذات اللآلئ»، وهي سُرِّية أو مَحظِية الملك الكبير التي لعبت دورًا كبيرًا في حرف ديانته من عبادة إيل إلى عبادة بعل.

ويرجح ميديكو أن المقصود بـ «الملك الكبير» ربما كان ملك أوغاريت «يربعل-أبيمالك» ويركز على «أبيمالك» ضمن استنتاجاته الخاصة بذلك؛ لأنه يسبق «نقمد» الذي أمر بكتابة قصة سلفه ليكون عبرة لمن اعتبر، خصوصًا أن هذا الملك حكم أجزاء كبيرة من بلاد كنعان، منها فلسطين ولبنان، وصادف عهده اجتياح القبائل العبرية بقيادة يشوع ثم يهوذا الذي أدى إلى احتلال أورشليم في القرن الرابع عشر قبل الميلاد (انظر: ميديكو، ١٩٨٠م، ١٢٩–١٣٥).

وخلاصة الملحمة أن الملك الكبير كان قد تعرض إلى كارثة حربية وغضب فيها الإله بعل على الملك والبلاد، وسلط عليه أتباعه الكروبييم كي يصرعوه وبعث له بسُريه (محظية) أجنبية تحرضه على تغيير معتقداته الدينية من الإيمان بالإله «إيل» الذي يدين بعبادته الشعب، ويعتبر نفسه شعب إيل، إلى الإيمان بالإله «بعل»، وهكذا شن الملك الحرب على إيل وأشيرة، وترافق ذلك مع هجوم بعض القبائل على فلسطين، مما اضطره للانكفاء

على المدن الشمالية التي كانت تعبد «بعلًا»، وأراد الملك أن يوحد العبادة نحو طقوس بعل. وتحاول عناة أن تتدخل عند الإله إيل ليرفه عن الملك، لكن الملك كان قد فتح «بيت اللعنات» وأعلن إلحاده بالإله إيل.

ويبدو أن الملك يخسر أمام قوة أجنبية أخرى ويخذله حلفاؤه، وهكذا تسقط البلاد في الفوضى والخراب؛ فلا يجد الملك سوى عناة يركع عند قدميها، خصوصًا أن إيل مد يده المنتقمة حتى أحشاء القصر الملكي، فتبددت ثروة العاهل في الذل، وتقوم عناة بالتأكد من خراب المدينة بمحراثها (قرنها) وأجنحتها؛ حيث تتجول في سماء المدينة، وتتدهور أمور الملك الكبير أكثر من ذلك فيؤدي طقوس التوسل لبعل وهو عارٍ ليعينه على وضعه.

وفي هذه الأثناء يهجم أعوان «عبدي عشيرتا»، وهو ملك عمور، والمسمَّون «الأشرتيم»، وهنا تظهر «عشيرة» لتنصح الشعب بأن يصهر ما يملكه الملك من ذهب وفضة، تماثيل الآلهة الأجنبية، ليسدوا بها حاجة الحرب. وعلى الملك أن يذوق طعم الجوع ليشعر بآلام الناس.

وبدلًا من أن يستجيب الملك لهذه الطوارئ نراه يرفض ذلك وينغمس في شرب الخمر ويرمي بتماثيل أجداده في النار، ويتراءى له موكب إله الجحيم بعل وزوجته أشتار (عشتروت) ويرتمي الملك خاضعًا لمساعد بعل حارس الأموات، وتفشل محاولات عناة في إنقاذ الملك من حالة التردي. ويفسر النص تحالف رؤساء اليوديم مع أنصار عبدي عشيرتا ضد الملك التصدي الروحي للملك. وهكذا تغرق البلاد في الشقاق والمجاعة ويتظاهر الشعب أمام قصر الملك ويقترح بناء معبد لبعل؛ إذ ربما لكونه لا بيت له، فإنه فعل كل هذا بالبلاد، ويستحسن إيل هذا المقترح؛ لكن الملك رفض ذلك وزاد كنوزه واعتمد على شعوب مريام الشمالية؛ بل إنه تمادى في غيِّه ومن أجل أن ينفرد بالثروة، قتل إخوته وكل ذكر في عائلته.

وفي جلسة أشبه ما تكون ببيع النفس إلى الشيطان، يدعو الملك، ملك الأموات، وبعلًا ويتوسل لهما أن يطهرا قصره؛ لكنهما لا يصغيان إليه، فيقوم الملك بإحراق القصر وتحترق كنوزه كلها ويستمر الحريق سبعة أيام، ويعمد الملك في نوبة غضب إلى ذبح ورجم مواشيه وقتلها، وتسوء الأمور أكثر ويخذله الحلفاء والشعب، ولا يبقى أمام الملك سوى انتظار الموت … إذ هو غير قادر الآن على العودة لعبادة إيل؛ وبذلك يغرق في شرب الخمر ويغضب جميع الآلهة عليه بما فيهم بعل وعناة، وعندما يضع الملك التاج على رأس السرية الأجنبية ينتهي كل شيء. وتبدأ جموع الشعب بالزحف إلى قصره، بينما

الملك الكبير يطلب من بعل أن يبعث من الموت إخوتَه الصغار. فيتضايق الشعب أثر ذلك معتقدًا أن أمرًا ما سيقع، وهكذا تهجم جموع الشعب على الملك وتضربه وتعضه، فيُطرح أرضًا ويدوسه الناس وينزف حتى الموت وهو يسمع تهكم الناس من حوله. ويرحل إلى العالم الآخر مرافقًا الأبالسة وحارسي الأموات؛ حيث تنحدر روحه نحو المهاوي.

وهكذا توضح لنا هذه الملحمة قصة ملك متجبر يحتقر الشعب ويشغله بحروب خاسرة، ويزيد من جوعه وعذابه، ويترك عقائده ويصغي لملذاته، حتى يأتيه عقاب الشعب الذي يقتله علنًا. ويبدو أن الملك «نقمد» يأمر الكاهن «إيلي ميلكو» بكتابة هذا النص ليكون عبرة للملوك القادمين، رغم أن نقمد يخصص ضريحًا جديدًا للملك الكبير الذي ذهب إلى الظلمات احترامًا منه لتقاليد دفن الملوك السابقين.

(٤) قصص عصر البطولة الفينيقي (أبطال صيدا)

لا أمتلك النص الكنعاني الذي يروي لنا أسطورتي أوروبا وقدموس، كل ما في حوزتنا النص اللاتيني الذي رواه لنا الشاعر الروماني أوفيد في كتابه «مسخ الكائنات».

قبل أن نعيد رواية الأسطورتين معًا لا بد لنا من البحث عن الجذور الكنعانية/الفينيقية لها. والحقيقة أننا لا نملك إلا بعض مرويات الأخبار والنسب التي تعيد خلط الأوراق بين نسل كنعان ونسل إيل ولا تفرق بينهما.

ويمكننا غربلة تلك الأخبار والأنساب المختلطة والخروج بنتيجة مفادها أن الإله «سيتون» ابن «شميم (إله السماء)» يوصف في قصص الأخبار بأنه ابن كنعان، وأحيانًا أخو إيل. ونرى أنه ذاته الذي أصبح اسمه يطلق على مدينة «صيدون»؛ حيث تحرف اسمه قليلًا من «سيتون» إلى «صيدون» وربما إلى «زيدون»، ويبدو أن «اسم صيدون ابن كنعان عُمم فشمل كل القبائل الكنعانية. كما أن التوراة لقبت الكنعانيين بالصيدونيين في أماكن عدة، وذلك لأسباب عدة منها: أن صيدون كان بِكرَ كنعان الذي تضخم فأصبح أممًا بدوره، ومنها أنهم كانوا أممًا ساحلية، تعمل بالصيد والتجارة؛ فلفظ صيدون يدل في أصله على صيد السمك والطيور» (عبد الحكيم، ١٩٧٨م، ٥٢).

وصيد أيضًا هو أحد معلمي البشر من العماليق الذين كانوا مهتمين بالصيد البحري والبري.

وتمضي الأخبار بذكر أن صيدون بعد أن تملَّك مدينة صيدا أصبح ملكًا على كل فينيقيا، وتزوج «صور» وأنجب منها بدوره أبناء كثيرين كرمل البحر، منهم: «قدم،

فينيق، قيليق، سور، تاس، سيبول، فيني، دريال، أوروبا». وتملك هؤلاء الأبناء الآلهة بدورهم على كل الممالك الكنعانية ومصر وآسيا الصغرى بحسب ما تشير به أساطيرهم (راجع المرجع السابق).

هكذا يكون قدم «قدموس» وأوروبا من نسل صيدون وصور. وهما يشيران إلى العصر الفينيقي، أو عصر البطولة الفينيقي.

(٤-١) أوروبا

إن الرواية الرومانية تنسب أوروبا وقدم إلى «أغينور» أو «أجينور» ملك صيدا الفينيقي الثري. وتبدأ أسطورة أوروبا بالحلم الذي تراه في منامها ابنة غينور «أوروبا» الفتاة الجميلة؛ حيث ترى في حلمها أن مرضعتها ومربيتها «آسيا»، التي تمثل قارة آسيا، كانت تختصم مع امرأة أخرى تمثل القارة الشمالية التي تنفصل عن آسيا بواسطة البحر (وهي قارة أوروبا فيما بعد). وكانتا المرأتان/القارتان تتخاصمان على الفوز بالإلهة «أوروبا»، وكانت النتيجة تنازل آسيا عن الفتاة لصالح المرأة الأخرى، وهو ما أفزع الإلهة أوروبا وأيقظها من نومها.

صلَّت أوروبا لتحميها الآلهة من الشرور وارتدت ثوبًا أرجوانيًّا (لون كنعان) وخرجت مع صديقاتها من بنات صيدا إلى مرج أخضر على شاطئ البحر تقطف الورود الحمراء، فوقعت عليها أنظار الإله «زيوس»، وهو ما يقابل الإله بعل، الذي كان يطارد السحب، فعزم على اختطافها ومسخ نفسه إلى عجل جميل وهبط إلى المرج فهبت بنات صيدا نحوه يداعبنه، وتقدمت نحوه أوروبا وصارت تداعبه وهو يلحس يدها ويتملقها، فأحاطت رأسه بيديها وقبلته فركع عند قدميها وكأنه يطلب منها أن تعتلي متنه، واعتلته أوروبا وهمت الفتيات بالركوب إلى جانبها لكن العجل نهض فجأة وانطلق نحو البحر (شكل ٣-٣).

ومضى يمخر عباب أمواجه الذهبية كالدلفين، وخرجت النيرندات (حوريات البحر) يسبحن معه، وكذلك خرج الإله بوزيدون (إله البحر) ليفسح السبيل أمام أخيه زيوس حتى لاحت جزيرة كريت، فحلَّا فيها وتزوجا وأنجبت أوروبا من زيوس ثلاثة أبناء هم:

(١) مينوس (الذي أصبح أول ملك لكريت).
(٢) رادامانت.
(٣) ساربيدون.

شكل ٣-٣: أوروبا تمتطي ظهر الثور زيوس ويعبران البحر، إيروس يطير فوقها وإلى اليمين ظهر أبوها الملك أغينور (رسمٌ على مزهرية) (عن: حاتم، ١٩٨٨م، ٢٠٥).

وكان هؤلاء الثلاثة أبطالًا وحكماء في العالم القديم (انظر: حاتم، ١٩٨٨م، ٢٠٤–٢٠٦).

وتوضح هذه الأسطورة مجموعة أمور، لعل أهمها هو أن إلهة صيدا الفينيقية هي التي منحت اسمها للقارة «أوروبا»، ويشير هذا أيضًا إلى انتقال نواميس الحضارة من فينيقيا إلى كريت ثم إلى أوروبا.

كذلك تفسر هذه الأسطورة المنشأ الإلهي لملك كريت الأول مينوس، ولا بد من الإشارة إلى أن الإلهة «آسيا» التي كانت بمثابة أم «أوروبا» أخذت اسمها، كما نعتقد، من «آش» أي النار أو الشمس، وهي دلالة واضحة إلى هذه القارة المشمسة، وإلى نزوح الحضارة نحو الشمال من آسيا عبر البحر، وانتماء أوروبا حضاريًّا إلى فينيقيا.

(٤-٢) قدموس

حزن أغينور حزنًا شديدًا على اختطاف ابنته، واستدعى أبناءه الثلاثة (فوينيكس، كيليكس، قدموس) وهم يقابلون كنعانيًّا (فينيق، قليق، قدم)، وأمرهم بأن ينتشروا في

الأرض ويبحثوا عن أختهم، فانتشروا وأسس فوينيكس مملكة فينيقيا، وكيلكس مملكة كيليكيا، أما قدموس فظل يبحث عن أخته حتى وصل إلى «دلفي» في بلاد الإغريق وذهب ليستشير كاهن أبولو فيها عن المكان الذي يؤسس فيه مدينته، فأشار عليه الكاهن بأن يذهب إلى مرج معزول ويتبع بقرة تخلو رقبتها من النير، وعندما تتوقف وتبرك فوق عشب أخضر فهناك ستكون مدينة قدموس التي اسمها «بيوتيا»؛ ففعل قدموس ذلك وكان برفقته أتباعه من صيدا وهم يمجدون أبولو، وعندما بركت البقرة أقام قدموس معبدًا، وأراد أن يقدم قربانًا للإله زوس فاحتاج إلى الماء وأرسل أصحابه ليجلبوا له الماء من نهر يجري في مغارة عميقة مجاورة، فذهب أصحابه ورأوا عند المغارة ثعبانًا ضخمًا يدعى «أريس» ملتفًّا يغط في نوم عميق، وعندما حاول أصحابه جلب الماء من النهر استيقظ الثعبان وفتك بهم جميعًا.

ولما طال انتظار قدموس شهَر سيفه وذهب باتجاههم ورأى الكارثة، ودارت معركة قاسية بينه وبين الثعبان الشرس استطاع في نهايتها قدموس قطع رأس الثعبان وتعليقه على بلوطةٍ قديمة.

وما أن استرخى قدموس وهو يتأمل ما فعله حتى ناداه هاتفٌ خفي بأن لا ينظر إلى رأس الثعبان هكذا لأنه سيتحول إلى ثعبان ذات يوم.

ثم نادته الإلهة أثينا-بالادا بأن ينتزع أنياب الثعبان وينثرها كالبذور في حقل بعد أن يحرثه، وفعل ذلك قدموس فنبتت الأرض من هذه الأنياب محاربين مدججين بالأسلحة والتروس والسيوف، وأراد قدموس أن يحاربهم؛ لكنهم تواجهوا فيما بينهم ودارت بينهم معركة شرسة تساقطوا فيها قتلى ولم يبق منهم سوى خمسة من المحاربين الذين رموا أسلحتهم واصطلحوا وصاروا أتباع قدموس، وبنوا معه قلعة «طيبة» التي اسمها «كادميا» ذات البوابات السبع. ثم بنى قدموس مدينة «طيبة» وشرَّع للناس القوانين ونظم شئونها، وأهدت الآلهة لقدموس زوجته «هارمونيا» ابنة الإلهين آريس وأفروديت (شكل ٣-٤).

أصبح قدموس واحدًا من أغنى ملوك الأرض، وصار اسم كل واحد من قواده الخمسة «سبارتي»، أي الذين أنبتتهم الأرض، وكان كل منهم على رأس جيش عظيم، وعاش قدموس زمنًا طويلًا حافلًا بالمسرات.

ثم بدأت الأحزان بالنزول إلى ساحته فقد ماتت ابنتاه «سميلا وإينو»، ومات حفيده أكيتون وحزن عليه حزنًا شديدًا.

وهجر قدموس وهارمونيا طيبة عندما أصبحا عجوزين، وذهبا إلى «إيليريا» البعيدة، وهناك تذكر الهاتف الذي صاح به ذات يوم بعد أن قتل الأفعوان، فصرخ بالسماء أن

تحوله إلى ثعبان إذا كانت خطيئة قتله للثعبان هي سبب المصائب التي حلت به، فتحول قدموس شيئًا فشيئًا إلى ثعبان، وطلبت هارمونيا أن تتحول هي الأخرى إلى أفعى لتشاطره مصيره فتحولت، وأخذا يجوبان الغابة وهما على هذه الهيئة حتى أدركهما الموت.

شكل ٣-٤: رسم على مزهرية يوضِّح أسطورة قدموس وعناية الآلهة به من اليسار إلى اليمين: (١) الإله بوزيدون يحمل شوكته المثلثة الشعاب، (٢) هارمونيا زوجة قدموس، (٣) قدموس وقد جرد سيفه وتظهر فوقه ربة النصر، (٤) الإلهة أثينا تسلمه إكليلًا، (٥) الثعبان آريس، (٦) الإلهة ديمترا خلف الثعبان من الأعلى، (٧) كيرات «بيرسفوني» إلهة الجحيم خلف أمها ديمترا (٨) حورية طيبة تحت ديمترا يظهر عند قدميها إله الحب إيروس يحملُ إكليلًا (عن: حاتم، ١٩٨٨م، ٢٠٩).

ولكي نكمل صورة الأسطورة الفينيقية الأصل حتى تخومها النهائية نود أن ننوه بأن الإله الإغريقي «ديونسيوس» ومقابله الروماني «باخوس»، هو إله الخمر والقصف والمجون، هو ابن زوس «جوبيتر الروماني» جاء به سفاحًا من سيميله (وهي من بني الإنسان ابنة قدموس ملك طيبة)، وتروي الأساطير عنه أن زوس أراد أن يُري سيميله قدرتَه بِناءً على طلبها فأرسل عليها صاعقة قضت عليها وهي حامل بديونسيوس، وعندما

انتقل جنينها إلى فخر أبيه، حيث قضى ما بقي له من مدة الحمل، ثم وضعه أبوه بجبل تيرا حيث قامت بحضانته إحدى حوريات الماء، ولما اشتد ساعده تعلم زراعة الكرم من سيلين الذي كان بمثابة نصف، إله ووظيفته إضحاك الإلهة كمهرج (انظر: وافي، ١٩٧٩م، ٤٥).

ونرى أن الإله ديونسيوس يكاد يتطابق في بعض صفاته مع الإله أدونيس، وأن اسميهما يقتربان من اشتقاق واحد، وأن أصلهما التموزي هذا هو الذي وحَّد صفاتهما وإن لم يوحد أسطورتيهما كليًّا (شكل ٣-٥).

الإله ديونيسيوس الإغريقي إله الخمر.

الإله باخوس الروماني إله الخمر.

شكل ٣-٥

(٥) قصص عصر البطولة القرطاجي (أبطال صُوْر)

تعرفنا بإيقاع متساوق على الأبطالالم الملحميين أو الأسطوريين لكل مرحلة من مراحل التاريخ الكنعاني، ويقينًا أن الآثار تخبئ الكثير من قصص هؤلاء؛ لكننا، للأسف، لا نملك الحيلة للوصول إليها.

إن ارتباط «صور» كأم لمدينة «قرطاج» على الساحل التونسي كان له الأثر البعيد في ظهور قصص حول هذا الارتباط، وقد ظل الحبل السُّري بين صور وقرطاج قويًّا حتى القرن الخامس قبل الميلاد، حين تغيرت العقائد الدينية الصورية في قرطاج وظهرت عقائد قرطاجية ذات طابع محلي.

ولا شك أن فجر قرطاج ظهر من صور، وظهرت معه أساطير تاريخية تحمل ذكرى الولادة هذه وتشير إلى الأفواج المتدفقة من صور إلى سواحل تونس وتأسيسها لهذه المدينة.

(٥-١) إليسا: مؤسسة قرطاج

لعل أشهر أسطورة تاريخية ترتبط بقرطاج هي الأسطورة التي تم تأسيسها على يد الملكة الصورية الأصل «إليسا Eliasa».

وتتلخص حكاية «إليسا» في أنها كانت مع أخيها «بجماليون» أبناء الملك الصوري «متان الأول» و«مطو الأول» الذي حكم في النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد ملكًا على صور، وكانت «إليسا» تتمتع بذكاء وجمال نادرين، فتزوجها عمها أو خالها الكاهن الأكبر «عاشر باص»، الذي كان بمثابة نائب الملك وصاحب الكنوز الكبيرة التي أخفاها في مكان بعيد عن منزله، وهو كاهن الإله ملكارت.

كان «بجماليون» طامعًا بعرش أبيه، وكان خائفًا من حب الناس للكاهن الأكبر، وطامعًا بكنوز عاشر باص؛ ولذلك قام بقتله، فما كان من زوجة عاشر باص أخت بجماليون إلا الهرب مع حاشيتها إلى قبرص حيث تلقَّاهم كاهن الجزيرة واختفى بهم.

وكان من العادات الدينية في قبرص إرسال الفتيات إلى معبد الإله «فانوس» للتضحية ببتولتهن على يد الكهنة، فاختارت «إليسا» ثمانين عذراء منهن ليكنَّ زوجات للشباب الذين انتقلوا معها من مدينة صور إلى قبرص. وسرعان ما شدوا الرحال جميعًا إلى رحلة مجهولة في البحر الأبيض المتوسط.

ورست سفن «إليسا» وأصحابها على سواحل بلاد البربر في تونس، فرحب بها ملك البربر «يوباس»، ثم قررت أن تبني مدينة في مكان نزولها ففاوضت ملك البربر الذي كان يملك الأرض، وتقول الأسطورة التاريخية إن إليسا اختارت شبه جزيرة خارجة من البحر لها شبه كبير بالموقع الجغرافي الذي تأسست فيه مدينة صور، وكان حولها خليج يسمى خليج عوتيقة «أوتيكا» المسمى باسم مدينة فينيقية قديمة كانت قد تأسست هناك قبل هذا الوقت بحوالي قرنين، وقد فاوضت إليسا ملك البربر على أن تشتري أرضًا بمساحة جلد ثور تملؤه ذهبًا، فلم يصدق ملك البربر هذا العرض ووافق فورًا، فأعطته إليسا الذهب وأخذت جلد الثور وقطعته على شكل سيور أو خيوط نحيفة جدًّا حتى حصلت على أرض واسعة.

وعلى هذه الأرض بنت إليسا مدينتها التي سمتها «قرت حدشت» التي تعني «القرية الحديثة» والتي صار اسمها فيما بعد قرطاج، ثم أقبل سكان مدينة «عوتيقة» أو «عتيقة» واختلطوا بمواطنيهم الفينيقيين بعد أن طارت شهرة إليسا في الآفاق وعرفوا نفوذ أصحابها.

وقد أطلق الشاعر الروماني فرجيل اسم «ديدو» أو «ديدون» على «إليسا». وكان تأسيس المدينة حوالي ٨١٤ق.م.

وتستمر الأسطورة التاريخية لإليسا على لسان فرجيل في الإيناذة (الأنشودة السابعة) لتقول لنا إن إليسا أحبت القائد الطروادي الذي قاد فلول الطرواديين «إيناس»، وهو ابن أسطوري من زواج الإلهة فينوس من أنخيس ملك طروادة؛ لكنه هجرها فغرقت في الحزن. وخلال ذلك يقوم ملك البربر «يوباس» بعرض الزواج عليها، فيكون ردها بين حزنها ورفضها بأن تقيم لها محرقة كبيرة عند أبواب المدينة وتقدم أولًا ضحايا كثيرة، ثم تطعن نفسها منتحرة فوق حطب المحرقة ثم تحترق لتقدم نفسها ضحية لروح زوجها الأول الكاهن الكبير والإله ملكارت. وبعد موتها ظلت تكرم كل عام في مكان موتها، مثل إله، حتى سقوط قرطاج (انظر: دبوز، ١٩٦٤م، ١٠٩–١١٥، الناظوري، ١٩٨١م، ١٦٢-١٦٣، ميادان، ١٩٨١م، ٣٧–٤٠).

لا تخلو هذه الأسطورة التاريخية من حقيقة وخيال معًا، ويسهل علينا فرز الحقيقة عن الخيال؛ فلا شك أن الفينيقيين استقروا في قرطاج في هذه الفترة (فاسم بيجماليون الذي شاع استعماله في قرطاج وجد مكتوبًا في النقوش، والوشائج النبوية التي تربط قرطاج بصور، أكدتها قصة تلك البعثات التي كانت تنطلق كل سنة من قرطاج، لتحمل الجزية إلى الوطن الأم بمناسبة عيد ملكارت) (ميادان، ١٩٨١م، ٤٠).

ويقول المؤرخ اليوناني العلماني «أبيان» في القرن الثاني الميلادي: إن قرطاج أُنشئت بمجهود مهاجرين سياسيين من فينيقية هما زوروف Zourf وكرشيدون Carchedon، والاسم الأخير يذكرنا باسم قرطاج، لكن هذا لا يمنع من لجوء إليسا إلى قرطاج هاربة من تسلط بجماليون مع مجموعة من المعارضين لحكمه في جزء من أسطول صُور.

كذلك تبدو لنا حادثة جلد الثور رمية أكثر من كونها واقعية، وكذلك ظهور إيناس كعشيق لإليسا وهو يحمل ذلك النسب الأسطوري من فينوس ليكون سببًا في نهايتها.

أما المحرقة أو المذبح الذي انتحرت فيه إليسا فقد عُثر على ما يؤكد وجوده هو ومرفأ «سلامبو»، وهي امرأة فينيقية أخرى شِبه أسطورية، كتب عنها الروائي الفرنسي الشهير فلوبير رواية باسمها.

ويمكننا ترتيب الأسطورة التاريخية لاليسا كما يلي:

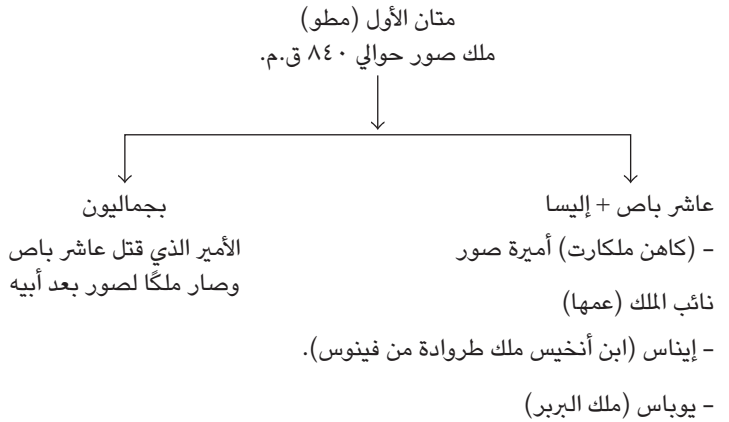

وإذا عدنا إلى إنيادة فرجيل فسنرى أن السبب الرئيسي في موت إليسا، التي تسمى «ديدو» أو «ديدون»، هو هجران إيناس للملكة ومغادرته لمملكتها.

وإيناس هو الأمير الطروادي الشهير الذي قاد الفلول المتبقية من الطرواديين بعد خسارتهم في حرب طروادة عبر البحر الأبيض المتوسط في رحلة مغامرات تشبه رحلة يولسيس ليصل إلى أرض هسبيريا (إيطاليا)، ويكوِّن هناك سلالة من الملوك يؤسسون فيما بعد مدينة روما، التي تتطور وتسيطر على كل أرض إيطاليا ثم تكون الإمبراطورية الرومانية. ولكن إيناس هذا يصادف في رحلة التيه التي بدأ بها من طروادة مدينة قرطاج، وتستقبله ملكتُها وتقع في هواه ثم تتزوجه، لكن الآلهة تحثه بعد أن استرخى في أحضان ديدو «إليسا» ومملكتها على المضي إلى هدفه فيغادرها فجأة، وتحاول منعه؛ لكنها تفشل في ذلك، فتهيئ محرقة كبيرة تضع فيها كل ما تبقى من إيناس، سيفه وثيابه وصورته مدعية بأنها ستحرق ما يخصه بينما سفينته تستعد للرحيل؛ ثم تصعد المحرقة وتسل سيف إيناس وتحرق من غمده، وتشعل النار وترمي نفسها على الفراش قائلة:

«إنني أسلم الآن روحي، وقد أنهيت عملي، فبنيت مدينة جبارة وانتقمت لزوجي من قاتله، ولو لم تأتِ سفن الطرواديين إلينا لسعدت؛ بل لتمَّت لي السعادة. ثم

قبَّلت الفراش وأجشهت قائلة: هل أموت من غير أن يُثأر لي؟ ومع ذلك فلْأَمُت، وسيشاهد رجل طروادة هذه النار من البحر الذي يمخره فيحمل معه شؤم الموت» (فرجيل، ١٩٧٨م، ٩٨).

وهكذا يبدو لنا السبب المباشر والوحيد لموت إليسا هو غرامها الشديد بإيناس، وهجره لها دون أن يكون هناك ذكر لملك البربر، وطلبه الزواج منها ورفضها ذلك ثم انتحارها.

ويبدو لنا إيناس رمزيًّا وكأنه «البحر المتوسط» الذي تنتقل سيادته من قرطاج إلى روما وهو ما شهده التاريخ فيما بعد.

الفصل الرابع

اللاهوت الكنعاني

دراسة في المعتقدات الدينية الأوغاريتية والفينيقية والقرطاجية

إناء كنعاني يحتوي على رموز وآلهة، ويحاط بثعبان دائري يقترب فمه من ذيله (عن: Harden 1962: 190).

> «إن قدرنا أن نتحول إلى العدم، وكل ذلك بسبب الذهب ومن أجل أن نملأ دومًا منضدة الإله. الفَناء مكتوب علينا واضطهادنا هو من أسرار الآلهة. نحن أمام الإله مثل ذرة غبار ما دام يحكم علينا بالشقاء ويقرر عدم الكلام. إن قدرته كقدرة عشرات الآلاف من الجواميس» من ملحمة اللآلئ، للكاهن إيلي ميلكو، حوالي القرن ١٤ق.م.

(١) المؤسسة الدينية الكنعانية

كان الكنعانيون على طول تاريخهم مؤسسة دينية متماسكة تبدأ من السماء؛ حيث الآلهة ومجمعها، ثم الأرض والأماكن المرتفعة؛ كالجبال بشكل خاص والمعابد، ثم الكهنة ورجال الدين الذين كانوا وسطاء بين الآلهة والناس. ورغم أن كل مدينة كنعانية أو فينيقية تتمتع بمؤسسة دينية مستقلة؛ لكن هناك ما يجمع هذه المدن على جميع مستويات هذه المؤسسة من آلهة ومعابد وكُهان.

كانت العلاقة بين السماء والأرض تتجسد بشكل خاص، في العبادة الكنعانية، من خلال مظاهر الطبيعة؛ كالأمطار والعواصف والبرق والرعود والخصوبة والجفاف. وكانت هذه المظاهر تنعكس على العلاقة بين مستويات المؤسسة الدينية.

لقد لعبت دورات الخصب والجفاف السبعية دورًا مهمًّا في تحديد هذه العلاقة وتحويرها بما يتناسب مع إيقاع الطبيعة، وكانت الآلهة تتمظهر على وفق هذه الإيقاعات.

(١-١) الآلهة

حذف اللاهوتيون القدامى، لأسباب سياسية ودينية، الآلهة القديمة، ثم جعلوا من بعضها تابعة للإله إيل أو بعل. ومنذ ظهور الإله إيل بدأت شجرة الآلهة الكنعانية بالظهور قوية وتحاول أن تغطي جيل هذا الإله المرتمي في أحضان الطبيعة الرطبة. أما جيل الإله بعل فجيل تتصارع فيه قوى الخصوبة والجفاف.

كان الإله يعبر عن الطبيعة، وكان الإله الذكر هو هذه الطبيعة، أما الإلهة الأنثى فلم تكن سوى إعلان لقوة الإله الذكر، تظهر خواصه وتقابله، كما أن البعل كان الإله العظيم، وكذلك كانت عشتروت الإلهة الكبرى، كانت البعلة تمثل القمر، ولبعل السمائيم إلهة توازيه يدعونها «ملكة هالسمائيم»، ومن الأزواج المذكورة في الكتابات الفينيقية بعل صيدون وعشتروت في صيدا، وتموز وبعلة جبل في جبيل (انظر: اليسوعي، ١٩٨٢م، ٤٥).

وكانت الآلهة تظهر أحيانًا كثالوث في مرتبة عليا يسير على بقية الآلهة، مثل ثالوث صيدون (البعل، وعشتاروت، وأشمون)، وثالوث جبيل (إيل، وتموز، وبعلة)، وثالوث صُور (البعل، وعشتاروت، وملكارت) ... وغيرها.

أو أن هناك ثالوثَ بناتِ بعل (أرصاي، بدراي، طلاي)، أو الآلهة السبعة من معاشرة إيل وبعليتس هكذا.

كذلك ظهرت آلهة مزدوجة؛ مثل: «شهار وشاليم» (نجمة الصباح والمساء)، وريح ونيكال إلها القمر، وبعل وعناة وأدونيس وعشتروت ... وغيرها.

وكانت الآلهة تهبط من السماء وتحل في الأحجار والتماثيل المخصصة لها، أو في الجبال المسماة باسمها؛ مثل جبل حرمون، وجبل صفون ... إلخ، وربما كان لها مقرات مائية؛ مثل: منبع النهرين ومغارة أڤقا ... وغيرها.

وكان الإله بمثابة الأب بالنسبة للملك، وتحولت أسماء الآلهة إلى ألقاب كبيرة؛ مثل: «إيلي = إلهي»، «بعلي = سيدي»، «أدوناي = سيدي».

(١-٢) المعابد الكنعانية

تركزت أماكن العبادة الكنعانية القديمة في نوعين من الأماكن؛ هي: هياكل العراء، والأماكن المرتفعة (المعليات). ثم صارت المعابد والساحات وبعض الجبال وربما ساحات القصور أماكن للعبادة. وكانت لفظة قادش Qadesh تعني «مكان مقدس». أما لفظة بهل Phl فكانت تعني مكانًا مرتفعًا وربما عنت التماثيل الفضية للآلهة التي كانت تقام لها طقوس التبخير (بهلو Pihilu).

وكانت المعابد الكنعانية تتعدد وتتنوع خصوصًا تلك التي كانت للإله «بعل»؛ حيث يعتبر في البداية مسكنًا له ولقواه؛ ولكن هذه القوى سرعان ما تنفصل عن بعضها ويصبح بعل ظاهرًا في عدة أشكال حسب المدينة أو الظاهرة.

كان المعبد في بدايته الأولى في العراء تمثله حجرة منتصبة مشحونة بالقداسة تدل على الإله، وخصوصًا إيل. ويمثل هذا في رأينا امتدادًا للعبادة الميغاليتية التي ظهرت مبكرة في بلاد الشام منذ النيوكش في الألف السابع قبل الميلاد.

ثم تطور المعبد إلى حجارة الأماكن المرتفعة، ثم وضعت الحجارة في غرفة مربعة، وكان لهذه الغرفة المربعة (المكعبة) باب واحد فقط، ثم تطور بناء هذا الصرح أو المقصورة أو الغرفة المكعبة إلى بناء بعدة غرف، وأصبح المذبح في وسط القاعة الكبيرة وعلى هذا المذبح يتم تقديم القرابين للآلهة.

ولم يكن بناء المعابد لعبادة الإله؛ بل لحبس قواه بين أربعة جدران وسقف، «لقد ساد الاعتقاد بضرورة بناء معبد باسم الإله بعل من أجل ضبط تصرفاته وحبس قواه أكثر مما هو من أجل عبادته، فكانوا يعتقدون بإمكانية وقف المصائب عندما يكون بالإمكان حصرها في مكان معين» (ميديكو، ١٩٨٠م، ٣٨).

(أ) بيت إيل

وهو أبسط أنواع المعابد التي تنحدر منذ الماضي البعيد لأرض الشام، فهي عبارة عن نصب أو حجارة منحوتة منتصبة في العراء، كان يرى فيها المتعبدون مكانًا حلت فيه الذات الإلهية «وأكثر ما كانوا يختارون لعبادتهم حجارة الرجوم، ولا سيما تلك التي رأوها ساقطة من الهواء على شكل شهب نارية، فيجدونها لذلك هبة سماوية، وإذا كانت هذه الرجوم مركبة من مواد بركانية ذات لون أسود وتوفر عددها في لبنان فلذلك شاعت عبادتها في أنحائه، ومما كان يزيد في اعتبارها عند القوم أن يروها على شكل مخروط لما يجدون في هذا الشكل من الرموز الدينية» (اليسوعي، ١٩٨٢م، ٤٤).

وربما كان إيل يعبد أيضًا على «جبل إيل» الذي يعتقد أنه جبل حرمون.

(ب) أشيروث asheroth

وهي النصب المقدسة (السواري) فوق المرتفعات، والتي كانت بمثابة المعابد الأولى القديمة للإلهة الأنثى «عشيرا»، وكانت الأماكن العالية توصف دائمًا بـ «العارية»، وتقع عادة في أعلى التلال القاحلة، وكان أبناء عشيرا يُعبدون في الساحات.

وكانت أماكن عبادة عشيرا بشكل عام تسمى «الأوقاف المقدسة».

(ج) بيت اللعنات

وهو مكان مضاد للعبادة، مضاد للمعبد، حيث يتم فيه التجديف على الآلهة أو القيام بأعمال مخالفة لطقوس «إيل» و«عشيرا» وقد ورد ذكر هذا البيت كثيرًا في ملحمة الملك الكبير.

وربما تحول بيت اللعنات إلى مكان لعبادة آلهة مضادة للآلهة السائدة؛ مثل عبادة بعل في مقابل عبادة إيل.

(د) الهياكل

وهي أبنية متطورة قياسًا إلى هياكل العراء، وبعضها له واجهة من الأعمدة ويصعد إليها بدَرَج وتحتوي في مكان بارز على تمثال الإله المعبود كما هو واضح في هيكل مدينة جبيل (ببلوس) المنقوش على قطعة نقدية تعود إلى القرن الثالث الميلادي (شكل ٤-١).

هيكل فقرا: وهو هيكل عظيم يقع في قلعة فقرا في لبنان، يتكون من صخرة جعلت أساس الهيكل، وأبعادها ١٤×٣٤م، وفيها بقايا أعمدة وأركان منحوتة في قلب الصخر، وأمام الهيكل ساحة رحبة الجوانب (٣٠ × ٣٨م)، يطل على قسم منها الصخر المنتصب فوقها عموديًّا، ويبدو هذا الهيكل المبني على قمة جبل بشكل مهيب جدًّا.

وفي شمال الهيكل برج عظيم مربع الشكل كان ينتهي سابقًا ببناء مخروطي، وهناك قرب الهيكل بناءان أحدهما مربع والآخر مستطيل.

هيكل أفقا: ويقع عند رأس نهر إبراهيم، ويعتقد أن هذا الهيكل مبنِيٌّ لإكرام «زهرة أفقا» التي هي عشتروت حيث يحج إليها الناس قديمًا من كل بلاد الشام. وما يميز هذا الهيكل عن هيكل فقرا أنه بُني على ركائز متدرجة، ويبدو أنه كان هيكلًا لممارسة طقوس من الجنس المقدس.

وقد هُدم الهيكل مرتين أحدهما في عهد قسطنطين الكبير والأخرى في عهد ثاودسيوس الكبير. وكان قبلهما مكانًا لممارسة الشعائر السنوية الفينيقية.

هيكل عمريت (مارتوس): ويقع في سوريا، ويتكون الهيكل من مقصورة تقوم على قاعدة مرتفعة بمساحة ٥م^{٢} انظر: عصفور، ١٩٨١م، ١٠٦ (شكل ٤-٢).

شكل ٤-١: هيكل مدينة جبيل (ببلوس) منقوش على قطعة نقدية تعود للقرن الثالث الميلادي (Moscati 1988: 48).

شكل ٤-٢: هيكل عمريت.

هيكل دير القلعة: وهو هيكل لعبادة البعل، بُنيت على بعض أجزائه كنيسة، ومساحته المستطيلة تقف في مقبعتها مجموعة من الأعمدة المحطمة ويحيط به الدير العتيق والبناء الجديد. ومخطط الهيكل كما هو موضح في (الشكل ٤-٣).

هياكل قرطاج: لم تختلف هياكل قرطاج عن الهياكل الفينيقية الأم؛ فقد عثر على هيكل أشمون عند المرتفع المطل على المدينة، وعلى هيكل بعل حمون وتانيت قرب البحر قرب مرفأي المدينة.

وتتكون الهياكل القرطاجية بشكل عام من ساحة مربعة الشكل محاطة بجدار، ويقوم في وسطها المصلى الذي هو عبارة عن مقصورة ناووسية الشكل مكعبة مبنية بالحجارة الضخمة، وتعلو واجهتها الرئيسية الأفاريز والزخارف المختلفة.

وهناك قرب المصلى وداخل الجدار ينتصب عمود منفرد يحمل تمثال الإله المعني، ويحتوي فناء الهيكل على حوض الوضوء (ميضأة) وقربها بئر لاستخراج الماء، أما جدار المعبد فيحتوي على مذبح، أو مذابح عدة مرتفعة، وتتصل بالسور أيضًا مواضع خاصة بالكهنة (انظر: ميادان، ١٩٨١م، ٦٨).

معبد المسلات في جبيل

وتظهر بعض المعابد وهي حاويةٌ قطعًا من الحجارة الطويلة التي تشبه المسلات؛ مثل معبد مدينة ببلوس في الألف الثاني ق.م. (١٩٠٠ق.م. تقريبا). (شكل ٤-٤).

كما عثر على معبد للإله «بعل» في مدينة أوغاريت يعود بناؤه إلى القرن الرابع عشر ق.م. (انظر: علام، ١٩٩٢م، ٢٠١).

(هـ) المذابح

كانت هناك مذابح كبيرة في العراء أو في مداخل المدن لتقديم الضحايا الحيوانية أو البشرية، ولعل أشهر المذابح البونية الكبيرة هو مذبح سلامبو عند ميناء قرطاج، والذي كانت ترتفع عليه أعداد كبيرة من النُّصُب التي تقوم عند النواويس، وتشبه هذه النصب المسلات أو الأعمدة المستطيلة الناتئة عند المصريين (انظر: ميادان، ١٩٨١م، ٩٥-٩٦).

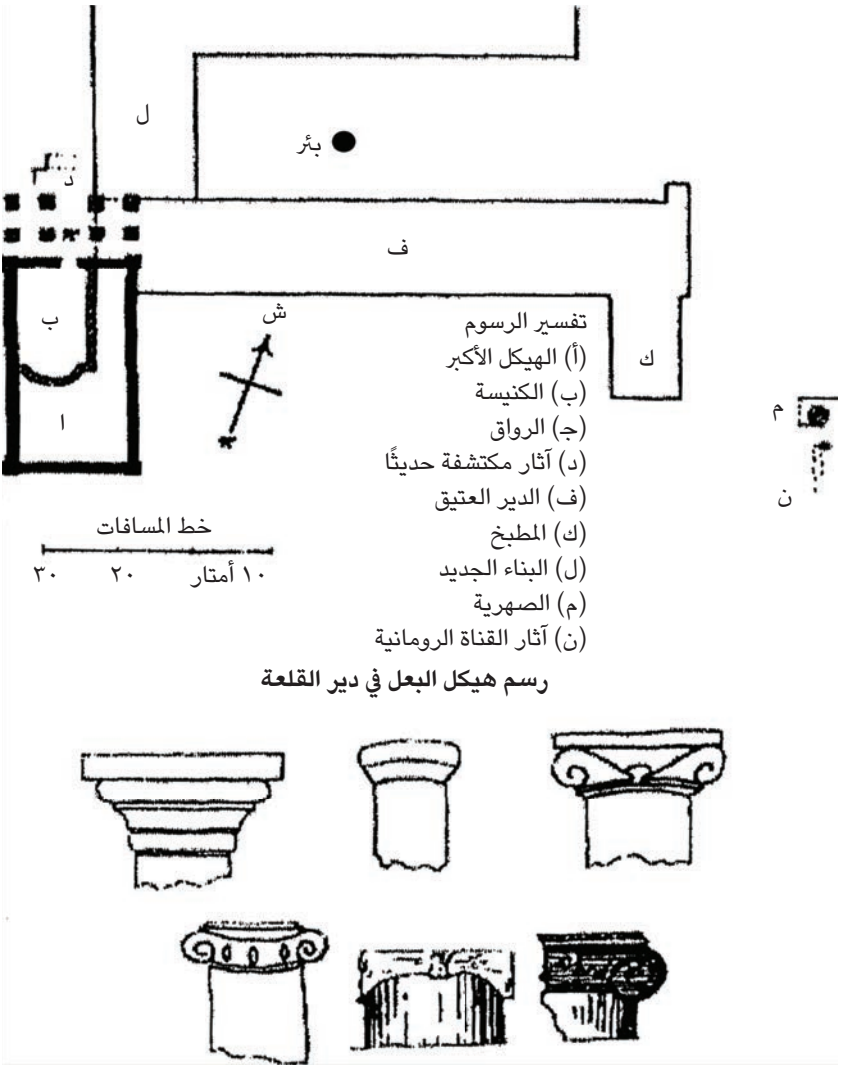

رسم هيكل البعل في دير القلعة

شكل ٤-٣: هيكل دير القلعة في لبنان (عن: اليسوعي، ١٩٨٢م).

شكل ٤-٤: معبد مدينة جبيل (ببلوس) في الألف الثاني قبل الميلاد.

(١-٣) الكهنة

كان رجال الدين الكنعانيون يتمتعون بمركز اجتماعي رفيع، وكانوا يقومون بإدارة الشئون الدينية في البلاد، أي في كل مدينة كنعانية مستقلة، ولا شك أنهم كانوا ينتظمون في مراتب ودرجات.

كان الكاهن الأكبر عادة هو كاهن إله تلك المدينة، وهو الذي يعين الملك. وتخبرنا آثار أوغاريت أن الكاهن الأكبر في عهد الملك الأكبر (ربما كان أبيمالك) كان «إيلي ميلكو»، الذي قام بكتابة ملحمة اللآلئ حول هذا الملك، وقد اعتبره مجرمًا في حق شعبه وخارجًا على قانون الإله «إيل»، وأنه باع نفسه لبعل زعيم الأبالسة، ولذلك استحق الموت رجمًا،

وستذهب روحه إلى جهنم؛ حيث تعيش في الظلام بجوار حارس الأموات ودليل المتوفين، وهكذا انتهت مأساة هذا الملك الذي أراد «نقمد» خلفه كتابتها لتلقي دروسًا إلى أبناء عائلته عبرة وعظة (انظر: ميديكو، ١٩٨٠م، ١١).

وكان الملك المستبد يقوم أحيانًا بالاستيلاء على وظيفة الكاهن الأكبر، فالملك الأكبر كان يقوم بأعمال الكاهن الأكبر إيلي ميلكو؛ ولكنه في حقيقة الأمر كان يستغل منصبه ليصلي إلى آلهة كاذبة وليسرف في استعمال «كأس الألوهية» وجمع الذهب ... وغيرها.

وعند البونيين كان الكاهن يعرف باسم «كوهن»، وكان الكاهن ينتمي إلى واحدة من المراتب؛ مثل: «أمير كهنة، كاهن من المرتبة الثانية، زوج عشتارت ... إلخ.»

وكانت الكهانة عند البونيين وراثية، وكانت لها سلطة قوية؛ ولكنها محصورة في المجال الديني وليس السياسي.

كان القاص البوني يلبس ثوبَ كتان شفاف وطويل، يمتد من كتفه الأيسر شريط مستقيم ويربط الكاهن شعره برباط من المعدن النفيس، وأحيانًا يغطي رأسه بقبعة عالية تشبه الطربوش (انظر: ميادان، ١٩٨١م، ٩٩).

والكاهنات في قرطاج يغطين رأسهن بوشاح، ويرتدين ملابس طويلة. وكان هناك من يتبع الكهنة والكاهنات؛ مثل الحلاقين، والموسيقيين، وحَمَلة المصابيح والمشاعل ... وغيرهم.

(٢) إيل وشعبه المختار: شعب السيد

كانت الألوهية عند الكنعانيين تعني عبادة قُوى الطبيعة المخصبة بشكل خاص، ورغم أن الكنعانيين وبعدهم الفينيقيون والبونيون عبدوا آلهة مختلفة، إلا أن الإله إيل كان أكثر آلهتهم تقديسًا، فقد كان «الشعب الكنعاني يؤمن بالآلهة إيمانًا عميقًا كما يؤمن بإلهٍ أكبر، رب الأرباب، يدعى إيل ... إنه إله غير شخص خالق السماء والأرض وجميع البشر، وهو بنوع خاص «إله الشعب المختار» «شعب إيل» أي «الكنعانيين»، أو شعب السيد «ولفظة السيد هي لقب من ألقاب الإله، ومثل هذا اللقب يشير بوضوح إلى فكرة التوحيد الآخذة في الرسوخ، إنهم يقولون «شعب إيل» أو «شعب السيد» ولا يقولون شعب الآلهة».» (ميديكو، ١٩٨٠م، ١٨٠).

إن الآلهة الكنعانية القديمة جدًّا قد حذفت من البانثيون الكنعاني وحورت أساطيرها (كما كشفنا عن ذلك)، وذلك لاعتبارات دينية تتعلق ربما بمحاولة تكريس الإله إيل كإله

أعظم وأقدم، وقد كان يسمى «أبا الآلهة والبشر»، وربما لأسباب لاهوتية كان يقوم بها الكهان المنحازون لهذا الإله أو لآخر، وربما تعمد أحبار اليهود القدامى تدمير كل ما يدل على الماضي الروحي الكنعاني في إشاراته التوحيدية؛ ليثبتوا أنهم أول من قاد ثورة التوحيد، وخصوصًا خلال الإله إيل.

ورغم ذلك فقد رأينا غزارة ووفرة البانثيون الكنعاني الذي نرى أنه أساس البانثيون الإغريقي دون أدنى شكل، ولا نؤمن بالفكرة التي تقول إن آلهة الإغريق هي آلهةٌ آريةٌ نزحت من عبادات الهند القديمة، فهذا رأي ضعيف ومرتبك أمام الأسانيد الجديدة.

كانت الآلهة الكنعانية تلمح إلى عقائد التوحيد والتفريد والتعددية في الوقت نفسه، فقد كنا نَلمح التوحيد مع الإله إيل، والتفريد (وهو رفع إله قومي على حساب الآلهة الآخرين) مع الإله بعل، والتعددية من خلال تنوع مراكز القوى الإلهية في شجرة الآلهة الكنعانية.

ولا شك أن الآراميين هم أكثر ميلًا إلى التوحيد من الكنعانيين؛ ولذلك نرى أن اندماج الدين الآرامي مع الكنعاني في العصور المتأخرة أدى إلى ظهور ثالوث إلهي قوي مكون من «بعل هود، وأثرغاتس، وسيميوس» الذي كان بمثابة «الأب، والأم، والابن» والذي شكل الأرضية الأساسية التي قام عليها الأقنوم المسيحي (الآب، والابن، والروح القدس)؛ حيث استبدل بالأم الروح القدس، وهو أقنوم توحيدي في نهاية الأمر.

كانت عبادة إيل تميل إلى المثل العليا ذات الطابع السماوي، أما عبادة بعل فقد كانت تميل إلى الطابع الأرضي والحياة الحسية الدنيوية المرتبطة بالعنف والقوة والإباحية، رغم أن «عناة» كانت تخفف منها؛ بسبب ميلها إلى المثل العليا والحق والأمومة والزواج وغيرها.

كان الاتجاهان متعارضين ويصعب تصالحهما «من هنا كان من الصعب جدًّا على الاتجاه الإيلي أن يتعايش مع الاتجاه البعلي-العشتاري الأقدم عهدًا والأرسخ في التقاليد. وكان من المستحيل من جهة أخرى على بعل وعشتارت أن يتحولا إلى مجرد وكيلين لخصب الطبيعة متنازلين تمامًا عن مكانتهما السابقة التي تبوءاها منذ عهد المستوطنات النيوليثية الأولى. وكان الصراع ينتهي لصالح إيل في فترات أخرى ومناطق أخرى. وبين الشد والجذب كانت تسود في بعض الأحيان تسوية دينية تجمع الإلهين في بانثيون واحد في حالة تعايش ووئام» (السواح، ١٩٩٣م، ٤٧٣).

لقد انتقلت فكرة الشعب المختار من قبل إيل إلى الفينيقيين، الذين هم الشعب المختار من قبل أدون الذي هو مرة أخرى يعني السلام، أما اليهود وقبلهم العبرانيون فقد تأثروا

بهذه الفكرة البسيطة التي تشير إلى حميمية كل شعب مع إلهه القومي، وأصبحوا الشعب المختار من قبل يهوا (إله العبريين القومي)، ولأنهم استخدموا يهوا فيما بعد كتعبير لاحق يدل على الله بصفة عامة؛ لذلك سرقوا وشوهوا فكرة الشعب المختار من قبل الإله القومي المعين وأصبحوا يوهمون الناس (بعد أن ساد التوحيد في المسيحية والإسلام) أنهم شعب الله المختار، وهم ببساطة شعب إلههم القومي القديم يهوا، وهو إله عاصفة لا يختلف في صفاته عن بعل وحدد وأنيل وغيره من آلهة الطقس، التي كونت بصورة عامة فكرة التفريد لا التوحيد.

لقد خضع اللاهوت الكنعاني إلى تبدلات جوهرية منذ نشأته وصولًا إلى القرون الميلادية الأولى، فبعد أن كان لاهوتًا قديمًا لا ينفصل عن اللاهوتين الآرامي والأموري، كان أول تحولاته من خلال سيادة اللاهوت الإيلي الذي استمر فترة طويلة حتى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد؛ حيث بدأ اللاهوت البعلي في أوغاريت ورأس شمرا هو الذي يظهر ثم يجتاح المدن الفينيقية ويسود فيها، ومع رسوخ تقاليد اللاهوت الفينيقي شهد الدين الكنعاني تبدُّلًا عميقًا في عقائده؛ فقد سادت عبادة الإله بعل وأشكاله، وتراجعت في الوقت نفسه عبادة إيل، واختفت عناة لتحل محلها عشتروت بسبب طغيان اللاهوت الأدوني، وارتبطت عشتروت مع بعل لتمثيل صورة الطبيعة المتبدلةِ الخصوبة.

وكان لاختلاط العقائد الدينية المجاورة والوافدة والغازية مع الدين الكنعاني في هذه المرحلة أثره الكبير؛ فقد ظهرت أفكار دينية وطقوس وآلهة جديدة حورية وحيثية وآشورية وبابلية ومصرية؛ بل وإيجية، واستمرت هذه الاختلاطات تطغى مع وفود العقائد الفارسية ثم الإغريقية والرومانية حتى ذابت ملامح الدين الكنعاني في ما حوله من الأديان، خصوصًا بعد اختلاطه مع الدين الآرامي. وكان هذا كله يمهد لظهور المسيحية التي نرى أنها امتداد للعقائد الكنعانية الآرامية أكثر منها للعبرية اليهودية، وهو ما سنحلله تفصيليًّا في كتبنا القادمة.

إن التبدلات التي شهدها الدين الكنعاني في الغرب (شمال أفريقيا) تشبه تلك التي شهدها في الشرق بعد انقضاء الألف الثاني قبل الميلاد، والتحول من اللاهوت الأوغاريتي إلى اللاهوت الفينيقي.

ففي الغرب تحول اللاهوت الفينيقي (البوني) إلى اللاهوت القرطاجي الذي أخذ بنظر الاعتبار التأكيد على الآلهة المحلية القديمة لشمال أفريقيا، وخصوصًا البربرية منها؛ مثل «تانيت وحامون» بعد فشل الأسرة الماجونية وبدء مرحلة القضاة حوالي ٤٨٠ق.م. وكذلك بدأت العناصر المصرية الراسخة في الشمال الأفريقي بالظهور في اللاهوت القرطاجي؛

مثل: إيزيس، وأوزيريس، وحاتحور، والإله «بس» الذي كان واسع الانتشار بسبب استخدام تماثيله الصغيرة كتمائم سحرية ضد الشر.

وهكذا انشطر اللاهوت القرطاجي إلى قسمين؛ الأول قديم محافظ يتمسك بعبادة ملكارت وأشمون وعشتروت، والثاني منفتح على الآلهة البربرية والمصرية.

ويشبه هذا التحول ما حصل بعد قرن أو قرنين من الزمان عندما اتصل القرطاجيون بالآلهة الإغريقية ثم الرومانية؛ حيث كانت عبادة «أدونيس وعشتروت» هي الأكثر تسربًا من الديانة الإغريقية رغم جذرها الكنعاني القديم، فقد كانت الأقوى بسبب طبيعتها المخصبة.

ومع ذلك ظهرت عبادات غير إلهية في كنعان؛ مثل: عبادة الأرض، وعبادة الأموات، وعبادة الأجداد. ويرى ميديكو أن أغلب هذه العبادات دخلت إلى كنعان من أصول غير سامية ومن الفلسطينيين في عهد الملك نقمد، فقد كان الملك نقمد يمارس عبادة الأموات التي تقضي بإقامة نصب تذكارية للملوك المتوفين في الغابات، وكان الفلسطينيون يمارسون هذه العبادة، وكان أيضًا يفتش عن آلهة في جوف الأرض ليعبدها، وعبادة الأجداد كانت تنتقل من الأب إلى الابن، فنار البيت لا تنطفئ ولا يموت الإنسان فعلًا ما دامت طقوس عبادة الأجداد قائمة كما يرون في عصر نقمد (انظر: ميديكو، ١٩٨٠م، ١٢٦-١٢٧).

(٣) شكل الكون

كان الكنعانيون يعتقدون أن الأرض مغطاة بثلاثة أغطية مختلفةِ الطبيعة، فأقربها إلى الأرض هو الغطاء الخفيف المكون من الطل أو الندى، الذي ربما عبرت عنه ابنة الإله البعل «طلاي» التي كانت تلقب بـ «ابنة المطر»، وكان هذا الغطاء يعبر عن رحمة السماء ونواياها الطيبة. أما الأغطية الأخرى فتسمى بالخشنة، ويرد تعبير غطاء «رصاص الأمراض» ليعبر عنها وهي لحماية الأرض من الأمراض (انظر: ميديكو، ١٩٨٠م، ٣٧-٣٨).

وكانت ابنة بعل «أرضاي، أرصي» هي التي تمثل الأرض، وكان لقبها «بنت يعبود دار» يدل على معنى الدوران والاتساع «وبذا يكون معنى اللقب الذي أصبح اسم علم (بنت العالم الواسع) ربما أن أختيها تمثلان ظواهر الطقس والنوء؛ لذا يعتقد أن لها نفس الوظيفة؛ ولكن هذا الافتراض لم يتأكد بعد. وانطلاقًا من معنى الاسم يفترض أنها تجسد الأرض الواسعة التي تستقبل إخصاب الإله بعل الممثل بالمطر» (أذزارد، ١٩٨٧م، ١٧٠).

ولكننا لا نعرف على وجه الدقة شكل الفضاء الخارجي والكواكب والنجوم في المعتقدات الكنعانية. وقد ذكرنا بعضها وأكدنا أن الكنعانيين لم يهتموا كثيرًا بالنجوم والأفلاك ومداراتها لتركيزهم على دورات الخصب في الطبيعة. «ويمكن الظن أن الأوغاريتيين أخذوا عن ميزوبوتاميا مفاهيم في علم النجوم إن لم يأخذوا عنهم في الفلك؛ ولكننا لا نستطيع أن نذكر بهذا الشأن إلا تلميحًا خفيًّا إلى سير الكواكب التي كانت معرفتها من اختصاص بنت ملك أسطوري اسمه دانيل Danela» (تاتوت، ١٩٨٨م، ١٣٦).

ويذكر تاتوت أيضًا أن السنة الفينيقية كانت تتألف من اثني عشر شهرًا قمريًّا، وليس بالإمكان القول ما هو الترتيب الذي نتابع به هذه الأشهر تمامًا؛ ولكن الأسماء التي أعطيت لهذه الأشهر، باستثناء واحد أو اثنين، لا علاقة لها ببابل ولا آشور.

(٤) عقيدة التضحية

لا شك أن الكنعانيين عرفوا جميع أنواع الأضاحي النباتية والحيوانية والبشرية، فقد كانوا يقدمون القرابين من الخبز والطحين إلى تماثيل الآلهة في الغابات، وكانوا يذبحون الحيوانات ويصبون الخمور فوق الأضرحة لتشربها الأموات في العالم الآخر. ومن المرجح أن دم الذبائح كان يهرق في المقابر (انظر: ميديكو، ١٩٨٠م، ١٢٧).

ويكمن المنطلق اللاهوتي للتضحية البشرية بشكل خاص في الاعتقاد بأن الشخص المضحَّى به سيبقى حيًّا بعد الموت، بل وسينال حياة سعيدة، فهو أوفر حظًّا من الآخرين لأنه سيكون مقربًا من الآلهة، وكانت طريقة التضحية تتناسب مع طبيعة الإله المضحى له؛ فالإله ملكارت كانت تقدم له الأضاحي حرقًا بالنار، وكذلك الإله «بعل حمون» في الغرب البوني.

وعند الأوغاريتيين كانت الأضاحي الحيوانية تذبح بأعداد سبعة أو بمضاعفات السبعة. وفضلًا عن الثور والخروف، كانت تذبح الأيائل والأوعال والظباء (انظر: المرجع السابق).

(٥) الإله والإنسان

لم تكن علاقة الإله بالإنسان علاقة المطلق البعيد بالكائن الضئيل؛ بل كانت علاقة متداخلة؛ فقد عرفنا أن الإنسان نشأ مع الجيل الأول من الآلهة بعد خلق الأرض والسماء؛ بل وعرفنا

أيضًا أن أسماء الآلهة الأولى هي التي شكلت أسطورة الإنسان الأول وأبنائه (آدم، حواء، قابيل، هابيل، شيت ... إلخ)، وهو ما انتحله كتاب سفر التكوين في العهد القديم.

وكان الملك يحظى أحيانًا بتعبير «ابن إيل» مثل الملك الأكبر، و«ابن داجون» مثل ملك دمشق. وكانت كلمة إيل مقدسة لا تتزعزع وبمثابة الحكم القضائي، حتى إن إيل إذا ما نطق بخبر سيئ فلا يُمحى إلا بطقس تطهيري.

الإله يقود الإنسان ويشير له بيده نحو ما يجب عمله، والإله يمسك الموت بيديه كما يمسك الدواء الشافي بأصابعه.

كانت أعضاء الجسد البشري كلها معرضة للدمار، وكانت الأحشاء الداخلية والأمعاء هي مركز الحياة العاطفية، ولذلك تخرج الشكاوى من الأحشاء. وكانت الصلوات درع الأحشاء، تقيها من المرض.

وكان الدم هو جوهر الإنسان ودلالة حياته، ولا مكان للروح، بل هي تحتوي الإنسان.

(٦) الأصنام

برغم أن الكنعانيين كانوا يقيمون لبعض آلهتهم تماثيل ونقوشًا، ويجسدونهم على هيئة الإنسان مع إضفاء هيبة إلهية خاصة من خلال رموز ذلك الإله، الذي تكمن قوته في الرموز، رغم ذلك كان الكنعانيون ينفرون من عبادة الأصنام أو التماثيل بذاتها.

ويندر وجود تماثيل صخرية أو حجرية للآلهة؛ بل إن هناك تماثيل معدنية صغيرة كانت توضع في المعابد، وهناك نقوش ورسوم. أما الأوثان الحجرية فتكاد تنعدم، ولذلك فإنهم كانوا ينفرون من عبادة هذه الأوثان لذاتها.

وكانت الأصنام أو الأوثان هذه على نوعين:

(أ) البسل psl، وهي أصنام فينيقية تقوم عبادتها في الغابات، وقد تعلم الكنعانيون هذه العادة من الفلسطينيين في عهد الملك الأكبر (ربما أبيمالك)، حيث كانت تقدم لها الأضاحي والذبائح.

(ب) الأل ell، فتعني تماثيل الفضة وتسمى أحيانًا «بوميلو pumilu»، أي تماثيل من الفضة بوزن ثلاثة مكاييل، وهي تماثيل الآلهة الكنعانية المعبودة وليست أصنامًا، وهي اللفظة التي أطلق عليها اليهود في التوراة ترافيم teraphim، وربما دلت أيضًا على آلهة عائلية أو تماثيل منزلية (انظر: ميديكو، ١٩٨٠م، ٨٠).

(٧) اللعنات والفأل السيئ

كانت اللعنات قوة سيئة التأثير على الإنسان من قِبل الآلهة، وكانت القوة المقابلة للعنة هي «الشفاء وقوة الحياة» أو «البعث أو الانتصار»، وكانت المطالبة بالمبعث واردة في حالة الموت فقط. وكان الإنسان يحاول الشفاء من أي داء أو الانبعاث خلاصًا من أية علة ناجمة عن لعنة (ميديكو، ١٩٨٠م، ٨٩).

وكانت «بيت اللعنات» مكرسًا للَعْن بعض الآلهة؛ مثل إيل، حيث يحرص بعل على ذلك. أما «تجربة الآلهة» فكان كل إله يجرب عبادَه لمعرفة إيمانهم به، وهو نوع من الامتحان عند الشدائد.

وكانوا يؤمنون بالفأل الحسن والفأل السيئ، ويعتبرون إنجاب الأبناء فألًا حسنًا ويحذرون من تقديمهم كنوزًا للآلهة إلا في ظروف استثنائية جدًّا، وخصوصًا عند الغرب البوني.

وطبيعي أن الرقم «٧» كان مقدسًا عند الكنعانيين، فهم يقدمون سبع ذبائح، وهناك سبع سنوات رفاه، وسبع صعبة ... وهكذا.

(٨) عقائد ما بعد الموت

كان الكنعانيون يؤمنون بوجود حياة بعد الموت؛ ولكن فكرتهم عن هذه الحياة كانت بسيطة للغاية، فهي لم تكن مثل عقائد ما بعد المصرية، وربما اقتربت من العقائد العراقية القديمة بشكل أقوى؛ رغم أن الكنعانيين أضافوا لها فكرة اصطحاب الميت لأدواته وحاجاته بعد أن يدفن في القبر.

وكانوا يرون أن الجسد يبلَى في القبر؛ ولكن الروح تتحول إلى «ظل» يشبه الجسد، وهكذا يمتلئ العالم الأسفل بحشود من الظلال المعتمة غير النورانية، التي هي بمثابة أرواح الموتى.

ولا نمتلك معرفة تفصيلية لعالم ما بعد الموت أو العالم الأسفل وكيف تعيش فيه أرواح الموتى مع آلهة وشياطين العالم الأسفل. ويبدو أن الروح تنحصر معرفتها بالموتى وتستقر في قعر البحر وتسلك في الظلمات وفي أعماق الهاوية.

وكانت القبور القديمة التي عثر عليها في أوغاريت مبنية تحت القصور الملكية، وهي تشبه إلى حد كبير قبور الثالوس التي عثر عليها في كريت، وربما كانت القبور الكنعانية هذه هي أصل القبور الكريتية؛ لأنها الأقدم (شكل ٤-٥).

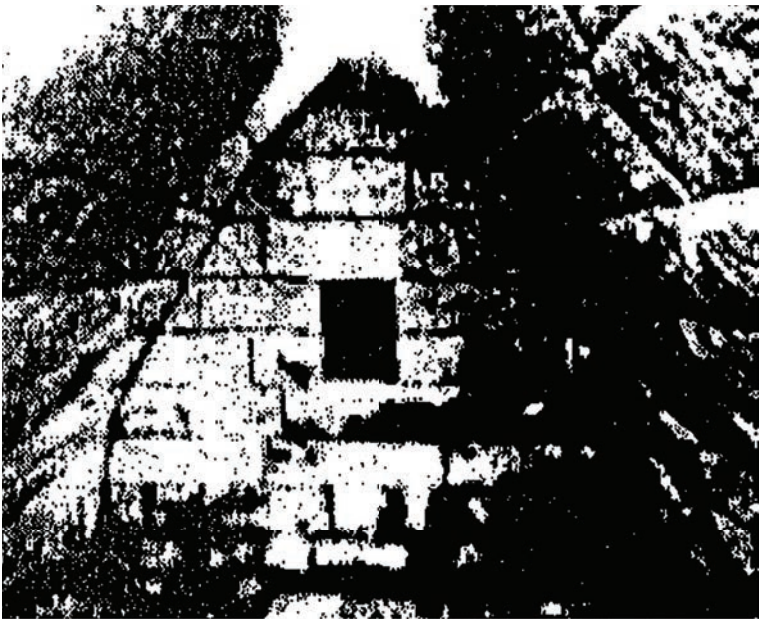

شكل ٤-٥: مقبرة ملكية مشيدة بالحجارة، أوغاريت، القرن ١٤ق.م. (عن: علام، ١٩٩٢م، ٢٠٠).

ويبدو أن القبور ظلت في قرطاج محافظة على تقاليدها الفينيقية القديمة؛ فقد عثر على قبور قرطاجية تعود إلى القرن السابع على شكل حجرات معدة للدفن، وغطيت بسقف من البلاط المرصوف، وكانت هذه الحجرات محفورة في الصخر أحيانًا.

ثم نزلت القبور إلى عمق الأرض حتى وصلت إلى عشرين مترًا تحت سطح الأرض تؤدي إلى حجرتين أو ثلاث، تقع الواحدة منها فوق الأخرى، وكانت الأجساد توضع في داخلها على مقعد، أو في ناووس بعد أن تلف بكفن، أو تمدد في نعش مدهون باللون الأحمر، وقد تدفن مع الميت جواهره وآنيته ومصابيحه وأباريقه وأدوات زينته (انظر: ميادان، ١٩٨١م، ٩٧).

وكان القرطاجيون يستخدمون نوعًا آخر من المقابر الهرمية الشكل متأثرين بالمصريين في ذلك. وكانوا يزودونها بالاحتياجات الرئيسية التي تلزم المتوفى، وبتماثيل الآلهة والأقنعة الطاردة لقوى الشر (انظر: الناظوري، ١٩٨١م، ٢١٤) (شكل ٤-٦).

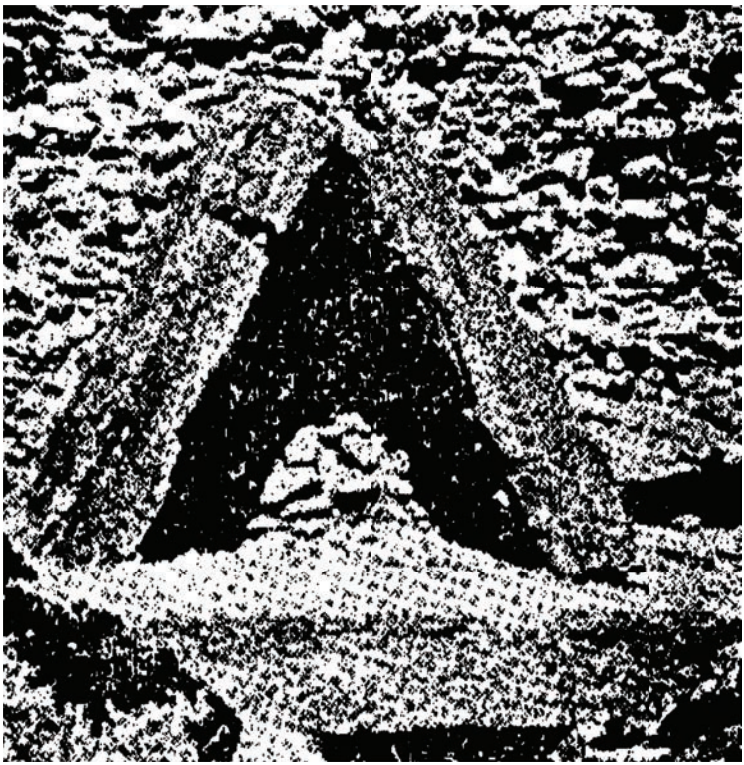

شكل ٤-٦: مقبرة قرطاجية ترجع إلى القرن السادس ق.م. ويلاحظ استخدام الشكل الهرمي فيها (عن: الناظوري، ١٩٨١م، ٢١٩).

كانت الروح تسمى «برت» عند الكنعانيين، وكانت معزولة عن الجسد، رغم أن بعض النصوص توضح أنها الإناء الذي يحتوي الجسد وليس العكس.

ويبدو أن الروح يجب أن تستقر هادئة مع الجسد، فإذا ضجت أكثر فإن ذلك يؤدي إلى المساس بالآلهة، ولذلك يجب على الروح أن تذهب وتستريح في الأرض لتتحول إلى «ظل» من ظلال العالم الأسفل، وكان الأوغاريتيون يرون بأن شكل الروح يشبه النخلة.

الفصل الخامس

الطقوس الكنعانية

دراسة في الطقوس والشعائر الأوغاريتية والفينيقية والقرطاجية

«انبذ بالسيف ما تتحمل من ضلال. اطحن بين حجري الرحى ما تتحمل من ضلال. ابذرها في البحر.»

من ملحمة اللآلئ للكاهن الأكبر إيلي ميلكو القرن ١٤ق.م.

تشكل الطقوس والشعائر الدينية الركن العملي لأي دين، فهي تستمد مادتها الروحية من الأساطير، ومادتها النظرية الفكرية من اللاهوت؛ لكنها تحول كل هذه المادة إلى أفعال عملية تشعر الإنسان المتين بديمومة واستمرار حضور الدين في حياته التفصيلية اليومية.

ولا تختلف الطقوس والشعائر الكنعانية من غيرها؛ فهي تنقسم إلى أربع مجموعات أساسية؛ هي: الطقوس اليومية، وطقوس المناسبات، والطقوس الدورية، والطقوس السرية.

(١) الطقوس اليومية

(١-١) الاغتسال والتطهير

كان طقس الاغتسال والتطهير من الطقوس اليومية التي يقوم بها المتعبد أو الكاهن الكنعاني، وكان الاغتسال والتطهير يجري وفق أربعة أنواع معروفة؛ هي:

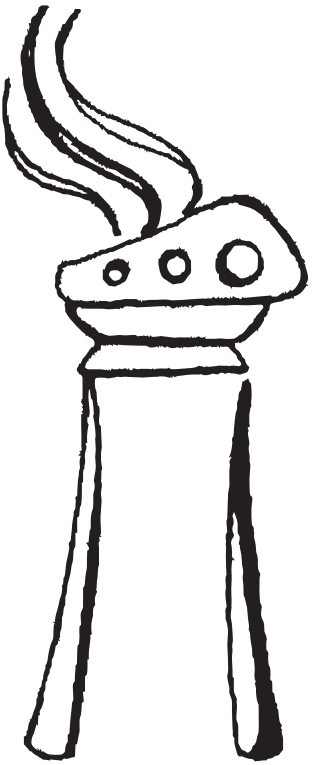

موقد كنعاني لعمل الطقوس.
رسم: فاروق كاظم.

(أ) الماء

حيث التطهير بالماء هو الأساس، وكانت من المعتقدات السائدة أن عملية التطهير بالماء ترضي الآلهة فترسل المطر إلى الأرض.

وكان الاغتسال والتطهير بعد الحرب ضروري جدًّا؛ لأنهم يعتبرون الحرب جريمة لا بد من غسل آثارها. وكانت طقوس التطهير تجري لغسل البيت بجميع غرفه وجميع محتوياته وما تحتها.

وكانت هناك أنواع أخرى من الاغتسال كانت تتم بقصد الوقاية من الأمراض ووضع حد للأوبئة والأرزاء. كما أن التكريس بالماء يساعد على طرد الأبالسة وإبعاد السرية

(المخطية) التي يبدو عليها الختل والكذب. كما أن دق الطبل يدخل في بعض الطقوس (انظر: ميديكو، ١٩٨٠م، ٣٧).

(ب) الزيت (الدهان)

لم يكن طقس المسح بالزيت طقسًا مقتصرًا على الملوك والكهنة في بداية ظهوره عند الكنعانيين، فقد كان طقسًا عامًا لعامة الشعب يقوم به الإله إيل، تبدل هيئة الشخص لكي لا يقع عليه الشقاء. كذلك كان «دهان الأرجوان» مفضلًا عند الكنعانيين سحريًّا ضد بعض الأمراض، أو استرضاء لبعض الآلهة.

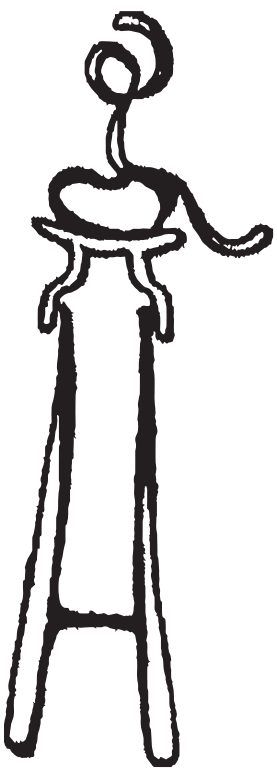

شكل ٥-١: إحدى أدوات الطقوس.

لكن الشائع هو أن استعمال الزيت كان يخص الملوك حيث تنتقل السلطة للملك بعد الدهان ويعتبر ابن الإله إيل، وكان الزيت يحفظ في أوعية خاصة، وربما كان القرن يستخدم لحفظ الزيت وهو قرن حيوان كبير مجوف تمامًا من الداخل.

كاهن أمام موقد النار (ختم من بيت ثان).

(ج) النار

كانت النار أعظم وسائل التطهير، فالذبائح تطهرها النار، والمعادن تطهرها النار عندما تصهر فيها، وكانت النار وسيلة التبخير، وكان طقس التطهير بالتدمير يجري عادة عن طريق النار. والنار مقدسة طقسيًّا لأنها تعود إلى الإله «ملكارت» وقبله الإله «أش».

وكان هناك في بعض المعابد أو خارجها ما يشبه المحارق التي تستعمل لطقوس الحرق.

(١-٢) الصلاة

وتسمى بالكنعانية رجم rgm، ومن مدلول اللفظة يفهم أنها كانت تتلى بتضرعات صارخة، إن البشر والآلهة على السواء تؤدي الصلاة، كما تؤديها أيضًا الحجارة والنباتات، وكيما تكون الصلاة مجدية يجب تكرارها دون إزعاج الآلهة وللصلاة مراحل وتقاليد،

فهي تبدأ بعرض الحالة الحاضرة، ثم يأتي تعداد الصفات الإلهية مع الإشارة إلى حالة المتضرع. وفي الغالب تتركز الدعوات على إنهاء المصائب وعودة الازدهار والبعث. وتكون الصلاة خالية من أية دعوة ضد الغير إلا في حالة توجيهها ضد الشياطين والأرواح الضارة (انظر: ميديكو، ١٩٨٠م، ٣٦-٣٧).

تتضمن الصلاة بعض الحركات؛ مثل: التذلل أمام الإله، والارتماء على الأرض (السجود).

وهناك نمط خاص من «صلاة الشكاوى» التي تكرر شكواها فقط.

وقد تقام الصلاة من أجل الملك أو من أجل رفع مصيبة عن البلاد.

في الصلاة المرفوعة إلى عناة مثلًا يقف المصلي أولًا ويرفع عينيه إلى السماء، ثم يركع، وأخيرًا يرتمي على الأرض. وهذا مقطع من صلاة مرفوعة إلى عناة من قِبل الملك الكبير الكنعاني:

«إني ألوذ بك، أطلب نصحك.
هو ذا شعبي «... عند» قدميك، شعبي الذي
وسفوحك — الصلوات خرساء؛
ولكن النار تضطرم في أحشائي فأصرخ إليكِ
بحزن وأكرر الصلاة.
الخشب والبلاط الحجري
يشكوان إلى السماء — شعب البلاد.
في الهاوية، شعبنا يتوهج من الآلام؛
بسبب البرد والصاعقة والشقاء، فلتعلنهم السموات بالصلاة» (ميديكو، ١٩٨٠م، ١٩).

أما الصلاة إلى بعل، وعلى أقل تقدير بالنسبة للملك الكبير، فالاعتزال عن غير الواجب، وعلى المصلي أن يخلع ثيابه ويعلقها بجواره، فلا يجوز مثل هذه الصلاة إلا في حالة العري التام، ثم يشرع في البكاء والنواح ويشتم الآلهة الأخرى المعادية حتى يستجيب الإله بعل. وأثناء الصلاة يعلن المصلي إلى بعل «الأخبار السارة» التي كانوا عادة يحتفظون بها للإله إيل، ويخبره بعملية الصهر (صهر التماثيل)، وبعد ذلك يطلب المصلي أن يحصل على أجنحة (كالشياطين) يرتفع بها نحو بعل فوق الغيوم (انظر: ميديكو، ١٩٨٠م، ٥٠).

محرقة (عن: Cook 1930).

وسنقتبس هذا المقطع من ملحمة اللآلئ الكنعانية (الملك الكبير)، توضح فيها صلاته لبعل:

«لقد خَفَت الصوت في فمه الجاف
وهو عريان، بينما ثيابه معلقة.
وبصوت مملوء بالبكاء تصحبه اللعنات
أخذ يشتم، وما أكثر ما شتم، وفي الخفاء
بكل أمانة وهو عريان بينما ثيابه معلقة،
وبصوته هو بدأ يحتفل ببعل.

إنه يعلن أخبار إيل الطيبة.
وإلى داعون عملية الصهر،
أجنحة إلى السير
حتى يرتفع نحو ممتطي الغيوم.
وعند هذا الحد ابتهج السيد الأعظم» (ميديكو، ١٩٨٠م، ٤٥-٤٦).

(١-٣) صبُّ الخمور على الأرض

كان طقس صب الخمور على الأرض عاديًّا، وكان الكنعانيون يعتقدون أن السماء تلتذ به، ويمكن أن ينهي حالة الجفاف، وهو ترميز لسقوط المطر من السماء إلى الأرض.

(١-٤) العربون (النذور)

كانت النذور تختلف من إله لآخر ومن مناسبة لأخرى؛ ولكنها بشكل عام كانت توضع عند قدمي تمثال الإله في هيكله أو معبده للتأثير عليه.

(١-٥) دق الطبول

كان طقس دق الطبول تطهيريًّا، والغاية منه هي طرد الأرواح الشريرة.

(١-٦) صهر التماثيل

كان صهر التماثيل يعد طقسًا تطهيريًّا ونذريًّا في الوقت نفسه، فهو تطهيري لأنه يجعل النار تلامس المعادن التي تعرضت للرجس البشري، والتي أخذت شكل آلهة معينة مرفوعة من قبل صاهر التماثيل، وكان صهر التماثيل يعقُبه صب تمثال جديد لإله معبود؛ ولذلك كان زِق الحداد مكانًا أساسيًّا لصهر وصب التماثيل، ويعبر هذا الطقس عن ولاء العابد لمعبوده.

وتختلف قيمة التماثيل المصهورة والمصبوبة حسب نوع معدنها، فهناك التماثيل الذهبية والفضية والبرونزية والنحاسية والحديدية، وهي تماثل طبقات الناس وقدرتهم المالية على تقديم هدايا الآلهة.

(١-٧) تعرفات الذبائح

كشفت النصوص البونية المعروفة بهذا الاسم عن أهمية النذور المشفوعة بنصوص ونقوش توضح طبيعة هذه النذور المقدمة إلى إله محدد في معبد محدد، وتبين هذه النصوص حصة الكاهن وحصة الناذر، وأغلبها مقدم إلى الإله بعل حمون والإلهة تانيت (انظر: ميادان، ١٩٨١م، ٦٢-٦٣).

وكانت الذبائح نظريًّا تقوم على فكرة مثلثة أساسها أن الذبيحة تربط الإنسان بالإله وتوضح مدى وفاء ذلك الإنسان له، ثم إنها تحرره من أخطائه وتوحي بفكرة الفداء التي من أُسُسها أن يفدي الإنسان نفسه للإله؛ لكنه يقوم باستبدال حيوانًا بنفسه يقدم بديلًا عنه.

وكانت الذبائح في العالم البوني (الفينيقي الغربي أو القرطاجي) على ثلاثة أنواع؛ هي:

(١) الذبيحة المحرَقة: وهي التي تتلف كليًّا بالنار.
(٢) ذبيحة الاشتراك.
(٣) ذبيحة التكفير.

وهناك نوع آخر ظهر بشكل واضح في الطقوس البونية وهو «ذبيحة الأبكار»؛ حيث كان الأطفال الرضع والأولاد يقدَّمون كضحية ثمينة للآلهة، وخصوصًا «بعل حمون» عندما يدرك الناس الخطر الجسيم.

وقد كشف مذبح «سلامبو» في قرطاج عن مذبح يحتوي على عظام محروقة وتمائم.

وكانت طريقة تقديم ذبيحة الأبكار تتم بأن «يوضع الآجُرُّ داخل تجويف الصخر وتغطى بطبقة من الحصى الدقيقة، وعندما تصبح هذه القطعة المسورة ممتلئة تُغمر بطبقة من الرمل الأصفر، ثم تدفن فيها من جديد مجموعة من الآنية التي تحتوي على رفات المولودين الجدد، وكانت هذه الآنية تجمع كل ثلاثة أو أربعة منها ليعلوها لوح نقشي أو حجر كبير مقصب، وفي الطبقات العليا تحل الأنصاب محل الألواح النقوشية المزخرفة» (المرجع السابق، ٧٢).

(١-٨) القرابين

كانت النذور والقرابين من غير الذبائح توضع أيضًا مع الميت، وقد عثر في مدن قرطاجية عدة، مثل سنتاس، على إناء بقرابين يمثل حيوانًا أقرب إلى الشاة (شكل ٥-٢). وهناك إناء غريب خاص للقرابين متعدد الأوعية به سبعة أوعية منفصلة كل منها في هيئة زهرة السوسن (شكل ٥-٣).

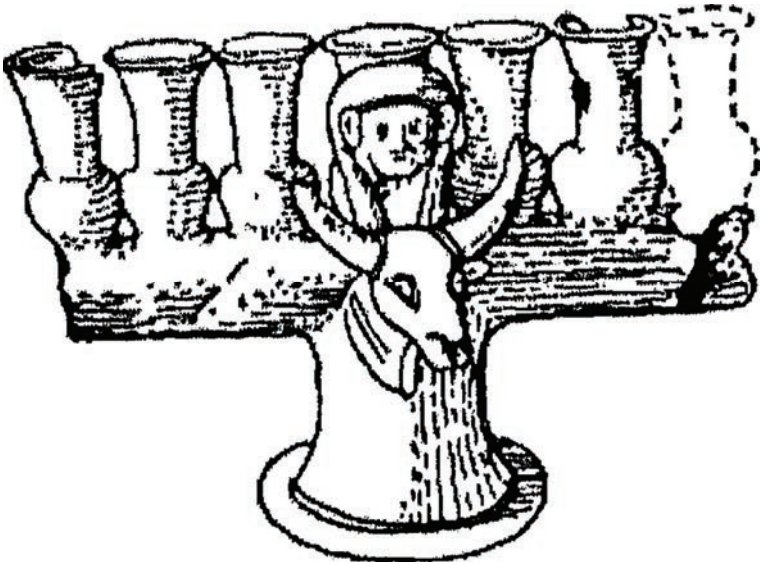

شكل ٥-٢: إناء قرابين على شكل جِرار محملة على ظهر حيوان (Harden 1962: 97).

(٢) طقوس المناسبات

(٢-١) طقوس بناء المعبد

لعل بناء الهياكل والأنصاب والمعابد كان يترافق مع مجموعة من الطقوس التي ما زلنا نفتقد صورتها الواضحة في النصوص الآثارية؛ لكن هدم المعبد كان نذيرًا بالشر.

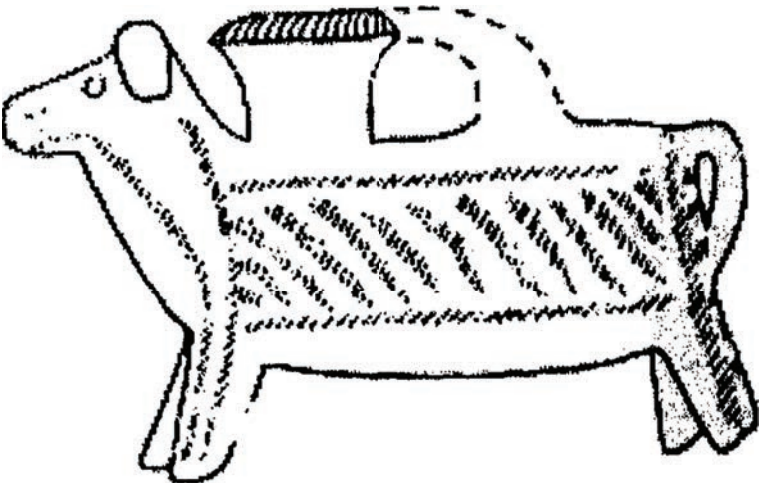

شكل ٥-٣: إناء قرابين على شكل شاة (عن: Harden 1962: 98).

(٢-٢) طقوس الزواج

لعل أسطورة زواج «نيكال» من «يرح» توضح لنا بعض طقوس الزواج الكنعانية القديمة.

كانت الإلهة عناة راعية الخطوبة والزواج وطقوسها تكرس القران الزوجي الشرعي، وهذا ما يعاكس بعلًا وطقوسه الإباحية التي كانت ترعى الحب المحرك (ميديكو، ١٩٨٠م، ٣٤).

وكانوا يرون في الحب والزواج تأثيرًا على قوة إخصاب الطبيعة وحفزًا لها على القوة والنماء. أما طقوس المداعبات والحب المحرم فكانت تضر بالطبيعة وخصبها.

كانت عناة ترعى خطوبة الرجل والمرأة، وكانت كوثرات ترعى حمل المرأة وولادتها، وكانت المرأة تحظى بنوع من التقديس عند الكنعانيين، ولها كل أنواع الاحترام. أما المرأة المومس (السُّرِّية) فكانت منبوذة ولا تسكن بيت الرجل؛ بل تسكن في خيمة. وكانت المرأة العاقر تحظى بالعطف ويُقدم لها الطعام والشراب.

ولم تكن عادةً التضحية بالأطفال شائعة؛ بل كانت في حالات نادرة جدًّا أثناء الأزمات؛ كالحروب والمجاعة ... وغيرها، وقد كانت الإلهة تانيت ترعى الأطفال الصغار بشكل خاص.

وكانوا يرون أن من لم يستطع الزواج على الأرض فإنه يتزوج بعد الموت في مملكة الجحيم (العالم السفلي) عندما تصبح روحه ظلًّا، أي شيئًا مُعتِمًا وليس نورانيًّا (ميديكو، ١٩٨٠م، ١٢٣–١٣٤).

(٢-٣) طقوس الموت

كان الموت استراحة للإنسان بعد حياة مليئة بالآلام، وكان الموت في حالة الحياة الآثمة عقابًا سواء كانت بمشيئة الإله أو الشيطان.

وكان الموت نهائيًّا ولا مجال لحياة في العالم السفلي إلا ما تبقى عليه الروح من حال يُرثى لها، وهو ما يشابه العقائد العراقية القديمة.

وربما كانت عملية استحضار أرواح الموتى واردة في الطقوس الكنعانية حسب ما يرى ميديكو؛ ولكننا نعتقد أنها حالة خاصة ونادرة تشبه الحالة النادرة لعبادة الموتى؛ إذ لا يوجد ما يشير إلى أن الكنعانيين مارسوا «عبادة الموتى»، ولكن الطقوس الجنائزية المهيبة للميت كانت ترمي إلى ضمان حماية الميت من قِبل الآلهة في العالم الآخر «وتحمل بعض الألواح النقوشية التي اكتشفت في مذبح سلامبو زخارف تتعلق بخلود النفس، ومن هذه الزخارف الأوراق المصورة على شكل قلب، وأكاليل الورق، والآنية الخمرية. ويكتمل فن التصوير هذا ببعض المشاهد من الولائم الجنائزية» (ميادان، ١٩٨١م، ٧٣).

كان الكنعانيون والفينيقيون والبونيون يضعون الموتى في القبور المزينة بأنصاب جنائزية، وكانت هذه القبور تشبه الآبار الضحلة.

والأنصاب ذبيحة بشرية أو حيوانية (وخصوصًا في قرطاج)، وتوضع بقايا الذبيحة داخل جرة تدفن تحت النصب الذي يحمل في أغلب الأحيان نقشًا مُهدى إلى الإلهة تانيت والإله بعل حمون (انظر: ميادان، ١٩٨١م، ١٠٠–١٠١).

وتنقسم الأنصاب الجنائزية إلى:

(١) **الأنصاب الناووسية:** وهي مربعة الشكل، مزينة بمشكاة مجوفة يعلوها إفريز وكورنيش مصري، ويسندها عمودان مستطيلان بارزان قليلًا، وفي داخل التجويف صورة إله، أو حجر مقدس، أو مسلة، أو رسم على شكل مومياء فوقه هلال غالبًا.

(٢) **الأنصاب المذبحية:** وهي على شكل دلة المذبح المستطيلة الحاوية تجويفًا يوضع فيه الجرة التي تحتوي على الذبيحة.

(٣) **الأنصاب العرشية:** والتي على شكل عرش إله، فهي قواعد مربعة يرتفع جانبها الخلفي على شكل مسند يتصل بمرفقين، ويلاحظ في وسطها تجويف معد لصورة الإله.

وأغلب هذه الأنصاب عثر عليها في مدافن قرطاج كما تذكر مادلين ميادان، وتحتوي على رموز إلهية ودينية وطقسية، وأحيانًا تُنقش الأضاحي الحيوانية في أسفل اللوح (الخراف، الطيور، الثيران ... إلخ). أو صورة الكاهن أمام المذبح، أو الكاهن بثوبه الطويل وهو يحمل الطفل أو الحيوان المضحى به، أو المرأة التي تريق الخمر، أو الإلهة تانيت برموزها، أو وهي تحمل ولدًا وهلالًا.

أما التوابيت الحجرية فكان بعضها على شكل آدمي، وهي بذلك تشبه النواويس المصرية، كالتي عُثر عليها في جبيل وصيدا. وكانت التوابيت المتأخرة تشبه التوابيت الإغريقية. إن لوحة «بعلياتون» من «أم العمد» التذكارية الموجودة في كوبنهاجن حاليًا تصور الكاهن بعلياتون وهو يرتدي غطاء رأس قصير مستدير ورداءً طويلًا، وفي أعلى اللوحة قرص مجنح وثعابين والكاهن يؤدي طقوسًا دينية واضحة (شكل ٥-٤).

وتظهر النواويس الحجرية من قرطاج متميزة وجميلة جدًّا؛ فقد استخرج من مدافن «سانت مونيك» في قرطاج ناووسان يعودان للقرن الرابع ق.م. يصور الأول في نقش بارز مستدير امرأة ممددة ويغطى رأسها الصغيرة حجاب ذو أطراف مزينة بصف من الشراريب، ويلتقي عند ركبتها جناحان طويلان مطويان، وتمسك بيدها اليمنى حمامة وبيدها اليسرى عُلبة حلي، ويتوهج الناووس بكامله بالألوان الفاقعة. والناووس الثاني لكاهن يحمل في يده اليسرى مجمرة بخور ويرفع يده اليمنى إشارة للصلاة (انظر: ميادان، ١٩٨١م، ٩٩).

وكانت المقابر الخاصة للحكام وأبناء الطبقة العليا، أما العامة فكانوا يدفنون في حفر عادية، وأحيانًا بشكل جماعي خصوصًا لقتلى الحروب.

(٢-٤) الألواح الجنازية

وهي أشبه ما تكون بـ «شواهد القبور» التي شاع استعمالها منذ القرن الرابع قبل المسيح حتى نهاية الحقبة الرومانية في قرطاج.

شكل ٥-٤: الكاهن بعلياتون من «أم العمد» (عن: Harden 1962: 43).

كانت تثبت قاعدة هذه الألواح فوق القبر بواسطة الطين، وكان أعلى اللوح عبارة عن زخرف مثلث. وكان بعضها يصور الميت من ناحية الوجه وهو في وضع الصلاة فاتحًا كفيه ومادًّا راحتيه إلى الأمام (انظر: ميادان، ١٩٨١م، ٩٨).

(٢-٥) طقوس الدفن أو الحرق

كانت الأجساد تكفن وتدفن أو تكفن وتحرق، وتتضح طقوس حرق الأموات وحفظ رمادهم في وعاء داخل القبور في قرطاج (القرن الرابع ق.م.) وكانت منصبة على الأطفال المضحى بهم؛ حيث يُحفظ رمادهم داخل جِرار في مذبح، كما في مذبح سلامبو.

وقد عثر في بعض المقابر البونية على أمواس حلاقة اتضح أنها كانت أدوات طقسية أو سحرية تدفن مع الميت قرب رأسه، ويمكن أن تشير إلى ضرورة حلق شعر جسم الميت كله أو بعضه بعد الموت مباشرة؛ لكي يتهيأ خاليًا من الشعر إلى حياة العالم الآخر.

ولا زال بعض المسلمين يمارسون هذه العادة. وتتكون أمواس الحلاقة من قبضة على هيئة عصفور أو راس بطة أو تم تنتهي بنهاية حادة تشبه الفأس. وتنقش على القبضة مشاهد طقسية للآلهة مثل تانيت (شكل ٥-٥).

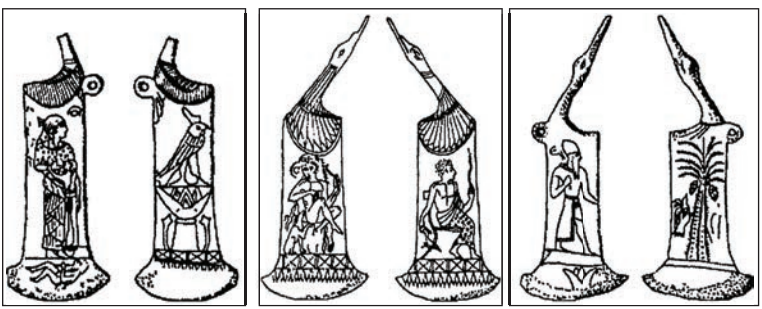

شكل ٥-٥: الأمواس البونية ورموزها وأشكالها الدينية (عن: عصفور، ١٩٨١م، ١٨٠).

أو ملكارت الذي يمسك بطاس من النار، أو بعل حمون، أو النخلة (دامور)، أو تانيت ترضع طفلها، أو الصقر المصري حوري ... إلخ، ويقف الأشخاص المرسومون على ما يشير إلى العالم الأسفل مثل علامة «×» المتكررة الزخرفية، أو على طفل مدفون في العالم الأسفل. وتشير هذه الأمواس إلى اختلاط الفن الديني البوني مع نظيريه المصري والإغريقي. وقد عُثر على أغلبها في قرطاج وسردينيا وإبيزا.

(٣) الطقوس الدورية

الطقوس الدورية هي الطقوس التي تتبع نظامًا زمنيًّا متكررًا وثابتًا، وتظهر الطقوس الدورية على شكل أعياد جماعية كبيرة تحتفل بها الجموع لتعبر عن مخزونها اللاواعي الجمعي في صيغة استعادة لاواعية أيضًا لمثولوجيات قديمة حصلت أو اعتقد الإنسان أنها

حصلت لمجمل الجنس البشري مع بداية الخليقة أو مع انطلاق الأصول التي كونت جذر العادات والتقاليد الدينية الكبرى.

وتشكل نظرية العَود الأبدي أساس فكرة الطقوس الدورية؛ حيث يصار إلى تمثيل العودة الدورية (أسبوعية، شهرية، فصلية، سنوية، أو كل سبع سنوات) إلى الزمن الأول، زمن الآلهة وزمن تحول الوجود من هيوليته الكاؤوسية إلى شكله الكوزموس المفضل.

إن هذا الحنين إلى الأصول الميثية هو الذي يدفع الإنسان إلى تذكر احتفالي لزمن الخلق والبدايات، وجعله في صيغة طقس خارج الزمن التدرجي التاريخي التقليدي، أي إن الطقس الدوري يضع نفسه في الزمن المطلق أو في الزمن «صفر»؛ ليعلن بدء السنة أو بدء الشهر أو بدء الفصل أو بدء السنوات السمان وغيرها.

(٣-١) الطقوس الأسبوعية والشهرية

لا نعرف على وجه التأكيد فيما إذا كان الكنعانيون يحتفلون في نهاية كل أسبوع أو كل شهر بالدورة القمرية أو الشمسية، وهو ما فعله السومريون عندما اتخذوا من نهاية الأسبوع عيدًا أسموه «إش إش»، وهو انتقال القمر من حجم إلى آخر؛ لكننا نرجح أن الكنعانيين عرفوا عيد القمر الأسبوعي بظهور الإله «يرح».

(٣-٢) الطقوس الفصلية والسنوية

(أ) الأدونيات (أعياد أدونيس)

لم تقتصر الأعياد الأدونيسية على الفينيقيين؛ بل شملت أقوامًا مجاورة، كاليونانيين والإيطاليين والمصريين، فقد كانت كل هذه الأمم تحتفل بعيد الإله أدونيس.

ونستطيع أن نصنف الأدونيات كأعياد فصلية؛ لأنها كانت تقام مرتين في السنة عند الفينيقيين والمصريين؛ أما الإغريق والرومان فكانوا يحتفلون به مرة واحدة عند موت الإله أدونيس؛ لأنهم لم يكونوا يقيمون وزنًا كبيرًا لمسألة البعث والعودة من الموت، وكانت تراتيل عيدهم التأبيني هذا موقَّعة على ضوء بحر شعري جنائزي خاص عرف باسم «بحر أدونيس»؛ لأنه يستعمل عادة في مراثي هذا الإله فقط.

وكان زمن الأدونيات يختلف من شعب لآخر؛ فقد كان يستغرق ثمانية أيام كما في الإسكندرية، وسبعة كما في بلاد كنعان، وأحيانًا ثلاثة أيام كما في جبيل، وربما يومين

أحدهما للموت والآخر للبعث. وتنقسم أعياد أدونيس إلى قسمين؛ هما (انظر: جمعة، ١٩٨١م، ٥٨–٦١).

(١) **عيد الأفانيزم** aphanisme: وهو عيد موت أدونيس؛ حيث يوقت موته الموهوم مع بدء الربيع في جبال لبنان عندما تذوب الثلوج وتحمل معها ذرات من التراب الأحمر فتختلط هذه الذرات مع مياه نهر إبراهيم (أدونيس)، وكأنها بمثابة إعلان وتذكير بموت أدونيس، فيسارع الفينيقيون بتأبينه والنواح عليه. وكان يتقدم الاحتفال كهنة يحملون تابوتًا وضعت فيه جثة رمزية للإله أدونيس، وتكون صفراء اللون يتدفق منها الدم، وتسير جنب الكهنة كاهنات (أو بنات الملك أو الحاكم) يحملن فراشًا منفردًا عليه تمثال عشتروت الباكية.

ويسير خلف الكهنة والكاهنات فتيات حاملات سلالًا مملوءة كعكًا وزهورًا وطِيبًا، ثم جمع غفير من النساء المتَّشِحات بملابس الحداد نائحات مُوَلْوِلات.

وعندما يصل الموكب الجنائزي إلى قبر الإله أدونيس عند مغيب الشمس يقومون بوضع الجثة المقدسة في القبر، وهنا تبدأ النساء بنثر شعورهن وقصها، وبالعويل والبكاء، ويكون هذا المكان عادة عند ضفة نهر أدونيس الجاري بمائه الأحمر. وفي مدينة الإسكندرية كان الموكب يسير في احتفال كبير إلى الشاطئ؛ حيث تُرمى جثة أدونيس في البحر ليصير البحر لها ضريحًا، وذلك تمثلًا بالشمس التي تأوي إليه.

وفي الشام ومصر كان الناس يصنعون ما يسمى بـ «جنائن أدونيس» التي هي عبارة عن سلال أو أصص تملأ بالتراب ويرش عليها الماء وتزرع فيها بذور القمح والشعير والخس والزهور، وتقوم النساء بشكل خاص بالعناية بها قبل بدء احتفالات العيد بثمانية أيام ووضعها تحت أشعة الشمس الربيعية الدافئة لتنمو بسرعة ترميزًا لأدونيس الجريح المسجى على فراش الموت، بعدها تذبل هذه النباتات لضعف جذورها، وتُحمل مع موكب ضريح أدونيس في نهاية أيامها الثمانية وبدء اليوم الأول لاحتفالات الأفانيزم، ثم تقذف في الماء مع ضريحه أو قربه.

وكانت طقوس الحزن تستمر سبعة أو ثمانية أيام تعُم خلالها مظاهر الحداد، وتُعرض خلالها أشكال شمعية وفخارية لأدونيس وتسجى أمام مداخل البيوت أو على سطوح المنازل، وفي الموعد المحدد يطاف بها في أسواق المدينة وشوارعها، ترافقها الباكيات يرثين موت الإله ومحاسن صفاته، والنادبات الناحبات يقرعن صدورهن، والراقصات

والمغنيات ينشدن أناشيد الحزن والأسى ويُصعدن الأنات والزفرات على وقع الدف ونغمات الناي ويهتفن: «لقد مات أدونيس الجميل البهي، حقًّا مات!» (انظر: فريزر، ١٩٧٩م، ٢٠).

(٢) **عيد الهفريس** hevrese: وهو عيد القيامة وبعث أدونيس، حيث يتم اكتشاف جثة أدونيس على ساحل النهر أو البحر، وفيه يتسلم أهل فينيقيا سلَّ البردي الذي كانت نساء الإسكندرية يلقين به في البحر رمزًا لامتنان إيزيس المصرية لأدونيس الفينيقي بعد أن عثرت إيزيس على جثة أزوريس في جبيل، حيث كان أدونيس يُعبد ويعيش. وفي ذلك إشارة لتطابق شخصيتَي أدونيس مع أزوريس، وإيزيس مع عشتروت ويحتوي سلُّ البردي على رأس مصنوع من الورق السميك ومعه رسالة لفينيقيا بنهاية الحداد وقيامة أدونيس من الموت، وكان هذا البردي يخص مدينة جبيل (ببلوس) أكثر من غيرها.

يبدأ الاحتفال بإطلاق أصوات الفرح والهرج وهتافات النشوة والانشراح التي تؤدي إلى تناول الخمور والرقص والغناء وممارسة الجنس الجماعي العلني معلنة انتصار الحياة على الموت، وصعود هتاف: «لقد قام أدونيس، حقًّا، قام». وهناك ما يكمل احتفال الهفريس ويقابل طقس «جنائن أدونيس» في احتفال الأفانزيم، وهو طقس إله القمح.

فقد كان من عادة الفينيقيين في تلك الأيام إقامة احتفال كبير لإله القمح؛ حيث تتسربل النساء المتزوجات بملابس بيضاء، ويقدمن إكليلًا من السنابل كباكورة للحصاد، وفي هذا الاحتفال تلتزم الزوجات بالعفاف وعدم الاقتراب من الأزواج لمدة تسعة أيام، حيث يغادرن بيوتهن ويعشن في ساحة الاحتفال التي كانت دائمًا خارج المدينة أو القرية. ويماثل هذا الطقس مثولوجيًّا وجود والدة مورا (جدة أدونيس) خارج دارها طوال الأيام التسعة، حيث تغوي أم أدونيس والدها لتحصل منه على نطفة أدونيس، وهذه بداية خلق أدونيس التي توافق زرع الحنطة وبداية القيامة (انظر: جمعة، ١٩٨١م، ٥٤).

ولقد كانت الأدونيات من ناحية أخرى أعيادًا شمسية ترمز إلى انتهاء فصل الشتاء وبدء فصل الربيع، ولذلك كان البعض يحتفل بموت أدونيس في الصيف (شهر تموز) في احتفال منفصل يعبر عن احتفال الأفانيزم. وتوضح هذه المسألة علاقة أدونيس ومعه الآلهة البعليم (البعول) بالشمس، ولذلك تكون تكنية «بعل سمائيم، وكان لكل البعليم علاقة مع بعض النجوم السيارة؛ إلا أن الإله «تموز أدونيس» معبود مدينة جبيل كانت علاقته مع الأجرام الفلكية أعظم من غيره» (اليسوعي، ١٩٨٢م، ٤٣).

ويرى بعض الباحثين أن أعياد أدونيس كانت أعيادًا خاصة بالشمس في حالات ضعفها وقوتها في فصول السنة.

ونحن نرى أن هذا الرأي يحمل قدرًا من الصحة في العصور المتأخرة الفينيقية ربما بسبب ضعف وظيفة الإخصاب الأدونيسية، والاتجاه بهذا الإله نحو عبادة شمسية ونارية كانت من اختصاص آلهة آخرين مثل ملكارت ورشف وأشمون، وهو ما يشير إلى تعاظم دور هؤلاء الآلهة في العصور المتأخرة.

ودليلنا على ذلك أن جذور الأعياد الأدونيسية تكمن في الطقوس التموزية الشعبية الرافدَينية والطقوس الأوزيرية الشعبية المصرية، وقد مارست هذه الطقوس تأثيرها القديم على بلاد كنعان ثم بهت هذا التأثير وحلت محله عقائد صحراوية وهوائية سببها ظهور الأموريين والآراميين.

(ب) أعياد ملكارت

ملكارت أو «سيد المدينة» هو إله مدينتَي صور وقرطاج، كما كانت عبادته شائعة في مدينتين إسبانيتَين هما «قادس» و«لكسوس» القائمتين على جانبي مضيق جبل طارق. وقد طابقه الإغريق مع الإله «هرقل» لتشابه صفاتهما ومغامراتهما «ويبدو أنه في أول الأمر كان يُعتبر إلهًا للشمس؛ لكنه بعد ذلك، وبعد أن أصبح الفينيقيون أهل ملاحة، اكتسب صفات بحرية أيضًا، وكانت لعبادته في قرطاجة أهمية كبرى؛ حيث إن هذه المدينة ظلت عدة قرون ترسل في كل سنة المكوس وتقدم الولاء لمعبد الإله «ملكارت» في المدينة الأم «صور».» (عصفور، ١٩٨١م، ١٤٥).

وكانت أعياد هذا الإله مرتبطة بالنار بحكم ارتباطه بالشمس، وخلفيته المثولوجية النارية التي شرحناها في الفصل الأول. وقد كان كهنة هذا الإله يعتنون بالنار في معبده، ويسيرون حفاة الأقدام بملابس كتانية.

ونرجح أن تكون طقوس موته وبعثه مشابهة للأدونيات، باستثناء إحراق النار المتصل في معابده.

كان عيده يجري في كانون الثاني من كل عام ويسمى «بعث ملكارت»، وكانت تنصب محرقة كبيرة يوضع عليها تمثال هذا الإله لوحده، أو وهو يركب حصان البحر، وربما كان أحد الكهنة يضحي بنفسه في النار، ثم يقوم الكهنة بحركات درامية تمثل قتال ملكارت ضد التنين «تيفون» ووضع طيور السلوى في النار (وهي تقابل جنائن أدونيس في الأدونيات). وتثير رائحة شواء هذه الطيور الإله الميت ملكارت فيقوم وسط النار ويُبعث، مما يستدعي بدء طقوس الفرح والقصف بعدها.

وتمثل طيور السلوى ترميزًا للطيور الشمسية التي تتحول إلى ما يشبه السبب في عودة ملكارت إلى الحياة، وكأنها قبس شمسي أعاد له الحياة.

(ج) أعياد رشف

وهو إله العالم الأسفل، وإله النار والأوبئة، ويقابل الإله أبولو، ونرجح أن له أعيادًا تشبه أعياد ملكارت، وارتبط اسمه بالطيور «رشف الطيور»، أو التيوس «رشف التيوس» وربما كانت تعني قيامته من العالم الأسفل عودة العافية والصحة إلى العالم.

(د) أعياد ياشمون

وهي أعياد فصلية لإله الطب المرتبط بالنار والعالم الأسفل أيضًا، وهو إله مدينة صَيدا، وكانت شخصية هذا الإله تشير أيضًا إلى ما يشبه طقوس ملكارت النارية.

(هـ) طقس فتح طاقات السماء

ربما كان هذا العيد دوريًّا مع بدايات الخريف، وهو نوع من طقوس الاستسقاء وإنزال المطر القديمة التي مارسها الكنعانيون بواسطة السحر، ولا نعرف ما هي تفاصيل هذا الطقس أو العيد؛ لكن بعض الباحثين يرون في «عيد المظال» اليهودي تقليدًا لهذا العيد، حيث تُجلَب المياه من أحد الأحواض وسط موكب احتفالي ثم تسكب هذه المياه فوق المذبح، وتخرج المياه ثانية من فوهة في أسفل الوعاء وتسيل فوق الأرض (انظر: أذزارد، ١٩٨٧م، ١٩٩١).

(٣-٣) الطقوس السبعية

وهي الطقوس التي كانت تجري كل سبع سنوات، وكانت في الماضي القديم تجري محوريًّا مع الإله إيل، ثم أصبحت تجري مع الإله بعل، وقد رجحنا أن تكون السبعية الإيلية هي أعياد الأكيتو الكنعانية، وفصلنا ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

أما الطقوس السبعية البعلية فربما كانت أعيادًا سنوية وسبعية معًا؛ فهي بين طقوس إيل السبعية وطقوس أدونيس السنوية؛ ولكننا لا نملك ما يفصل لنا هذه الطقوس إلا ما عرفناه من أعياد بَعث بعل أو موته وما يرافق ذلك من فرح أو حزن.

وخلاصة القول: إن الأعياد الدورية بشكل خاص كانت مناسبة لممارسة الطقوس والشعائر التي كان يغلب عليها الطابع الجنسي؛ بسبب ارتباطها بعقائد الخصب وتتخللها أعمال العهر والفجور التي كانوا يتقربون من خلالها إلى الآلهة التي كانت تمثل هذه المظاهر؛ ولذلك كانت النساء اللائي يمارسن هذه الطقوس الدينية لا يمارسنها خارج المعبد وخارج هذا الغرض.

أما الكهنة والكاهنات الذين يمارسون هذه الطقوس فكانوا يلبسون ملابس النساء ويطلون وجوههم باللون الأحمر (الغمرة) ويعرون أذرعهم ويشهرون السيوف ويصرخون ويرقصون كالدراويش، وبعضهم يزحف على الأرض بشعورهم المشعثة ويخدشون وجوههم ويشرحون أبدانهم ويطعنون بطونهم، فإذا سالت دماؤهم واصطبغت أجسامهم قدموا ذلك ضحية لآلهتهم (انظر: اليسوعي، ١٩٨٢م، ٤٥-٤٦).

الفصل السادس

الشرائع والأخلاق

دراسة في المكونات الثانوية للعبادة الكنعانية

لا نملك ما يساعدنا من معلومات على معرفة ما إذا كانت هناك شرائع كنعانية مدوَّنة، ولا نملك فكرة واضحة عن تطبيق الشرائع والقوانين؛ ولكننا في الوقت نفسه نستطيع استشفاف النسيج الأخلاقي الذي كان الدين الكنعاني قد أفرزه خلال عصوره الطويلة، ولأن الشرائع والأخلاق هي مكونات الدين الثانوية لذلك تُوجَب مناقشتها.

(١) الأخلاق الفردية

(١-١) العائلة والزواج والأطفال

كان الزواج القاعدة الأساسية لتكوين العائلة ثم المجتمع، وكانت الإلهة «عناة» ترعى الزواج والخطوبة وغيرها، وكانت هناك أعراف وتقاليد كثيرة لهذا الزواج.

وفي الغالب كان الزواج من امرأة واحدة هو الزواج الشائع، وكان معاشرة المحظيات أمرًا منفرًا.

وكان الإنجاب أمرًا محببًا ومفرحًا، وكانت الإلهة ترعاه، وكانت العائلة تكفل رعاية الأبناء ولا تفرط بهم. ويندر أن يكون الأطفال الكنعانيون ضحية الحروب؛ لأن الشعب الكنعاني كان مسالمًا ولا يحب الحرب.

وكان الأبناء يوشمون عادة لأغراض دينية والحماية من الأرواح الشريرة، أما الختان فكان يمارَس عند الكنعانيين والفينيقيين، فهو يرمز إلى دخول الطفل في دين آبائه وأجداده وإلى اندماجه في المجتمع (الجربي، ١٩٩٦م، ١١٠).

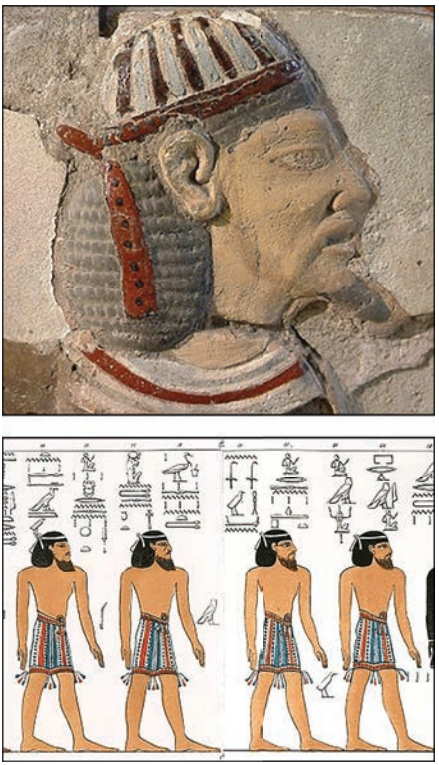

صورة الكنعانيين في رسومات المصريين وكتاب البوابات المصري.

(١-٢) حرق الآثام

كان الكنعاني يحرق آثامه عندما يريد التوبة، فكانوا يكتبون خطايا وآثام الشخص على لوح من الطين ويقومون بحرقه وقطعه بالسيف وذَرِّه في البحر أو دفنه في الحقول أمام الجميع؛ ليكون طقسًا شاهدًا على التوبة وإنهاء السلوك الخاطئ والمنحرف. وقد ورِث اليهود هذه العادة؛ فكانوا يصطادون تيسًا من الصحراء ويذبحونه ويذرُّونه (انظر: ميديكو، ١٩٨٠م، ١٢٥).

(١-٣) التسامح والتواضع والأمانة والصدق

كان المجتمع الكنعاني يزرع المثل النبيلة في أفراده، وكان التسامح أحد هذه المثل حيث يرِد على لسان الإلهة عناة في ملحمة اللآلئ: «إن عدم التسامح لا يقود إلا للخراب». وكان ارتكاب الأخطاء والآثام أمرًا مُشينًا؛ لكن المجتمع كان يسامح المخطئ عن طريق توبته.

وكان التواضع سبيل الكنعاني إلى الحياة المزدهرة، ولولا الأمانة والصدق لما تمكن الكنعاني أن يتحول إلى أكبر تجار العالم القديم، فالتجارة كانت تستوجب الأمانة والصدق.

كل هذه الصفات التي منبعها حب السلام وكره الحروب كانت تتوافق مع الطبيعة المرنة للعبادة الكنعانية.

(٢) الأخلاق الاجتماعية

(٢-١) الإيمان والخوف من الآلهة ونبذ الشياطين

كان المجمع الكنعاني مجتمعًا متدينًا مؤمنًا يخشى آلهته (مخافة الإله دليل على نهاية الشموخ)، وكانت الآلهة (التي تمثل القيم العليا) محترمةً ومُهابة عندهم، إضافة إلى أنهم يحترمون تفاصيل الأساطير في حياتهم؛ فمثلًا عندما كان الملك الكبير يتقرب من بعل ويترك عبادة إيل (وكان ذلك يظهر على شكل توغل أعمال بعل الشهوانية في حياة الناس) كان الناس يذهبون إلى معبد الإله إيل يتوسلونه لكي يبني للإله بعل بيتًا لكي يهدأ ويقلل من دعمه الشهواني للملك الأكبر. وفي هذا السلوك صدًى لتداخل تفاصيل أسطورة بناء بيت بعل في حياة الناس واعتقادهم أنه طالما كان بعل هائمًا على وجهه فإنه سيقوم بأعمال طائشة وسيسبب للناس الأذى.

وإذا كان بعل قد وُضع في تناقض مع إيل فهذا لا يعني نبذ بعل الكلي؛ بل إن احترامه سوف يجري كاملًا عند إقامة طقوس الخصب ونهاية الجدب، فهم ينتصرون لبعل في صراعه مع «موت» أملًا في رفاه العالم وسعادة الناس.

وفي كل الأحوال كان المجتمع الكنعاني ينبذ الشياطين والأبالسة والعفاريت، وهو عندما يعبد بعلًا فإنه لا يرى فيه شيطانًا أو رئيسًا لطائفة الأبالسة كما حاول «العهد القديم» أن يصور ذلك، وكما كان يدعي العبريون إزاء الكنعانيين؛ لأن عبادة بعل هي عبادة ابن إيل أو ابن داجون، وهي عبادة إله كان له الوزن الأكبر في العقائد الكنعانية. وما كان التشويه الذي مارسه العبريون يبدو عنيفًا وقاسيًا ضد الكنعانيين إلا لأن العبريين

كانوا لا يريدون لبعل أن ينافس يَهْوا إلههم، وإذا كان إلههم يهوا خيرًا عظيمًا (في نظرهم) فإن منافسه (بعل) سيكون بالضرورة شريرًا هامشيًّا (في نظرهم).

إن كره الكنعانيين للشياطين والأبالسة يتجلى في نبذهم لـ «موت» ولأتباعه من الكروبيم سَكَنة العالم الأسفل.

(٢-٢) الحرب والسلام

كان المجتمع الكنعاني محبًّا للسلام وكارهًا للحرب، وقد تجلى ذلك في ميل الكنعانيين إلى التجارة وإقامة العلاقات الطيبة مع الأمم الأخرى. وقد دفعهم كرههم للحرب إلى الانتشار خارج بلاد الشام. وكذلك ظلوا بسبب ذلك محافظين على نظام دولة المدينة دون أن تغلي في عروقهم نزعات التوسع والتوحد وإقامة الدولة والإمبراطوريات الكبرى.

(٢-٣) مكانة المرأة الكنعانية

كانت المرأة الكنعانية تتمتع بقدر وافر من الاحترام والنظرة الرفيعة المستوى؛ ولذلك جاءت دعوات الزواج وتكاثر النسل كثيرة في النصوص الكنعانية، وكانت الإلهة عناة ترعى المرأة والزواج الشرعي، وكان ظهور عدد كبير من الإلهات يعكس نظرة الإنسان الكنعاني إلى الكون وأهمية الأنوثة.

إن الأخلاق الجماعية التي رسمت ملامحها الأساطير والحكايات والقصص التاريخية تشير بوضوح إلى أن المجتمع الكنعاني كان مجتمعًا متوازنًا حكيمًا محبًّا للخير والسلام.

إن عدم وجود نصوص تشريعية واضحة في المجتمع الكنعاني لا يعني مطلقًا غياب العدالة، ففي أوغاريت، مثلًا، كانت هناك محاكم يرأسها القاضي الذي يسمح بالمحاكمات العلنية؛ حيث يعرض المتخاصمون قضاياهم ويحكم هو بينهم، وقد يضطرهم إلى أداء اليمين والقَسَم بالآلهة «لقد انطلق المجتمع في ممارسة التشريع وأعمال القضاء من أن الإنسان الحر هو القانون ذاته، وأنه في المقام الأول عضو في مجتمع معين: جماعة عائلية، عشائرية، مشاعة، ناس. ولم يعترف بأنه يمكن للإنسان أن يوجد خارج هذه العلاقات والمؤسسات، فهو مضطهد وليس له أية حقوق خارج الجماعة، جماعته نفسها والوثائق الأوغاريتية ...» (شيفمان، ١٩٨٨م، ٤٣).

فهرس المراجع

(١) المراجع العربية

(١) أذزارد وآخرون، ١٩٨٧م، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين وفي الحضارة السورية، ترجمة محمد وحيد خياطة، مكتب سومر، حلب، السليمانية.

(٢) أوفيد، ١٩٧١م، مسخ الكائنات (ميثامورفوس)، ترجمة ثروت عكاشة، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

(٣) أوفيد، ١٩٩٢م، مسخ الكائنات (ميثامورفوس)، ترجمة ثروت عكاشة، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

(٤) برنال، مارتن، ١٩٩٧م، أثينة السوداء (الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، ط١، تلفيق بلاد الإغريق)، تحرير ومراجعة وتقديم د. أحمد عثمان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

(٥) بنت بطوطه، د.ت، فينيقية، ترجمه عن الفرنسية الأستاذ ف.ك. مطبعة حلبي، دمنهور، ١٣٦٥هـ.

(٦) تاتون، رينيه، ١٩٨٨م، تاريخ العلوم العام (العلم القديم والوسيط)، ترجمة د. علي مقلد، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

(٧) ثابت، حبيب، ١٩٤٨م، عشتروت وأدونيس (ملحمة شعرية)، بيروت.

(٨) الجربي، فيصل علي أسعد، ١٩٩٦م، الفينيقيون في ليبيا من ١١٠٦ق.م. حتى القرن الثاني الميلادي، ط١، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، بنغازي.

(٩) جمعة، بديع محمد، ١٩٨١، أسطورة فينوس وأدونيس (دراسات في الأدب المقارن ٢)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

(١٠) جوردون، سيروس، ١٩٧٤م، الأساطير الكنعانية، عن كتاب أساطير العالم القديم، د. صموئيل نوح كريمر، ترجمة د. أحمد عبد الحميد يوسف، مراجعة د. عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

(١١) حاتم، عماد، ١٩٨٨م، أساطير اليونان، الدار العربية للكتاب، طرابلس.

(١٢) حتي، فيليب، ١٩٥٨م، تأريخ سورية ولبنان وفلسطين، ط١، ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت.

(١٣) حداد، حسني، ود. سليم مجاعص ١٩٩٣م، بعل هداد، دراسة في التاريخ الديني السوري، دار أمواج، دمشق.

(١٤) الخوري، لطفي، ١٩٩٠م، معجم الأساطير، ج٢، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد.

(١٥) دبوز، محمد علي، ١٩٦٤م، تاريخ المغرب الكبير ج١، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(١٦) سليم، أحمد أمين، ١٩٨٩م، في تاريخ الشرق الأدنى القديم (مصر، سوريا القديمة)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

(١٧) سليمان، توفيق، ١٩٨٥م، دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة (من أقدم العصور إلى عام ١٩٩٠ق.م.)، ط١، دار دمشق للنشر، دمشق.

(١٨) السواح، فراس، ١٩٩٣م، لغز عشتار (الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة)، ط٥، دار علاء الدين للنشر، دمشق.

(١٩) السواح، فراس، ١٩٩٥م، آرام دمشق وإسرائيل (في التاريخ والتاريخ التوراتي)، ط١، دار علاء الدين للنشر، دمشق.

(٢٠) الشريقي، إبراهيم، ١٩٨٥م، أورشليم وأرض كنعان، حوار مع أنبياء وملوك إسرائيل، شركة الشرق الأوسط للطباعة، عمان.

(٢١) شيفمان، أ. ش. ١٩٩٨م، ثقافة أوغاريت (في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد)، ترجمة د. حسان ميخائيل إسحق، الأبجدية للنشر، دمشق.

(٢٢) عبد الحكيم، شوقي، ١٩٧٨م، الفولكلور والأساطير العربية، ط١، دار ابن خلدون، بيروت.

(٢٣) عبد الحكيم، شوقي، ١٩٨٢م، موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، ط١، دار العودة، بيروت.

(٢٤) عبد الحليم، عبد المنعم، ١٩٩٩م، معظم الأبجديات العالمية المعاصرة أصولها هيروغليفية، مجلة أخبار الأدب، العدد ٢٩٦، في ١٤ مارس ١٩٩٩م، القاهرة.

(٢٥) عصفور، محمد أبو المحاسن ١٩٨١م، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

(٢٦) علام، نعمت إسماعيل، ١٩٩٢م، فنون الشرق الأوسط والعالم القديم، ط٦، دار المعارف، القاهرة.

(٢٧) علي، جواد، ١٩٨٠م، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد.

(٢٨) العهد القديم، سفر التكوين، عاموس، الملوك الأول، المزامير.

(٢٩) غريمال، بيار، ١٩٨٢م، المثولوجيا اليونانية، ترجمة هنري زغيب، ط١، منشورات عويدات، بيروت-باريس.

(٣٠) فخري، أحمد، ١٩٩٥، مصر الفرعونية (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ق.م.)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

(٣١) فرجيل، ١٩٧٨م، الإنيادة، ترجمة عنبرة سلام الخالدي، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت.

(٣٢) فريحة، أنيس، ١٩٨٠م، ملاحم وأساطير من أوغاريت (رأس شمرا)، دار النهار للنشر، بيروت.

(٣٣) فريزر، جيمس، ١٩٧٩م، أدونيس وتموز، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

(٣٤) كريمر، صموئيل نوح، ١٩٥٧م، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مراجعة د. أحمد فخري، المثنى في بغداد، الخانجي في القاهرة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

(٣٥) كورتل، آرثر، ١٩٩٣م، قاموس أساطير العالم، ترجمة سهى الطريحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

(٣٦) كوفان، جاك، ١٩٨٨م، ديانات العصر الحجري في بلاد الشام، ترجمة د. سلطان محيسن، دار دمشق للطباعة، ط ...، دمشق.

(٣٧) لابات، رينيه، ١٩٨٨م، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين (مختارات من النصوص البابلية)، تعريب الأب البير أيونا ود. وليد الجادر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد.

(٣٨) الماجدي، خزعل، ١٩٩٧م، مثولوجيا الأردن القديم (دراسة في الأساطير الأردنية القديمة)، ط ...، منشورات وزارة السياحة والآثار، عمان.

(٣٩) الماجدي، خزعل، ١٩٩٨م، متون سومر (التاريخ، اللاهوت، الأساطير، الطقوس)، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان.

(٤٠) الماجدي، خزعل، ١٩٩٩م، الآلهة الكنعانية، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمان.

(٤١) الماجدي، خزعل، ١٩٩٩م، الدين المصري، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان.

(٤٢) الماجدي، خزعل، ٢٠٠٠م، العقائد الآرامية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان.

(٤٣) مكغفرن، باتريك، ١٩٩٢م، الأرجوان الصوري (لون الآلهة والملوك) ترجمة مريم أحمد سلامة، مجلة آثار العرب، العدد الخامس، سبتمبر ١٩٩٩م، مصلحة الآثار في طرابلس.

(٤٤) ميادان، مادلين هورس، ١٩٨١م، تاريخ قرطاج، ترجمة إبراهيم بالش، ط١، منشورات عويدات، بيروت، باريس.

(٤٥) ميديكو، هـ. ي. ديل، اللآلئ (من النصوص الكنعانية)، بقلم كبير كهنة أوغاريت إيلي ميلكو، ترجمة وتعليق مفيد عرنوق، ط١، منشورات مجلة فكر.

(٤٦) الناظوري، رشيد، ١٩٨١م، المغرب الكبير (العصور القديمة أسسها التاريخية، الحضارية، والسياسية)، دار النهضة العربية، بيروت.

(٤٧) هبو، أحمد رحيم، ١٩٩٩م، تاريخ الشرق القديم،ط١، سورية، ط٢، دار الحكمة اليمانية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، صنعاء.

(٤٨) وافي، علي عبد الواحد، ١٩٧٩م، الأدب اليوناني القديم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

(٤٩) اليسوعي، ١٩٨٢م، تسريح الأبصار في عجائب الأمصار، بيروت.

(٢) المراجع الأجنبية

(1) Cook, Stanley A., 1930: The Religion of Ancient in the light of Archacology, The British Academy, London.

(2) Gray, John, 1964: The Canaanites, Thames and Hudson, London.

(3) Harden, D. B., 1962: The Phoenicans, London.

(4) Larousse, 1995: Encyclopedia of Mythology, Prometheus Press New York.

(5) Moscati, S., 1968: The World of the phoenicans, Translated from Italian by Alastair Hamilton, London.

هنداوي